Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

امیر حیدر
ابراهیم بک جلال

بلال كب

الأمير حيدر

قصة من عصر السلطان قايتباى
عن حياة المجتمع المصرى على نسق ألف ليلة

دار المعارف
للطباعة والنشر
بمصر

893.7J216
O

مقدمة

ما رأينا فى القصص العربى على كثرته كتاباً استوعب من بحوث علماء أوروبا بقدر ما رأينا فى قصص (ألف ليلة وليلة) .

فقد تناولها بالبحث والتمحيص صفوة من علمائهم ، كسلفسترى ودى ساسى واضع فقه اللغة العربية الحديث ، وعقب عليهما يوسف فون هامر ثم وليم لين . وجاء من بعدهم طبقة أخرى رأسها نولدكه وأويسترب وشوفان .

وقد أجمع غالبهم على أن نواة كتاب (ألف ليلة وليلة) مأخوذة من كتاب قصصى فارسى اسمه (هزار وافسانه) ، وأن الكتاب كله أكبر مجموعة عربية للقصص وأكثرها تنوعاً ، وهى تؤلف فصلاً صادقاً من تاريخ الحضارة الشرقية عامة[1]

وقد استقر الرأى بين أكثر الباحثين فى تلك القصص ، وعلى رأسهم وليم لين ، أن هذا الكتاب وضع وكتب فى الفترة بين عام ١٤٧٥ — ١٥٢٥ م . ويتفق أن عام ١٤٧٥ يدخل فى مبدأ حكم السلطان الأشرف قايتباى سلطان مصر والشام الذى حكم قرابة ثلاثين عاماً من ١٤٦٧ — ١٤٩٥ . فكأن حكايات (ألف ليلة وليلة) قد وضع أغلبها على التحقيق العلمى فى عصر ذلك الملك العظيم الشأن ، وهو العصر الذى جعلت بعض أحداثه موضوعاً لقصتى (الأمير حيدر) .

و إنه يطيب لى أن أشير إلى دولة المماليك التى منها ذلك الملك ، و إلى منزلتها السامية بين الدول الإسلامية بمصر وسائر بلاد المشرق .

فقد حكم ملوكها مصر وسوريا قرابة ثلاثة قرون من ١٢٥٠ م إلى ١٥١٦ م

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية المجلد الثانى

ونبغ فى أيامهم كثير من العلماء فى الأدب والتاريخ والفقه والطب والهندسة ، ممن يضيق النطاق القصصى عن استيعابهم تفصيلاً.

وكانت مصر فى أيامهم الزاهرة محط رحال التجارة بين آسيا وأوربا تمخر سفنها فى البحر الأحمر قادمة إلى الثغور المصرية بتجارة الصين والهند واليمن ، ثم تحملها القوافل حتى تنحدر فى النيل إلى القاهرة عاصمة الشرق ، ومنها إلى ثغرى دمياط والإسكندرية ، فيحملها تجار الإفرنج إلى أوربا .

وكانت القاهرة ، أجمل مدائن الشرق ، تزخر بالمساجد والمدارس والملاجىء والمستشفيات التى شادها الملوك والأمراء .

وهذا كله قد حفزنى لوضع (الأمير حيدر) على نسق (ألف ليلة وليلة) . وقد حرصت جهدى على تصوير المجتمع المصرى، بين أتراك ومصريين ، والتحدث عن مجالسهم ولهوهم وسمرهم وزواجهم ومتاجرهم ودسائسهم و بعض الأحداث الخارجية .

وكان المرجع بعض المختارات من كتاب السلوك للمقريزى ومن خططه، ومن ابن تغرى بردى وابن إياس وابن فضل الله وصبح الأعشى وابن خلكان وفوات الوفيات . ومن قواميس كترمير ودوزى ، والله ولى التوفيق .

ابراهيم جلال

الفصل الأول

بركة الرطلى

كان الوزير بمصر فى الدول الإسلامية الأولى يسمى الصاحب ، إلى أن جاءت الدولة التركية يوم ساد المماليك ، فانحلت الوزارة وانجلت عن ثلاث مراتب ، كبراها رتبة الاستادار ، وصاحبها من الأمراء المماليك ، يتصرف فى دواوين السلطان ، ويشرف على الأقاليم وولاة نواحى مصر . وكان الاستادار فى أيام هذه القصة أكبر الأمراء ، وهو الأمير يشبك بن مهدى . أما المرتبتان الثانية والثالثة فكانتا لحملة الأقلام ، وهما كاتب السر وناظر الخاص .

وكانت كتابة السر كبرى الرتب القلمية ، يقرأ صاحبها بين يدى السلطان كافة الرسائل الصادرة من دواوين الدولة والواردة إليها والتى فيها التولية والعزل ، ويكتب الرد على الرسائل السياسية التى يحملها البريد العادى أو المستعجل فى جناح الطير ، وديوانه بدار العدل التى بالقلعة . فهو المصرى الوحيد الذى يحتفظ بأسرار الدولة ويشير قبل غيره بالرأى ، وله أعوان يدعون كتاب الدست ينسبون إلى دست المملكة ، وهى مرتبة جلوسهم بين يدى السلطان ، كانوا يختارون من أجل كتاب البلاغة ، ويخاطبون « بالشيخ الأجل كاتب الدست الشريف » ، وعددهم عشرون ، فإذا ركب كاتب السر كانوا فى خدمته .

أما ناظر الخاص فكان يتولى شؤون السلطان الخاصة وخزائنه وقصوره .

وتولى كتابة سر السلطنة المصرية بيت كريم من بيوت الأنصار ، جاء بهم من

دمشق السلطان المؤيد شيخ فى أوائل القرن التاسع الهجرى ، وهم أبناء مزهر ، الذين جددوا عهد البرامكة بمصر ، فلبثت فيهم رتبة الوزارة نصف قرن .

وكان أولهم كاتب سر السلطان الأشرف برسباى بدر الدين بن مزهر عام ٨٢٥.

والذى يعنينا من تاريخهم هو آخر من تولى تلك المرتبة ، الوزير تقى الدين أبو بكر ابن مزهر الذى اختاره لكتابة السر السلطان قايتباى عام ٨٧٣ هـ ١٤٦٨ م وكان سيداً سخياً واسع النعمة عالماً فاضلا وجيهاً عند السلطان وسائر الناس ، انتهت إليه رياسة عصره .

وقد تزوج ست الخلفاء ابنة سيدى عبد العزيز العباسى الذى أصبح بعد ذلك خليفة ، وكانت أمها بنت ، قاضى القضاة علم الدين البلقينى ، ورزق ابن مزهر من زوجته هذه غلاما دعاه حيدر ، وطفلة دعاها زبيده ، وكان له ولد من زوجة أخرى اسمه بدر الدين ، بلغ العشرين يوم تولى قايتباى الملك فعينه متولياً لحسبة القاهرة.

وكان حيدر بطل القصة ، يوم تولى أبوه ، غلاما فى الثالثة عشرة ، وكان طريح الفراش بالحمى ، وله أخ من الرضاع فى مثل سنه اسمه ولى الدين بن حسن .

واختار كاتب السر من رفاقه أرباب الأقلام علمين من أعلام العصر ، أولهما تاج الدين ناظر الخاص ، والثانى شمس الدين ناظر الجيش ، المتولى إقطاعات الأمراء والجنود بمصر والشام وكان الثلاثة يسكنون حول بركة الرطلى .

وكانت تلك البركة فى وسط حى الطبالة ، (وهو حى الفجالة الآن) وموقعها بين الخليج الكبير الممتد بجانبها من الشرق والخليج الناصرى الممتد من الغرب ، وكان الخليج الناصرى (هو الآن شارع الملكة نازلى) يغذى البركة بالماء ثم يصب فى الخليج الكبير ، وهنالك جسر طويل يمتد بين بركة الرطلى والخليج الناصرى فشيد الناس عليه عمائرهم ، وأشرفوا على الخليج وعلى البركة من الجانبين .

وكان عند ملتقى الخليج الناصرى بالبركة قنطرة اسمها قنطرة الحاجب ، تجرى

من تحتها المراكب إلى البركة ، وقامت القصور والديار الجليلة حول محيط البركة ، فإذا كانت أيام النيل خرج الناس بطعامهم وشرابهم وآلات طربهم يعبرون الخليج فى المراكب فيطيب لهم القصف والسرور ، وكانت أجل ديارات البركة لأولئك الوزراء الأعلام ، ولكبار المباشرين ، وهم كتاب المماليك ، ثم كتّاب الدست أعوان كاتب السر .

وكان تاج الدين ناظر الخاص صهراً للوزير كاتب السر ، تزوج من أخته ، ورزق منها غلاماً اسمه سيف الدين هو رفيق حيدر وصديقه ، أما شمس الدين ناظر الجيش فقد زوج ابنته من بدر الدين بن مزهر متولى حسبة القاهرة ، وهو ولد الوزير كاتب السر كما أسلفنا .

وعاش الثلاثة فى قصور متجاورة تشرف على البركة ، وكان أحبهم إلى قلوب الشعب تقى الدين بن مزهر كاتب السر ، لكثرة ما بذل من المعروف وقضى من حاجات الناس ، فزينت له القاهرة يوم تولى كتابة السر ، وامتدت الزينة من القلعة إلى داره ، فأوقد الناس له القناديل والتنانير الكبار والشموع ، وفرشوا شقق الحرير العتابى (الأحمر والأصفر) على متاجرهم وشرفاتهم ، وتخلق العامة بالزعفران ، وهو تقليد اتبعوه فى الحفلات العامة .

وكان بالقاهرة عشرون جوقة للمغنيين والمغنيات ، فى كل جوقة عشرة ، فكانوا يوقعون على الشبابة [1] والطنابير والدفوف وهم جلوس بالقياسر والمتاجر ، فتجيبهم عقائر النساء بالزغاريد من الشرفات ، وينطلق بينهم بخور الند من المجامر ، وبلغ الموكب باب الصاغة فى ساحة بين القصرين ، فخرج اليهود فى عمائمهم الصفر ، يحملون الشموع الموقدة ، وغلمانهم مخلقون بالزعفران ، ونثر عميدهم شمويل الصيرفى على رأس الوزير ألف أشرفى من الذهب [2] ، فشكره الوزير على مجاملته .

(١) الناى . (٢) الأشرفى ثلث جنيه استرلينى .

وبلغ الركب دار الوزير ببركة الرطلى ، فإذا رحبة مكنوسة مرشوشة ذات مساطب عن اليمين وعن الشمال ، و بينها باب مقوصر انعقد على حنايا من العاج والأبنوس ، بعتبة من مرمر وسندال من نحاس أصفر وعليه حلقة من فضة ، والباب بشقين من الأبنوس ، قد وقف فى صدره بدر الدين بن مزهر ولد الوزير الأكبر، يستقبل الأضياف ، فتقدم الناس إلى إيوان كبير مفروش بالنمارق والمتكآت من أول المجلس إلى آخره ، ومن فوقه قبة شاهقة فيها ساريات ثمانية من رخام ، زانتها الفصوص والأصباغ الملونة، وكان الصحن الخارجي قطعة رائعة من أجمل الصناعات، فرشوه بفصوص الرخام الملونة ، كما نقشت على الجدران صور الحيوانات ، فجلس الأمراء والعلماء ووجوه الدولة حول الوزير ابن مزهر يشرفون على البستان، وأفضى بعضهم إلى الأبهاء والأفنية ، فهبطوا درجاً من المرمر إلى البستان ، حيث التف الخولة حول منابت الزهور من ورد وآس ومنثور ، وكلها يانعة من الشلييارات[١]، وكان الماء يجرى إليها فى قنوات من رصاص .

وكان فى صدر البستان بيت ظريف ومقام نظيف منظوم بخضرة وشموع موقدة و بخور متصاعد، وأمامه فسقية من رخام يصل إليها الماء من فوارات تقذف بالماء من كل مكان .

وكان الخدم وقوفاً فى أبهاء الدار والبستان، وأوساطهم مشدودة ببنود من الحرير الأصفر ، يحمل كل خادم مائة دينار ، أعدت للصدقات على المستورين المنقطعين والفقراء ، ما بين شريف وتاجر ، وهم الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف . وامتدت القناديل والثريات من سلاسل من فضة فى الإيوان وسائر الأبهاء ، وحولها أنوار[٢] الفضة تسطع منها أنوار الشموع الموكبية[٣] .

(١) أوان من فخار لحمل الزهر نسميها الشالية .
(٢) شمعدانات .   (٣) التى زنتها قنطار .

وأنفذ الوزير مواليه إلى أهل الدور المشرفة على البركة من أصهاره وجيرانه ، لكل دار عشرة أرطال من زيت الوقود ، وطبلية حافلة بفاخر الطعام ، فنشط الجيران لزينة طاقاتهم ، فأوقدوا بها القناديل المتعددة الألوان والأحجام ، حتى باتت الدنيا من حولهم زاهية الأنوار ، يكاد الرجل أن يرى سم الخياط .

وانحدرت القوارب والزوارق من الخليج الناصرى إلى البركة ، حتى بلغ عددها أربعمائة مركب ، وغنت أجواق المطربين فأجادوا التوقيع والتغريد ، وتبادل النشيد والشَّدْوَ مطرب الجماهير ابن رحاب وندّه المحلاوى ، واستمع الناس عزف العود من برقوق التونسى أكبر الضاربين عليه ، وألحان الشبابة[1] والنقر بالدفوف من أيدى القيان الغوانى وسائر أعلام العصر فى الموسيقى .

وأقبل الغيد الحسان فى الكوافى المزركشة والقلانس الطويلة والمصائب الموشاة بحبات اللؤلؤ والبخانق[2] الشفوف من تحت الثغور إلى ما فوق الجباه . وتنوعت زوارق الباعة وهى تجرى فى البركة ، ووقف شيخهم عصفور الجبان بعد أن باع جبناً مقلوا بمئة وعشرين دينارا ، وجاره ابن الزئبق الحلوانى الذى باع بمثل ذلك المبلغ من جامات القاهرية والمشبك والقطائف .

وجمع الناس حول أبى الخير صاحب خيال الظل ، فمثل لهم قصة طيف الخيال المضحكة ونال إعجابهم بأشخاصه الماجنة وتمثيله الطريف .

وأوقدت صواريخ النفط بعد ما نقلوا قواريرها إلى البركة فى موكب حافل تزفه الموسيقى ، وكان بين قطع الصواريخ أشباه القلاع ، فنصبوا منها خمسين قلعة كما نصبوا ستين مئذنة .

---

(١) الناى . (٢) اليشمق .

وتنافس الناس فى زينة القوارب، فاتخذ بعضهم أمراسها من حرير مجدول بين الأصفر والأحمر، وثبتوا بها القناديل الملونة، ونشروا فوقها المظال من الأطلس وكان والى القاهرة يعبر البركة فى قارب ومعه منادى ينادى بين الناس بالأمان والاطمئنان، فلا يشوش على أحد، ولا يتعدى مملوك على أحد من رجل أو امرأة. فطغت عقائر الجموع الزاخرة تدعو للسلطان الأشرف قايتباى، وللوزير تقى الدين أبى بكر ابن مزهر.

الفصل الثانى

ربع الزيتى

كان بجانب قنطرة الحاجب التى على الخليج الناصرى ربع يسمى ربع الزيتى[1]، به مساكن أهل الخلاعة والقصف، ويشرف من جهاته الأربع على بستان الزيتى وبستان الحاجب والخليج الناصرى، فكان بهجة الناظرين.

وكانت تسكنه مطربة اسمها خديجة الرحابية، لها جمال رائع وصوت رخيم وصناعة حسنة، وكانت رغم افتتان الناس بها عفيفة طاهرة، نقل عنها قولها: لاغفر الله لى فاحشة ارتكبتها قط.

وكان من المعجبين بها مملوك السلطان المسمى شاهين غزالى، وهو فتى جميل الوجه ذو جاه وثراء وأدب، يغشى ربع الزيتى فيستمتع بحديثها وحسن غنائها بين أتراب من ظرفاء القاهرة.

وكان بمجلسها علمان من أعلام الموسيقى، هما على بن غانم، أكبر عازف على الطنبور، ومبتكر الخفائف النجدية التى خرج بألحانها وإيقاعها على كل مألوف من النغم، فكان يصوغ الألحان لخديجة، وكان الثانى شيخاً أعمى اسمه برقوق التونسى، من أطبع الناس فى الغناء والنغم، وأحذقهم بالوتر والإيقاع، وأول ضارب بالعود، وكانت له طبقة يسكنها بربع الزيتى بجانب طبقة خديجة مع ابنته ليلى وغلامه حسن، وكان كبار القوم يستأجرونه فى أعراسهم ولتعليم بناتهم وقيانهم، فكانت ليلى تقوده إلى المقاصير العالية من ديارات القاهرة، كما كان يقوده حسن

---

(١) خطط المقريزى.

إلى حفلات الأعراس والولائم بين الرجال ، وكان من ألزم الناس لمجلس خديجة أديب من أهل القاهرة اسمه بدر الدين الزيتونى ، فهو من أحسن من كتب الزجل وقرض الشعر ، لطيف المعشر والنادرة ، مُحبَّب إلى أوساط المجتمع .

وكان ساقى السلطان مثقال الحبشى آخر من يصل إلى مجلس خديجة ، فيغدق على أهل المجلس ألواناً من ألطاف نعمته ، ولا يطيب له سماع إلا إذا عاقر و بلغت منه الخمر غايتها .

وكان للجماعة عشارى لطيف مصفح الجانبين ، صنعت قبته من رقاق الخشب المصبغ بماء الذهب ، وفرش بالمدورات ، والتَّكايا لجلوس خديجة وأصحابها ، فإذا انتصف الشهر واستدار الهلال قام الغلمان فنشروا مظالّه وشراعه فينطلق بأصحابه إلى بركة الرطلى ، فيبادر سكان الدور المشرفة على البركة فيوقدون الثريات والسرج ، فتسطع الأنوار فى سائر الأرجاء ، ويترامون حول الشرف والنوافذ يستمعون حلو الأغاريد .

فخرج فى يوم صائف جماعة من المماليك السلطانية للنزهة حول بركة الرطلى ، وفى جملتهم رفرف العادلى ، رائض الفيل الكبير الذى أهدى إلى السلطان من بلاد الحبشة .

وكان فيلاً عظيماً بهر الناس حين طلع عليهم بسرج الديباج الأحمر ، يخترق الرحاب والشوارع والدروب ، حتى بلغ أطراف البركة ، فاجتمع حوله أهل حى الكافورى والمسطاحى وخليج الزعفران[1] ، وغالبهم من الغوغاء ، فتكاثروا فوق قنطرة الحاجب حين كان الفيل يعبرها ، فتزعزعت أركانها وانهارت الأعمدة بالفيل إلى القاع ، وخسفت القنطرة وهو يضطرب من فوقها ، فتدلى جسده فى الماء و بقى عنقه مختنقاً فى مساند القنطرة وفلول الأعمدة ، وعالج رائضه المسكين سوء الموقف

(١) أحياء حول مسجد الشعرانى وباب الشعرية .

منظرة خديجة الرحابية وتراها وإلى يمينها شاهين غزالى وبقية أهل المجلس

على غير طائل إلى أن مات الفيل ، فاجتمع جمهور عظيم من الغلمان وأهل الأسواق حول مصرعه .

وكان أصحاب خديجة فى منظرتها يشرفون على مواكب الناس ، فساءهم موت الفيل وتدمير القنطرة واحتباس مركبهم فى الخليج ، وقنعوا بقضاء ليلهم فى المنظرة يسمرون .

وكان ربع الزيتى له شهرة مستفيضة فى القاهرة ، فوضع فيه العامة بعض الأغانى ينشدونها كلما سطع النور من منظرة خديجة ، فوقف جمهور كبير فوق جسد الفيل وأنظارهم إلى ناحية خديجة ، وغنوا مصفقين ، وقالوا : ستى أين كنتى — أين رحتى — أين جيتى — قالت : كنت فى ربع الزيتى[١] . فهتف أصحاب خديجة بالضجيج وهم مشرفون من المنظرة ، وكان الزيتونى قد وضع لساعته زجلاً لطيفاً فى حادث الفيل ، فوقعه ابن غانم وبرقوق ، وأخذ الجميع أهبتهم للغناء ، فدغدغت خديجة أوتار عودها بأناملها وغنت :

تعا اسمعوا ياللا يا ناس — اللى جره[٢]
الفيل وقع يوم الاثنين — فى القنطره
قالوا بأنه فى البجمون — مغروس يصيح
فقلت حتى أروح أبصر — إن كان صحيح
آجى ألاقى الفيل ميت — ملقى طريح
والناس بتطلع فوق ضهره — مستظهره
لما وقع يوم الإثنين — فى القنطره
والفيل لسان حاله ناطق — للناس يقول

---

(١) خطط المقريزى . (٢) ابن إياس .

ياما كنت أنا أدور فى الزّفة فوق طبول
وكنت أنا أدور فى المحمل ولى قبول
كنى عروسه حين تجلى فى المنظره
واليوم كان آخر مشيى فى القنطره

فاشتد تصفيق الناس إعجاباً بالنشيد وطرباً من حسن إيقاعه .

والتفت الزيتونى إلى برقوق وقال : لقد أبطأ علينا غلامك حسن ، فقد أنفذته إلى صاحب تنور بالسوق يشوى لنا دجاجتين ، فقال برقوق : ومعه إبريق الزيت ذلك اللص ! فالتفت على بن غانم إلى برقوق وقال : أتزعم أن غلامك لص ؟ لقد نقدته خمسة دراهم ليحمل لنا جاماً من القطائف و إنى أراه قد فر بمالنا جميعاً . وكانت خديجة تستمع إلى حديثهم ، فضحكت وقالت : ترفقوا بحسن ، فوالله إنه أحسن نافخ بالشبّابة لولا بلادة فى طبعه وتغفل ، وأشرفت على الطريق قليلا ، ثم عادت إليهم وقالت: ها قد أقبل ينوء بحمله .

فوقف برقوق مستنداً إلى قضيب وقال : هذا اللص يخوننى ، والحديث عنه مستفيض فى ربع الزيتى .

ودخل الغلام وفى عنقه حبل فيه إبريق الزيت وعلى كاهله طنجير فيه شواء الدجاج ، و بين يديه جام القطائف فسارع إليه الجماعة ، وكان أسبقهم على بن غانم ، فتناول جام القطائف بيده وقد فاض على حافته القطر ، وشهد الغلام يلعق أطراف أنامله ! فقال له : لا بارك الله لك ، وكشف الزيتونى الغطاء عن الشواء ، ففقد فخذاً لدجاجة : فصاح ، من هذا الذى عقرها ؟ فقال حسن : والله ما مددت إليها يدى ، فقال الزيتونى ، والله لا خبزت بتنور السوق بعد اليوم : فقالت له خديجة : لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا .

وصاح برقوق : أين إبريق الزيت يا غلام ؟ فنزع حسن الحبل من عنقه وناوله الإبريق . فقال برقوق : لقد خنتنى كعادتك أيها الخبيث . فقال الغلام : لقد أعطيتنى فلساً واحداً[1] فملأت به الإبريق زيتاً . فقال : إنك أخذت الفلس لنفسك واستوهبت الزيت من البائع ! فضحكوا من شحه . وقال له الزيتونى : رفقاً بنفسك . فعاد برقوق إلى غلامه يشتمه وقال : انك لن تفلح أبداً . فقال له الغلام : لا يهون على يا سيدى أن تحنث فى يمينك .

وتواتر دبيب الأقدام على الدرج فقال الزيتونى : هذا سيدى شاهين غزالى قد أقبل . فانصرفوا إلى مقاعدهم صامتين وفتر نشاطهم .

ودخل شاهين ومعه غلام خمار يحمل دناً مذهباً وكيزاناً ومباذل فى الصوانى ، فجعل الدن بإزاء المجلس ، فلما انصرف الغلام باسط الجلاس وسألهم ألاّ ينقبضوا عنه ، وأن يجروا النادرة على ما اتفقت عليه غير محتشمين . ثم التفت إلى خديجة وقال : كيف أصبحت غانية القاهرة وبهجة أهلها وزينتها ؟

وكانت تميس فى ثوب من الحرير الأبيض ، ومن فوق جبينها عصابتها المكللة بكبار اللآلئ . فابتسمت له وقالت : مرحباً بك يا سيدى لقد أوقدنا من أجلك قناديل بلون الأرجوان الرقيق المتوهج ، فإنه يزهينى ويصورنى فى عينك أصغر من سنى بعشر سنوات . فابتسم وقال : وهو يفجر ينابيع الغزل الحلو فى صدرى فتشجينى نشوته .

وكان الغلام حسن يحمل إليهم نماذج من الدن يتذاوقونها . فاختار كل ما يشتهى فى قدحه ، وملأ رطلية من بللور مذهب وحملها إلى خديجة وشاهين .

وتناولت خديجة عودها ، وجلس أمامها على بن غانم وبيده الطنبور ، وبجانبه برقوق يحمل عوداً ، ووقف بينهما الغلام حسن وبيده الشبابة ، فلما أصلحوا

(١) الفلس جزء من أربع وعشرين جزءاً من الدرهم .

آلاتهم عزفوا أجمل إيقاع وأطيب ترنيم وقالوا :

عاقر الراح ودع نعت الطلل ... واعص من لامك فيها وعذل
غادها واسع لها واغرَ بها ... وإذا قيل : تصابى قل : أجل
انما دنياك فاعلم ساعة ... أنت فيها وسوى ذاك أمل

وكانت خديجة قد غنت بصوتها كله ، ووفته نغمه وشذوره ، فاهتز كتفاها ، وسائر بدنها يتحرك فخيل إلى أهل المجلس أن المنظرة تطير بهم .

ونال الطرب من شاهين ، فقال : أحسنت ياخديجة ، وأنشد :

سقى الله أرضا أنبتت عودكِ الذى ... زكت منه أغصان وطابت مغارس
تغنى عليه الطير والعود أخضر ... وغنَّت عليه الغيد والعود يابس

وقام الزيتونى فى وسط المجلس وقال :

والله لو أنصف الفتيان أنفسهم ... أعطوكِ ما ادخروا منها وما صانوا
ما أنت حين تغنى فى مجالسهم ... إلا نسيم الصبا والقوم أغصان

وتوالى التصفيق والدعابة ، وتبسط الزيتونى فى مرحه ، ثم انتقل الى السماط يترنم ، وكان جام القطائف شهياً يغريه ، فتناول منها وأمعن فيها ، فصاح به ابن غانم الطنبورى : مهلاً ياشيخ ! ألا تدرى أن بها تلف مهجتك ؟

فضحك الزيتونى وقال :

دعانى صديق لى لأكل القطائف ... فأمعنت فيها آمنا غير خائف
فقال وقد أوجعت بالأكل قلبه : ... رويدك مهلاً فهى إحدى المتالف
فقلت له : ما إن سمعنا بهالك ... ينادى عليه يا قتيل القطائف

فضحكت خديجة ! وقالت لابن غانم : دعه يشتفى منها فقد أعددت لك جاما آخر ، على أن تسمعنا بعض ألحانك العذاب .

فعاد ابن غانم الى مجلسه وأصلح طنبوره، وقال : على العين والرأس ياسيدتى، وغنى:

لبيك يا سيدتى لبيك ألفا عددا
لبيك من ظالمة أحببتها مجتهداً
قومى إلى ملعبنا نحك الجوارى الخرّدا
ضعى يدا فوق يد نرفعها يدا يدا

فما سمع أطيب من ألحانه ولا أشجى من أغانيه ونشطت خديجة تداعب شاهيناً وتعبث بلآلئ منطقته، فمد يده بعطور من المسك فمسح بها خالاً فى وجنتها ضاعف من جمال محياها، فقالت : يا عمى مالك وخالى ! ؟

فصاح الزيتونى، واطرباه منك يا خديجة : وأنشد :

لحظت من وجنتها شامة فابتسمت تعجب من حالى
قالت : قفوا واستمعوا ما جرى قد هام عمى الشيخ فى خالى

فصفقوا له إعجابا ببديهته وحسن أدائه.

وراع أهل المجلس نقر عنيف، فأمسكوا وتوقعوا رجل الشرطة، وتحفز شاهين يمشى إلى الباب، فمنعه الزيتونى وقال :

أغلقوا بابكم مخافة واش ألف دق دق ولا سلام عليكم[1]

فاشتد نقر الباب، وقال قائل فى صوت أجوف مخوف، افتحوا لرجل الشرطة: فقال: وأى شأن للشرطى معنا؟ فقال الرجل من الخارج: اسقونى وأنتم آمنون، فقالت خديجة : من منكم يسقيه من ثقب الباب؟ فأخرج الغلام حسن من كمه أنبوبا من قصب ووضعه فى ثقب الباب وصب فى الأنبوب رطلا من الخمر، فكان الرجل يشرب من الخارج والباب مقفل! وهو عمل طريف تفتقت له بديهة الزيتونى، فوضع فى ذلك شعراً، وناوله لابن غانم، فصاغه لحناً شجيا، وتغنت به خديجة وقالت :

(١) هى المثل العامى : من طقطق لسلام عليكم. (QUATRE MERE)

سأل الشرطى أن نسقيه فسقيناه بأنبوب القصب
إنما نشرب من أموالنا فأسألوا الشرطى ما هذا الغضب

فتمايلوا من نشوة الطرب وألح الرجل من خلف الباب يسأل المزيد .

فخرج إليه شاهين فلم يعترضه أحد ، ودهش لما رأى أمامه صديقه مثقالاً الحبشى ساقى السلطان ، فمال يحدثه سرًا : وسأله : أين السلطان ؟ فقال : إنه خرج مع بعض الخاصكية إلى قبة الأمير يشبك بالمطرية ، فقال شاهين : لا تسرف فى شرابك فإن الغلام حسن عين علينا يتغابى إذا جلسنا حول خديجة فيسترق السمع ، ويبيع أسرارنا إلى خصوم مولانا السلطان .

ودخل مثقال ومعه غلامان يحملان طعاماً وفاكهة ونقلاً ، فعزفت الطنابير والأعواد نغماً لطيفاً كان مثقال يستطيبه ، ووضع بين أيديهم ظرفين من الخمر وشواء ومجامع من قطائف وفاكهة .

وتبادل أهل المجلس النكات والملح حول مثقال الذى اتخذ سمة الشرطى ، وحملت إليه خديجة قدحاً ومنديلا نظيفا ، فشكرها مثقال ، وكان عشير الناس ، يسمر ويماجن فطرح رداءه وتناول القدح وقال :

فأول شربك طرح الرداء وآخر شربك طرح الإزار
وما جاد دهر بلذاته على من يضن بخلع العذار

ونادى برقوقا وقال : بالله حركنا فإنى أشتهى إيقاعك على العود .

فقال برقوق : سمعاً لك ياسيدى .

واحتضن العود وغنى :

شكا إليك ما وجد من خانه فيك الجلد
صب إذا رام الكرى نبهه لذع الكمد
هان عليه سهرى فى حبه لما رقد

الراح فى إبريقها أكرم روح فى جسد
فهاتها نصلح بها من الزمان ما فسد

فذهب بألباب الحاضرين ، ومالت رؤوسهم طرباً ، وقال له الزيتونى فى دعابة ومجون : أحسنت أحسنت .

فغضب برقوق وقال يندد به :

لى صديق عدمته من صديق أبداً يلقنى بوجه صفيق
قوله إن شدوت أحسنت عندى وبأحسنت لايباع الدقيق

فقال مثقال : إنك جاوزت كل إحسان . وألقى فى كمه صرة بها دنانير وقال: هذا ثمن الدقيق .

الفصل الثالث

خضر البستانى

كان حيدر بن الوزير تقى الدين بن مزهر كاتب السر غلاماً وسيما جميلاً حلو الشمائل حاد الذكاء متين الساعد، وله أخ من الرضاع اسمه ولى الدين كان أبوه من علماء الأزهر فمات فى صباه .

فلما بلغ الطفلان السابعة ألحقوهما بمكتب قريب من الدار، ومعهما رفاقهما أبناء الوزراء، وكانوا سيف الدين بن تاج الدين ناظر الخاص، ونور الدين بن شمس الدين ناظر الجيش ، وعلاء الدين ابن وكيل بيت المال . فلبثوا بالمكتب أربعة أعوام فأجادوا القراءة والكتابة ، وحفظوا القرآن ، وبعض مبادىء العلوم .

وكان الوزير ابن مزهر قد شيد بحارة برجوان مدرسة جليلة القدر ، عالية البناء، عاشت إلى اليوم لتحدثنا بجمالها وفخامة عمارتها . وأسند مشيختها للامام الكبير جلال الدين السيوطى .

وألحق بطلابها ولده حيدراً ورفاقه غلمان الوزراء وكتاب الدست والدرج . فنبغ حيدر فى تحصيل العلوم، وأعانته مكتبة أبيه العامرة بنفائس الكتب ، وكان كلما تقدمت به السن تفتحت محاسنه ، وتنوعت مفاتنه ، حتى خيف عليه الفتنة ، فلا يرى إلا ملثماً بلثام .

واشتدت أوصاله واستقام عوده ، فخرج شديد البأس متين العضل ، دائم الوثب والتسلق ، ومسابقة أنداده ورفاقه ، ومصارعة من كانوا أسن منه ، فكان يصرع رفاقه جميعاً .

وأحضر له أبوه برقوقاً أستاذ العود ، كعادة أبناء الوزراء ، فحذق التوقيع والنغم ، وكان رخيم الصوت ، فبهر بأغانيه أهل الدار جميعاً .

وكان أكثر الفتيان صداقة وأقربهم مودة لحيدر ابن عمته سيف الدين ، فهما إلفان يجتمعان بالمدرسة ، فإذا رجعا منها كان جلوسهما بدار أحدهما ، فلا يكتم أحدهما سراً عن أخيه، ولا يصبر على فراقه .

وشب الغلامان حتى جاوزا الثالثة عشرة ، فمنع سيف الدين من طروق خدور الحرم ، وعز عليه ألا يرى زبيدة ابنة خاله إلا محجبة . فاكتفى بالجلوس إلى حيدر فى مخدعه . وعمد إلى ذبالة من هوى عذرى شبت بين جوانحه فأطفأها ، ورضى بالخيبة وخضع .

أما ولى الدين أخو حيدر من الرضاع فكان منقطعاً للدرس مكباً على المطالعة ، وكان نجيباً حاد الذكاء . خالف مذهب أبيه فى اختيار طريق الحياة ، وود بجدع الأنف لو دخل معهد الطب المنصورى .

وكان خشن الملبس ينفر من ترف العيش وثياب النعمة ، فقباؤه من صوف ساذج. فإذا التقى به حيدر داعبه وندد بثياب الصوف التى يحبها وقال : مرحباً بأخى الصوفى . فيجيبه متبرماً : مرحباً بأخى القطنى ، ثم ينأى عنه بجانبه .

فاحتدم بينهما الجدل يوماً من وراء هذه الدعابة ، فغضب حيدر على غير عادته من سعة الصدر ومحاسنة أخيه وقال :

إن لباس القطن مع وجود التقى لا يضر، ولباس الصوف مع عدم التقى لا ينفع. فغضب ولى لدين وولى معرضاً حتى بلغ الباب ، فاستدار على عقبيه وقال: دع عنك لومى فأنا أعظم منك همة فى طلب العلم ، لأنك طلبته والدنيا فى عونك تسهر بمشكاة الذهب ، وطلبته وأنا أسهر بقنديل . ثم بارح الدار .

وجلس حيدر يؤنب نفسه على ما بدر منه فى حق أخيه فعزم على مصالحته ، وخرج إلى الشرفة ينادى عم خضر البستانى ، وكان يأنس به دون سائر الخولة والأتباع ، فأسرع إليه رجل فى بشت قصير أزرق إلى ركبتيه ، فقال له حيدر :

هل مرّ بك ولى الدين ؟ قال : رأيته منصرفاً لا يلوى على شىء كأنه غاضب . فقال: بالله ياعم عجل فى أثره، فقد أغضبته كلماتى، وما كان ظنى أن يتعجل الخروج !

ولبث حيدر محزوناً آسفاً ، وجنه الليل ولم يعد ولى الدين، فأنفذ فى أثره سائر الخولة والعبيد، فعادوا بغير طائل . فانصرف إلى مخدعه حزيناً كئيباً ، وأضرب عن عشائه ، واستلقى على سريره ، فلم يغادره شبح ولى الدين ، وقضى ليله مسهداً لأول مرة فى حياته ، فترنح جسده تحت وطأة المرض والحمى ، وأصبح عليلا يتقلب على فراش من الجمر .

وطار الخبر إلى أبويه ، فسارعت أمه ست الخلفاء تمشى إليه فى حلل الصباح ، وقالت فى لهف : ما بك يا ولدى ؟

وأحست لذعة الحمى من جبينه فاصفر لونها ، وأدركها أبوه يمشى على مهل كعادته ، وأدار طرفه حول الصبى وحدثه همساً لطيفاً وقال : لا يحزنك غياب أخيك ، فسأنقب عنه ، وأسائل الشرط ، وأفتش عنه المعاهد والفنادق .

وأمر أن ينادى الطبيب ، وكان الرئيس شمس الدين كبير أطباء السلطان قريباً من دارهم ، وصديقاً قديماً لآل مزهر ، فجاءهم على عجل وتلطف فى الفحص ، ثم أمر بضمادة وشراب ، ورأى الأبصار ترنو إليه فى لهف تتوسم ، فابتسم إلى الوزير وقال :

ما دام الطبيب حاذقاً ، والصيدلانى صادقاً ، والمريض موافقاً ، فما أقل لبث العلة.

ولبث الصبى فى غمرة الحمى خمسة أيام طوالاً ، لا يبرحه شبح ولى الدين. وزاره أخوه الأكبر بدر الدين المتولى حسبة القاهرة[1]، يواسيه ويهون عليه غيبة ولى الدين ويمنيه بقرب عودته .

وذاع مرضه فى مجالس القاهرة ، فنغص على أبيه مهرجان بركة الرطلى الذى أقامه الناس احتفاء بتوليته منصب كاتب السر .

---

(١) إليه ينسب باب زويلة . فيقولون : باب المتولى ، أى متولى الحسبة بالقاهرة .

فلما كان صدر الليلة السادسة هدأ الليل ، وانصرفت المراكب من البركة بجماهيرها، وأنوارها ، وزينتها، وسكن الجو، وانقطع المشى، وغلّق الناس أبوابهم فنام حيدر وأقام بباب مخدعه كلاب منسوبة تحرسه منذ الصغر ، وفى أعناقها سواجير وحلى من فضة . وتوارت طيور القمرى والهزار فى أقفاصها خارج المخدع ، وآوت إلى عشها ساكنة .

وفى دجى الليل الرهيب فتحت شرفة فى شمسيات القبة الزجاجية من مخدع حيدر، وأطل منها شبح يتسلل فى سكينة وصمت على سلم من الحرير حتى بلغ أرض المخدع ؛ واستوى قائماً أمام سرير المريض فكان من يراه يظنه خضراً البستانى فى بشته القصير الأزرق .

ودب الرجل على أطراف أصابعه حتى شارف المريض وكان عند رأسه مشكاة من الفضة فيها مصباح .

فتحرك الصبى يهذى من الحمى وينادى ولى الدين بنغم النادم المتوجع ويسأله أن يصفح ويعود ، وفتح عينيه فلاح لناظره شبح رجل ، فقال : ما جاء بك الساعة يا عم خضر ، وأين تركت ولى الدين ؟

فرق الرجل له ودنى من سريره حتى تبينه الصبى ؟ فقال : من أنت يا شيخ ما أنت بخضر البستانى ! قال: لا تخف يا بنى فأنا خير لك من خضر ، قدمت لأعالجك بنفسى ، فقال له : وكيف دخلت إلى وبالباب كلاب جوارح ؟ فأشار الرجل إلى طاق مفتوحة بأعلى القبة وقال : أنا خادم جدك سيدى عبد العزيز العباسى أوفدنى لعلاجك ألا تحب ذلك ؟ فإن خالجتك الريبه فى أمرى عدت إلى جدك خائباً .

فتردد الصبى قليلا ثم قال : هلم شأنك يا عم ما دمت رسول جدى، وكان الرجل يحمل على عاتقه حرمداناً[1] فأخرج منه حقاً من الصينى، ثم كشف عن صدر

(١) حقيبة .

الصبي وانهال عليه دلكا متداركا غمر به ظهره وعاتقيه حتى تصبب عرقاً ، فأخرج قارورة صغيرة وصب سائلا كان بها فى قدح وسقاه له ، ثم أضجعه وأسبل عليه الملاحف ، وعرج بسلمه الحريرى إلى الطاق واختفى .

ونام الصبي نوماً هادئاً إلى الصباح

وكان ولى الدين حين ودع القصر قد هام فى مناكب المدينة ودروبها ، فأدركه الغروب ولا أهل له ولا أصدقاء ، فهداه تفكيره إلى شيخه الذى أدبه صغيراً ، وهو صديق قديم لأبيه ، وكان الشيخ يقيم فى طبقة صغيرة من تحتها جملون معمور الجانبين بالحوانيت ، فعقد الغلام عزمه على طروقه ، وكان يحمل حرمداناً به أمتعته وكتبه ودراهم اقتصدها ، وكان الشيخ متجرداً عزباً لا زوجة له ، فسمع نقراً لطيفاً بالباب ، فقال : ادخل ، فدخل إلى سقيفة فى علو مشرف على السوق ، وكان الرجل رقيق الحال ، فقميصه وعمامته وطيلسانه وسراويله من شقة واحدة ، واتخذه أهل حى من الفقراء إماماً لمسجدهم ، فكان الخطيب وشيخ الميقاتية وخازن الكتب لقاء دراهم معدودة .

ودخل الصبى إلى السقيفة فإذا محراب فيه قنديل وسجادة مفروشة ، والشيخ جالس وقدامه ختمة مكرمة . فلما تبين الصبى عرفه وقام إليه مصافحاً مرحباً ، واكتفى بمدامعه عن مسألته ، ورأى أن حدثاً من أحداث الدنيا ألقى به إليه ، فعز عليه بكاء اليتيم وساوره الوفاء وصحبة أبيه ، فطيب خاطره وأدخله إلى المطهرة ، فتجرد من ثيابه واغتسل وصلى فريضة العشاء ، وبعد ذلك قال له : قم يا بنى إلى تلك الكوة فخذ منها دجاجة بما معها من الرقاق ، فقد أهديت إلى وآثرتك بها ، إن مرقتها بالزنجبيل والشمار الأخضر .

ورأى الشيخ الصالح من البر أن يؤثر الغلام بفراشه كما آثره بطعامه ، وأن يبيت هو بصحن المسجد ، فوضع مئزره وأصلح عمامته وخرج فى زى خطباء المساجد :

حيدر يوقع على العود وأمامه القهرمانة تحمل المجمره

دلق مدور أسود وشاش أسود ، وستره الليل بأستاره .

وجاء الصبح ، وكان حيدر قد أبل من المرض ، فجلس يضاعف الحمد لله الذى ألبسه ثوب الصحة ، ويثنى على الرجل الذى زاره فى زى خضر البستانى ، وود لو حضر الساعة ليجزيه على معروفه .

وقام من سريره يمشى إلى صدر المخدع ، وسره إبلاله وعودة القوة إلى بدنه ، فتناول من رفرف لطيف عوداً وأصلح أوتاره ثم غنى :

عذبينى بكل شىء سوى الصدّ فما ذقت كالصدود عذاباً

فجاءت القهرمانة تشتد على التوقيع والنغم ، وبيدها مجمرة موقدة تسجر فيها الند ، فرأته بأحسن حال من العافية ، يملأ الغرفة أنساً وإشراقاً ، ويبتسم لها بسمته الساحرة . فلمعت عقيرتها بالزغاريد ، وعلى الأثر تحركت حمائم القمرى والهزار بباب المخدع ، وغردت بدورها وتغنت ، وجاءت ربة القصر تميس فى حلة أطلس أخضر ، وحولها جاريتان ترفعان أذيالها بكلاليب من ذهب ، فعانقت ولدها وأكب هو يقبل يدها ، وتناول محرمة من الحرير فمسح بها دموعها التى ذرفت شكراً لله على نجاته . ورأى أن يدخل السرور عليها فوضع على رأسه طرطوراً من الحرير الأحمر نسج بخيوط من ذهب ، وشد حوله عمامة لطيفة من شاش رفيع له أطراف من الذهب كالسكاكين رقاق ، وجعل فى قدميه نعلا أحمر ، فأصبح فى زى أبناء الملوك ، وخطر أمامها فكانت تلاحقه بلحظها خوفاً وإشفاقاً من الانتكاس .

فكشف له من وراء زجاج القبة شبح خضر البستانى يلوح بيده ، فعاد إلى السرير كأنه متعب فقالت أمه : لا تبرح سريرك يا بنى طول يومك حتى تسترد عافيتك . وخرجت ومن ورائها الجوارى ، فلما خلا بنفسه قام إلى الباب فأوصده وأشار بيده إلى الرجل ، ففتح طاق من الزجاج الملون ، وتسرب منه سلم من الحرير الأصفر ، وهبط عليه رجل فى زى خضر البستانى ، فسلم عليه وقال : الحمد لله الذى

رزق الشفاء يا سيدى ، و إنى لأدعوك للصلاة بمسجد السيدة نفيسة رضى الله عنها شكراً لله على نعمته. فشد حيدر على يديه وقال: كيف أجزيك يا عم على معروفك، وحمل إليه صينية من الفضة عليها طيفور فيه حب رمان مختوم بماء الورد ، فجلس الرجل يأكل من الصحفة و يشرب من شرابها بلذة ونهم حتى اكتفى .

وجاءه حيدر يحمل محرمة من الحرير الأصفر ، طويت على بدرة من الدنانير فقال الرجل : استبقها يا ولدى للصدقات ، فما أنا بحاجة إلى المال ، لقد أغنانى جدك وأسبغ نعمته على وعلى أتباعى ، فرفع حيدر بصره فى الرجل وقال : بالله من أنت ياعم ؟ وكيف حللت بدارنا فلم يعترضك أحد ؟ قال: لا تعجل يابنى ، فعما قريب ترانى على حقيقة حالى ، و إن كانت لك رغبة فى فتعال غداً إلى دار جدك فى بستان شجر الدر وصل المغرب بمقام السيدة نفيسة ، وهناك يلقاك من قبلى فتى مقنع يمشى فى ركابك إلى أن تعود ، ولا تحدث أحداً بما دار بيننا حتى تؤذن بذلك .

و بسط كفيه وقال : اللهم اكتب له التوفيق فى حياته وارفع على يديه أقدار المصريين إخوانه .

وعرج الرجل على السلم الحرير كأنه الطيف خفة وسرعة وتوارى .

الفصل الرابع

الخليفة العباسى

كان سيدى عبد العزيز العباسي جد حيدر لأمه يسكن داراً فى بستان شجر الدر عند ضريح الملكة شجر الدر ، زوج الملك الصالح نجم الدين الأيوبى ، قريباً من مقام السيدة نفيسة (رضى الله عنها) وكان يكتنف الدار أجمة من شجر التوت الكثيف يقوم من الشجرة الواحدة من الحرير ما لا يقوم من خمس شجرات من غيرها ، وهو من موارد الرزق الواسعة . وكان بجانب ذلك يتحدث على أوقاف ضريح السيدة نفيسة ، ويحمل إليه من شموع النذور قناطير مقنطرة ، وهو المرشح للخلافة العباسية بمصر بعد عمه الذى طال عمره وشاخ . وكان الخلفاء العباسيون لأول عهدهم بمصر فى بحبوحة العيش من غلات أقطاعهم ، ومما تغدقه الملوك عليهم كلما بايعوا سلطاناً جديداً .

وكان من أعظم الخلفاء بمصر جاهاً وقدراً الخليفة المستكفى بالله ، الذى مكث فى الخلافة ستة وثلاثين عاماً ، كانت غالب أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فلما غضب عليه فى آخر أيامه نفاه إلى مدينة قوص مع عياله . ومن ذلك العهد استهان الملوك بمقام الخلفاء . ففى عام ٧٨٥ هـ قبض السلطان برقوق على الخليفة العباسى وسجنه بالبرج بالقلعة . وحذا حذوه السلطان إينال ، فخلع الخليفة المتوكل على الله حمزة ونفاه إلى الإسكندرية فى عام ٨٥٩ هـ . وأقام من بعده الخليفة المستنجد بالله ، وهو القائم بأمر الخلافة فى عهد هذه القصة .

وكان سيدى عبد العزيز قد بلغ الخمسين من عمره فأعانته على أعباء العيش

زوجه ابنة قاضى القضاة علم الدين البلقينى، من غلة دارها التى بحارة بهاء الدين قريباً من باب الفتوح .

ولما أبل حيدر من المرض تجهز لزيارة جده ، فاصطف ببابه رفاقه يحملون له التهنئة بشفائه ، وشدت له بغلة من مراكب أبيه . فخرج وعلى رأسه بقيار[1] محلى بحجرين كريمين نسجت شدته بخيوط الذهب . وكان عليه بغلطاق[2] من الحرير الأبيض موشى بحبات اللؤلؤ ، ومن فوقه قباء أطلس أحمر رومى منسوج بالذهب . وكان يمشى أمامه غلام يفسح له الطريق .

فرحب بمقدمه جمهور التجار ، وأهل الأسواق ، والقياسر ، ومياسير الناس وهتفوا له بالسلامة من المرض حتى بلغ دار جده . فترجل وصعد على طراحة حسنة ، ودخل إلى مربعة الدار[3] ، وكانت مفروشة بالنمارق ، وجده فى الصدر على نمرقة عظيمة ، وعليه العمامة البغدادية السوداء ذات العذبتين والطيلسان الأبيض ، ومن تحته القباء الأخضر ، وإلى جانبه جدته تستند إلى حشية من ريش النعام . فرحب به جده وقال : « أهلا بك يا ولدى والله لئن غبت عنا بالقالب فأنت حاضر بالقلب » . وتناولته جدته بدورها تلثمه وتوسعه ضما وقالت : « ما هذه الغيبة يا ولدى » . فقال لها : « ما غاب عن العين من يذكره القلب ، وما زال شوقى إليكما شديدا ، وهو دون ما يجب لكما ؛ وذكرى لكما كثيراً ، وهو دون قدركما » . وسألاه عن صحته ، وأطالا الحمد لله على شفائه .

وبعد أن حملت إليه زبادى البلور من حب الرمان ونال منها حظه ، قام يمشى بين جديه فى أفنية الدار ، والجوارى حافات به مأخوذات بحسنه وقامته المديدة وثوبه النفيس . فرأى إطاراً من فضة فيه رقيم من الذهب أسند إلى الجدار . فقال : ما تلك النقوش يا جداه . قال : تلك أبيات من الشعر قالها شرف الدين ابن الوردى

---

(١) تاج . (٢) ثوب ثمين بغير أكمام . (٣) قاعة الاستقبال .

فى جدى أمير المؤمنين المستكفى بالله . فقال : متى قالها . فهز الشيخ رأسه هزة الألم ، وقال : لا تحرك شجنى يا بنى ، فتلك الأيام قد خلت وطوبناها على مآسيها .

فاشتدت رغبة الفتى فى معرفة القصة وألح فى الرجاء . فاعتدل جده فى نمرقته وقال : ما كنت أشتهى أن أحرك ساكن الألم من نفسى بإحياء ذكرى آبائى الذين أضناهم الظلم من سلاطين الترك بمصر . لقد غضب السلطان الناصر محمد بن قلاوون على جدى الخليفة المستكفى بالله عام ٧٣٨ هـ . فنفاه هو وعياله إلى مدينة قوص بعد أن عزله من الخلافة ، فشق على جمهور أهل مصر وخرجوا لوداعه . وكان أولهم شرف الدين بن الوردى يحمل ذلك الإطار الذى تراه بالجدار ، نمق فيه شعراً كتب بماء الذهب على درج من الكاغد البغدادى (١) وهو :

أخرجوكم إلى الصـعيد لأمر   غير مخز فى ملتى واعتقادى

لا يغيركمُ الصـعيد وكونوا   فيه مثل السيوف فى الأغمـاد

وهكذا أصبح سلاطين مصر يخشون بأس الخلفاء العباسيين، ويغارون من حب الشعب لهم والتفافه حولهم . وإنى محدثك عن أبى أمير المؤمنين المستعين بالله . لقد أحبه أهل مصر ، وأخلصوا له المودة ، وتربصوا حتى خلا العرش من السلطان . وكان ذلك عام ٨١٥ من ستين عاماً مضت ، وقبل مولدى بعشر سنوات . فبايعوا أبى سلطاناً على مصر بإجماع من أعيان البلاد وقضاتها وعلمائها وأمرائها . فجمع أبى بذلك بين الخلافة والملك ، ولم يسبقه إليها أحد من بنى العباس بمصر . ولبث فى دست الملك ستة أشهر حتى نزعه الملك المؤيد شيخ المحمودى ، ونفاه إلى الإسكندرية ، وضيق عليه العيش ، فمات بها عام ٨٣٥ هـ . وكنت فى العاشرة من عمرى .

وجفف الشيخ دمعه وقال : قم بنا يا ولدى نزر قبور آبائى خلفاء بنى العباس . فخرجوا إلى مقبرة الخلفاء ، وهى فى حرم المقام النفيسى الجليل . وكان على كل

(١) أجود أنواع الورق .

قبر سنام من رخام كتب عليه اسم الخليفة الدفين ، فطافوا حول القبة يقرؤون الفاتحة ، وتصدقوا بمال وانصرفوا إلى المسجد .

فقال الشيخ لحافده : تقدم يا بنى إلى أكرم مقام بمصر ، فإن من دخل مقام السيدة نفيسة وجد من الأنس بالله والروعة وترويح النفس ما ينسيه همه. وكان شيخ القراء جعفر السنهورى فى صحن المسجد يقرأ سورة يوسف ، فجعل ينغم بالقراءة ، فيأتى بألحان تكسب النفس طرباً كأنها المزامير .

وبعد قليل وقف بباب المسجد شيخ على بغلة عالية سرجها من جلد أسود ساذج بغير حلية ولا زينة ، ولجامها بغير سلاسل ولا قلائد[1] . وكان شيخاً جليلا أسود اللحية قد خالطها المشيب ، عليه عمامة سوداء من فوقها شاشات سود كبار للغاية ، قد أرسل بين كتفيه ذؤابة منها لحقت بقربوس سرجه ، وعلى رأسه طرحة سوداء تستر العمامة وتنسدل على ظهره ، وعليه فرجية مفرجة من قدام من أعلاها إلى أسفلها مزررة بالأزرار ، وفى قدمية خفان من جلد طائفى[2] .

فلما بلغ باب المسجد ترجل ودخل ، فعرفه الناس . وكان الشيخ جلال الدين السيوطى مفتى الديار المصرية ، وشيخ المدرسة الشيخونية ، فهرع الناس للسلام عليه ، وفى أولهم سيدى عبد العزيز وسبطه حيدر .

وصلى الشيخ بالناس المغرب ، فلما سلم ألحوا عليه أن يعمل ميعاد وعظ[3] ، وكان الشيخ قد فاق علماء عصره علماً واطلاعاً وحسن أداء فى المواعيد للوعظ ، وكان يتولى درس الحديث ، ومشيخة الميعاد بالمدرسة الشيخونية . فجلس على كرسى وبين يديه شموع كبار موكبية فى أنوار من فضة ، وأخذ فى عمل الميعاد فى عبارة حسنة وطريقة مؤثرة ، ثم قام فشيعه الناس . وكان سيدى عبد العزيز من صفوة إخوانه يتزاوران ويتهاديان ، وقد بشره الشيخ بالخلافة .

ورأى حيدر بباب المسجد فتى على رأسه مقنع أزرق ، وزيه وثيابه كما وصفه

(١) تلك صفة مراكب العلماء بمصر. (٢) هذا زى العلماء. (٣) يلقى درساً فى الوعظ

خضر البستانى . فمال إلى جده يودعه ويستلهمه الدعاء ، فضمه جده ، ثم وصاه بالرجل الذى أنقذه لعلاجه فى مرضه هو وأتباعه ، وقال : أولئك قوم حفظوا عهدى فاستقبل زائرهم إذا دخلوا عليك بأحسن ما تعامل الناس ، ثم أشار إلى الفتى المقنع وقال : هذا الفتى أجلهم قدراً ، وأشدهم بأساً بعد رئيسهم الذى عالجك فى مرضك ، فليكن لك منذ اليوم أخاً بعهد الله . فصافح حيدر يد الفتى المقنع وشد عليها توكيداً للمودة والإخاء ، ثم ركب والفتى يحجبه .

وكانت الأنوار تسطع فى قصبة القاهرة من المشهد النفيسى إلى رأس الحسينية قرابة أربعة آلاف وستمائة متر ، تنار جميعها بالشموع والسرج ، حتى تغالى الناس فى الوقود وكثرة الإنارة[1] .

وكان والى القاهرة شديداً على القائمين بصيانة المدينة . فالكناسون يكنسون الشوارع ويرشونها بالماء كل يوم ، ويقطعون ما تجمد على الأرض من الأتربة حتى لا تعلو أرض الشارع عن مستواها المألوف . فإذا كان يوم عيد أو موسم زينوا الرحاب التى أمام المساجد والمدارس والقصور ، وفرشوا بها الرمل الأصفر .

وسار حيدر فى أنوار المدينة يخترق الشوارع والرحاب ، والفتى المقنع فى ركابه حتى بلغ الدار . فأسر إليه الفتى أن رئيسه خضراً البستانى قادم إليه غداً ضحى ، ثم ودعه وانصرف .

(١) الخطط التوفيقية — والمقريزى .

الفصل الخامس

عهد الفتوة

ظهر فى الشرق فى صدر الإسلام سلاح استعمله الناس أول الأمر لصيد الطيور، وكان كرات اتخذت من الحجارة ثم من الرصاص، وقد بالغ الناس فى العناية بأمر ذلك السلاح فسموه البندق، وكان أول الملوك عناية به الخليفة العباسى الناصر لدين الله عام ٦٠٦ هـ الموافق ١٢١٠ م؛ فقد جعل للذين يرمون البندق زياً وسراويل خاصة بهم تسمى سراويل الفتوة، واعتبر رمى البندق فناً لا يمارسه إلا الذين يخضعون لعهده، فمن خضع للعهد ألبسه سراويل الفتوة وسقاه من كأس الفتوة، وصار من حقوق ذلك الخليفة أن يدخل من يشاء ويحرم من يشاء من عهد الفتوة. وقد جعل بين أنصار ذلك العهد روابط وثيقة وعهوداً راسخة على نحو بعض الجمعيات السرية، وكان الخليفة نفسه رئيس تلك الطائفة، فاستجاب لدعوته أهل العراق والشام وفارس ومصر، واتخذوا من الجنود فرقاً سلاحها البندق.

وصار البندق يصنع بمصر القاهرة فى خط البندقانيين[1]، وتطورت آلات رمى البندق حتى صارت أنابيب بضغط الهواء من مؤخر الأنبوب، فلما اخترعوا البارود صاروا يرمون البندق به من تلك الأنابيب، فسميت الآلة بندقية. وهذا النظام الذى ابتدعه الخليفة العباسى الناصر عام ١٢١٠ م قد اقتبسته أوروبا وصار أساساً لجمعيات الفروسية الأوربية فى القرون الوسطى.

وحدث فى ليلة الأربعاء الثالث من شهر رمضان سنة ٦٦١ هـ الموافق ١٢٦٣ م أن قام أول خليفة عباسى بالديار المصرية، وهو الحاكم بأمر الله، بتنفيذ عهد الفتوة

(١) السلوك للمقرزى (جزء أول).

بمصر ، فلبس السلطان الظاهر بيبرس وسائر أمرائه سراويل الفتوة ، وشربوا كأس الفتوة .

ولما بويع الخليفة المستعين بالله العباسى ملكاً على مصر وجمع بين الخلافة والملك بمصر عام ٨١٥ هـ — وهو والد سيدى عبد العزيز العباسى وجد حيدر لأمه — نشر بين الناس عهد الفتوة ، ولكنه عزل من الملك ومن الخلافة بعد ستة أشهر من بيعته ونفى إلى الإسكندرية فلبث بها إلى أن مات عام ٨٣٣ هـ ، فأوصى قبل موته ولده سيدى عبد العزيز — وكان فى العاشرة من عمره — أن يقوم بنشر عهد الفتوة بين طبقات المصريين فقدم سيدى عبد العزيز إلى القاهرة لما بلغ من السن عشرين عاماً ، واجتمع بكبار العلماء والقضاة ورجال الدولة المعممين ، وهم الذين يجلون أقدار بنى العباس ، فأحبه شيخ الإسلام علم الدين البلقينى وقربه إليه وزوجه ابنته فرزق منها بنتاً سماها ست الخلفاء ، كانت أجمل نساء عصرها فتزوجها أبو بكر بن مزهر ، الذى أصبح كاتب سر الدولة .

وانتشر بالقاهرة عهد الفتوة فتلاحقت به الطوائف . وكان أسرع الناس تقلداً لذلك العهد جماعة الزعر ، وهم قوم عرفوا بالشطارة والعياقة كانوا يحملون السلاح ويعبثون بالأمن . فأخذ سيدى عبد العزيز عليهم العهد والميثاق أن يكفوا عن الفساد ، ويتعاونوا على بث الفروسية بين طبقات المصريين ؛ حتى لا يكون الأتراك وحدهم منفردين بمجد الجهاد والدفاع عن البلاد . وحمل علم الزعر رجل كان له قدره وخطره فى المجتمع اسمه أحمد الدنف .

فالتف به من الأتباع مئات الفتيان ، الذين حذقوا فنون الصراع ورمى البندق والنشاب وركوب الخيل ، وظهروا فى أساليب التنكر والمراوغة ، وكان من أقدرهم وأشدهم بأساً رجلان : أحدهما فتى يافع فاق الأقران شجاعة ونجدة فتبناه الدنف وكان اسمه على الزئبق ، وأما الآخر فيدعى حسن شومان وهذا كان يغار من الزئبق

ويحقد على رئيسه من أجله ، ويتظاهر أمامه بالاستقامة وطهارة اليد ولكنه كان لصاً فاتكاً .

وأوصى سيدى عبد العزيز أحمد الدنف أن يدرب حفيده حيدراً على فنون الفتوة ، على أن يكون الخليفة عليهم من بعده يحمل أمامهم علم الفتوة خفاقاً ؛ فكان ذلك السبب فى زيارته حيدراً فى مرضه ومعالجته حتى رزق الشفاء متخذاً زى خضر البستانى حتى لا يكون أحد رجال الدار عثرة فى طريقه إذا زار حيدراً جهاراً يدعوه للخروج معه للتدريب على المصارعة وسائر فنون القتال

وكان جماعة الزعر ينتحلون الحرف العامة لكسب قوتهم ، فمنهم القصاب والحائك والحجام وصاحب المبقلة ، فإذا جاء الغروب تركوا بضاعتهم وحرفهم وتسللوا إلى الميادين الخالية يحمل كل واحد حرمداناً[1] من الجلد به أدواته .

واعتاد أحمد الدنف أن يترقب خروج خضر البستانى من دار الوزير فيسلط عليه من رجاله من يعوقه عن العودة حتى يتم هو حق زيارته لحيدر فما كان بدار الوزير رجل واحد يساوره شك حين يلقى الدنف بأنه خضر البستانى . وأقبل حيدر على تلك الفنون الجديدة بعزم ورغبة ؛ فيركب كل يوم إلى ميدان صلاح الدين حيث يقوم الطراد بين فرسان المماليك من جنود الأمراء وحرس السلطان ، ويتولى تثقيفهم أساتذة الصراع : جانم الفهلوان ومغلباى الفهلوان وأستاذ الرمى بالنشاب صنطباى وبطل اللعب بالرمح المعلم قرقماس ، وكان الدنف يدفع حيدراً ورفاقه إلى ذلك البحر الفياض بأهل الحروب وأبطاله ، وكانت الحرب فى ذلك العصر فناً عظيماً تولاه أمراء المماليك وملوكهم وجنودهم .

فالجندى وفرسه أروع عناصر الجيش وأعظمها ، لا يمل السفر ليلاً ونهاراً وهو على صهوة جواده وربما قضى الأيام يعيش على القليل من الطعام ، فهو محارب

---

(١) حقيبة .

بفطرته ، نشأ تحت ظلال السيوف ، وحذق الرماية من مولده . وكانت الرماية بالقوس من أهم أنواع القتال ، ولذلك حرص الدنف على تدريب تلاميذه عليها فى سائر ميادين القتال بمصر .

فعرف حيدر بإجادة الرماية وهو على صهوة الجواد ونبغ فى الرمى بسهام الفولاذ، التى كانت تعد للأهداف القريبة فتخترق الدروع إلى الأبدان .

و بلغ عدد الذين جندهم حيدر حوله من فتيان المدرسة وسكان حى المسطاحى و بركة الرطلى والكانورى خمسمائة غلام يركبون الخيل و يحملون السيف والبندق والنشاب ، و يلبسون أزياء الفتوة وسراويلها السوداء ، و يشربون شراب الفتوة ، وهو الجلاب[1] ، وانتظموا كتائب لكل خمسين غلاماً نقيب .

وظهرت نجابة حيدر و براعته فى سائر الفنون بسواعده المفتولة وقامته المديدة و بأسه الشديد حتى بَزَّ بحركاته وخفة وثبه أبرع رجال الزعر .

وما كان رفاقه الثلاثة دونه مراناً وتثقيفاً و بأساً ونجدة فصار كل واحد منهم نقيباً لكتيبة .

(١) نوع من التمر الهندي .

الفصل السادس

ميدان القبق

كان القبق صارياً طويلاً للغاية ينتهى من أعلاه بدائرة من النحاس فيها كرة من فوقها طير حمام . فكان الفارس يأتى مسرعاً بفرسه و بيده النشاب فيسدد سهمه إلى الطير و يرمى ليصيب الكرة .

وكان الذى ابتكر الرمى فى القبق السلطان الظاهر بيبرس ، فكان يخرج بين الأمراء والمماليك وطوائف الجند و يطلق للفائز جوائزه و إنعامه .

وكانت حفلات القبق من أعياد القاهرة يخرج لها السلطان وكبار الأمراء وحشد عظيم من المماليك والأجناد وأبناء الناس .

وكان الأمير يشبك الدوادار ينوب عن السلطان فى تلك الحفلة ، فضربوا له يوماً قبة من الديباج الأحمر لها دهليز وشقة دائرة ، ورفعت الرايات على سارياتها ووقف ببابها فرسان المماليك فى زينتهم وسلاحهم .

وكانت الأميرات من بنات الملوك ممن يشهد ذلك العيد فيتقدمن فى المحفات المصوغة من الفضة بين الوصائف وتضرب لهن قباب الديباج الأصفر بجانب قبة الأمير يقف ببابها الخدم وصغار المماليك .

وقدم فى ذلك اليوم أميرتان من بنات الملوك السابقين كانت أجلهما قدراً خوند[1] جلنار ابنة الملك المنصور عثمان الذى عزل من الملك ونفى إلى الثغر الإسكندرى قبل عهد السلطان قايتباى بأربع عشرة سنة .

وكان أبوها حليفاً لقايتباى وفياً بعهده ، فأكرمه ووسع عليه الرزق وهون عليه

(١) خوند أى أميرة .

المنفى وأطلق له حرية التنقل ، ثم أوعز إلى كبير أمراء الدولة وهو الأمير أزبك أن يصاهره فتزوج من ابنته الكبرى .

وكانت خوند جلنار فى السابعة عشرة فياضة الحسن مشرقة المحيا أروع من عرف من غوانى القصور فتنة وجمالاً ، وليس لها صنو فى روعتها وجمال موكبها ووفرة مماليكها مع صغر سنها . وكانت تقيم فى قصر أبيها على بركة الفيل بين قصور الملوك والأمراء بجانب قصر شقيقتها الكبرى زوج الأمير أزبك أتابك الجيوش المصرية[1] .

وكانت تنفر من حياة الدس ولا تصغى إلى حديث الدساسين من أمراء أبيها وإن كانت تحتفظ برأيها الخاص فى انتهاز الفرص واختيار الأعوان ، وعرف عنها كثرة البذل والإحسان وترددها على بيوتها التى اتخذتها فى دروب المدينة يغشاها الناس من سائر الطبقات فينالون صدقاتها . وما كانت تظهر إلا محجبة تحت مرط ضاف يكسوها إلى خفيها فلا يعرفها أحد حتى خاصة المتصلين بقصرها .

وكانت تسامى بين الخوندات[2] خوند جلبان[3] حفيدة السلطان خشقدم الذى مات قبل أن يتولى الملك قايتباى بعامين . وأخوها الأمير أحمد بن العينى ، ولها قصر عظيم فى حى منشاة المهرانى[4] . وكانت هذه الأميرة فى سن خوند جلنار حوراء فاتنة تلوح شمساً تحت سماء النقاب وغصناً فى أوراق الشباب ، وكانت شديدة الشبة بجلنار فى قامتها وصفاء بشرتها وشعرها وعينيها حتى ليعجز أقدر المصورين عن تمييز إحداهما عن الأخرى . وكان جدها لأمها السلطان خشقدم ، وباسمه خطبت إلى أكبر أمرائه وهو الأمير قرقماس ، وهو شيخ من وجوه الأمراء واسع الثروة له قصر كبير بمنشاة المهرانى ، فعاجله السلطان قايتباى قبل أن يدخل

(١) أتابك : قائد الجيوش .
(٢) الأميرات .
(٣) اسم فارسى معناه غصن الورد .
(٤) حى جاردن ستى الآن .

بها وندبه لقتال ملك العراق شاه سوار مع بقية أنداده أمراء السلطان خشقدم . وقد أراد بذلك أن يتخلص منهم ومن دسائسهم . فقتل الأمير قرقماس فى المعركة وانتقل قصره ورياشه وعبيده إلى تلك الأميرة ، وعرفت بين الناس بالبذل والإحسان وذكاء الفؤاد وصدق الفراسة . كان أمراء جدها يستعينون بها فى مجالسهم ومداولاتهم السرية . وما كان يغيب عنها شئ من أخبار القاهرة ومجالسها ومحافلها حتى حاشية السلطان .

وكان قهرمان[1] قصرها بهادور من دهاة الترك يجيد العربية نطقاً وكتابة ، وكان لا تخفى عليه خافية من أحوال المدينة ، فهو دائم الطواف والتردد على المشارب والحانات والمطاعم والفنادق يتسقط أخبارها ويحملها كل يوم إلى مولاته الأميرة .

وكانت جلبان تطمح إلى الملك فجمعت حولها أمراء جدها سراً ورضيت بأسنهم زوجاً وهو الأمير قرقماس ، فلما قتل لم ين عزمها ولا فل غربها بل أقامت على نهجها فى حذر وتكتم واستعانت بكبار المنجمين على مستقبلها فكانوا يمنونها بالإمارة دون الملك .

وكان لها بالمدينة منازل يلقاها بها جواسيسها ، فكانت تغشاها وهى أشد ما تكون حذراً من الشرطة الذين كانوا يتعقبون الأمراء الخارجين على السلطان .

هذا كان حال الأميرتين وما كانتا تجتمعان أبدا . وقد بلغ من دهاء جلبان أنها كانت إذا دهمها الشرط فى بيت من بيوت القاهرة التى كانت تغشاها ظهرت فى ثياب جلنار ورنوكها[2] هى وسائر أتباعها فتضلل بعملها الشرطة ويحسبونها جلنار التى لم يؤمروا بتعقبها .

---

(١) القهرمان : المشرف على خدم القصر . (٢) شاراتها .

فلما كان يوم القبق ضرب للأميرتين قبتان من المخمل وحفت بهما الوصائف.

وتحرك الفرسان الذين حول القبة الحمراء ونفخوا الأبواق معلنين قدوم الأمير فهلّ على الناس كوكبة من الفرسان تخفق من أطراف رماحهم بنود صفراء وبينهم رجل فى الأربعين أبيض مستدير الوجه أشهل العينين أشقر اللحية ملىء الجسد عليه مهابة ووقار يلبس قباء من حرير أصفر موشّى بذهب وسرج جواده ولجامه ومهاميزه مكفتة[1] بذهب.

وكان الأمير يشبك أكبر رجل فى الدولة المصرية بعد السلطان، عظيم القدر، وافر الحرمة، نافذ الكلمة. فهو دوادار المملكة[2] والأستادار[3] وكاشف الكشاف. وما عرف عن الأمراء من جمع فى يديه تلك الوظائف الكبرى غيره. وهو الذى شيد القبة العظيمة بحى الريدانية[4] هى قبة الفداوية، وقبة أخرى عظيمة القدر فى طريق المطرية بجانب قصر القبة المسمى باسمها.

وكان هو المرجى فى الحروب ودفع العدوان عن مصر وأملاكها. فلما توسط ساحة الميدان وقف له الناس وكافة الأمراء وخدموا[5] واستقبله بباب مضربه أستاذ الرمى بالنشاب صنطباى، والمعلم قرقماس بطل اللعب بالرمح، ووقفت كوكبة من المماليك السلطانية بجانب مضربهم على خيل شقر، وعلى مقربة منهم ضربت قبة لطيفة للحرس السلطانى الخاص وقف ببابها فرسان أربعة هم: شاهين غزالى، وآق بردى، وجان بلاط، وقانصوه الغورى على خيل شهب. وكانت كتائب المصريين لها قبة فى ناحية من الميدان وقف حولها أعيان التجار ووجوه أهل القاهرة، وجمهور العامة من ورائهم ينتظرون حضور فرسان الكتائب المعدين لدخول السبق، وكانوا أربعة: أولهم والمشار إليه بينهم حيدر

(١) مطعمة. (٢) فسرت فى فصل آخر. (٣) فصلت فى فصل آخر. (٤) هو الآن حى العباسية. (٥) قبلوا الأرض بمد أصابع اليدين إلى الأرض مع الانحناء.

ابن الوزير كاتب السر ورفاقه الثلاثة : سيف الدين ابن ناظر الخاص، ونور الدين ابن ناظر الجيش ، وعلاء الدين ابن وكيل بيت المال .

وتعاقد الفتيان الأربعة على دخول المباراة بين أبطال المماليك دون أن يُعرفوا، فكانت ثيابهم خضرا وخيولهم دهما ، وعليهم دروع من الجلد اسمها الجوشن ، يلبسونها حول أوساطهم ، على أن يلتقوا على باب حيدر .

ودخل الوزير ابن مزهر حجرة ولده حيدر فى غداة الحفلة فألفاه فى زينته وتجمله يتحفز للخروج فابتسم له وقال: لاتخف ماوهبك الله ياولدى من بأس وشجاعة فتلك غرائز آبائك الأنصار الكرام، والحمد لله الذى وهبنى على الكبر غلاماً شجاعاً مقداماً . لقد ذاع صيتك بين شيوخ العرب وقبائلهم فزارنى بالأمس شيخ عربان إقليم البحيرة مهنا بن عطيه ، ليهديك مهراً من سلائل الخيل الكريمة أدهم يسابق الريح لا تشبع من النظر إلى غرته الجميلة وصدره الرحب ، وجاء معه بغلام حبشى فى مثل سنك اسمه أسامة من أقدر العدائين ، فقبل حيدر يد والده وسأله الدعاء . ثم طار إلى الأسطبل ليرى الأدهم فاشتد به إعجابه وزهوه وأمر الغلمان فأسرجوه ثم وثب فاستوى على صهوته وخرج إلى باب القصر وغلامه أسامة بين يديه فرأى رفاقه الثلاثة بالباب على خيولهم الدهم وأرخى كل فارس منهم لثاماً كثيفاً وانطلقوا إلى ميدان القبق فاستقبلتهم عاصفة من التهليل والتكبير والتصفيق من صفوف الجماهير والأعيان ، وفصل من جموع الفرسان اثنا عشر فارساً لدخول السباق قبل الرمى فى القبق. فخرج من فرسان المماليك أربعة ومن حرس السلطان أربعة هم شاهين غزالى ومن معه ، وخرج على أثرهم حيدر ورفاقه ملثمين على خيول دهم ، ووقف الجميع بباب قبة الأمير ، فانطلق النفير مؤذناً بالسباق ، فطار الفرسان فى الحلبة يستبقون إلى آخر المدى ، وامتدت الأعناق من كل صوب ، فكانت كل طائفة من الجند ترجو الفوز لإخوانها . وظهر فى الطليعة فارس ملثم

على فرس أدهم قد فات الجميع ، وجاء المصلى بعده فارس على فرس أشهب من حرس السلطان ، وكان فى أقصى الحلبة ثنية ينعطف حولها الفرسان قبل ختام الشوط فجازها الفرس الأدهم بسلام وتقطر عندها الفرس الأشهب وسقط فارسه واشتد الخوف عليه لئلا تدوسه الخيل بسنابكها ، فظهرت نجابة صاحب الأدهم وهو السابق ، وتجلت مواهبه وعاد بجواده إلى الثنية فى ومضة البرق وقفز من سرجه واحتمل الفارس الذى سقط وأردفه خلفه وشق به الصفوف فاسترد مكانته وتفوقه حتى آخر الغلوة فحاز قصب السبق على الجميع. فانطلقت رعود من العقائر بالهتاف والإعجاب والثناء على شجاعته ومروءته ، وتقدمت كوكبة الحرس السلطانى إلى قبة الأمير ليطمئنوا على زميلهم الذى كبا به فرسه فرأوه يعانق الفارس الذى صان حياته و يشد على يديه توكيداً للمودة الصادقة . وكان الفارس الذى كبا به الجواد جان بلاط من أعيان الحرس المختارين ، و بقى الفارس الذى نجاه من الموت مجهولاً لأنه احتفظ بلثامه فالتف به فرسان الحرس يشكرونه على حسن صنيعه بزميلهم وسألوه أن يكشف عن لثامه فاعتذر فى أدب .

وتناول جان بلاط يد الفارس الملثم وقال : إنى أشهدكم يا إخوانى أننى قد اصطفيت لنفسى هذا الفتى الكريم ، ولن أنسى فضله ومخاطرته بحياته من أجلى. فنكس الفارس رأسه حياء ولم يتكلم ، وشد على يد صاحبه جان بلاط . وكان الأمير يشبك قائماً على صهوة جواده تحت العصائب [1] فأمر فتقدم إليه الفارس الملثم عَلَى قدميه حتى صار على خطوات منه فخدم [2] فأمر أن يرفع لثامه فلما كشف له وجهه دهش لجماله وحسن وجهه وصغر سنه ، فسأله : ما سنك يافتى ؟ فخدم الفتى وقال : ليس من المروءة يا مولاى أن يخبر الرجل عن سنه ، فإنه إن كان صغيراً احتقر و إن كان كبيراً استهرم ، فقال الأمير : أحسنت ، فمن أنت ؟

(١) الرايات . (٢) قبل الأرض .

فقال: أنا حيدر ابن الوزير كاتب السر بن مزهر ، فازداد إعجاب الأمير به ، وقال: من علمك فنون الحرب وأبوك من المعممين حملة الأقلام ؟! لقد سرنى ما شهدت من شجاعتك و إقدامك ومخاطرتك العظيمة حتى حفظت حياة أكرم فارس بين حرس مولانا السلطان ، ومسح الأمير على رأسه وأظهر العطف والحنو وقال : اركب يا بنى باسم الله وأرنى كيف ترمى القبق .

ولم يسمع أحد من الجماهير ولا الأمراء والمماليك ما دار بين الفتى والأمير الكبير .

وعاد الفتى إلى صهوة جواده بعد أن أرخى لثامه وانطلق بالأدهم كأنه برق خاطف ثم كر عائداً وقد سدد السهم إلى الطائر فى جوف القبق ورمى والجواد فى الغلوة القصوى من سرعته فمرق السهم وقد أصاب القبق وأراد أن يعيد الكرة فكان الأدهم يطير من تحته بوثبات مترامية حتى جاوز صارى القبق فما شك الناس أنه قد فاته الرمى ، ولكنه استلقى على ظهر فرسه حتى صار رأسه على كفله ورمى وهو بهذا الوضع فأصاب القبق مرة ثانية ، فاشتد إعجاب الناس وعلا هتافهم ونودى من قبل الأمير فسار بجواده الهوينا والناس يحاولون أن يميزوا وجهه من خلال لثامه ، ومر بقبة خوند جلنار وكانت أقرب القباب إليه فتحركت الأميرة خطوات إلى باب القبة لتراه عن قرب ، فلما قارب الباب حسرت نقابها ليراها واستقبلته بشبه الهتاف الصامت من ثغرها المبتسم ، وكان قد طوى لثامه ، فاشتبكت الأحداق بالمقل وبهر الفتى وأذهله حسن فائق ليس له به عهد ، وودّ لو عاد إلى طوافه بالقبة ليرى ذلك المحيا الجميل ، فلما مر بقبة خوند جلبان كانت الأخرى ترقبه بوجه سافر لتشفى غلة إعجابها ، فلما طلعت عليه أضاع صوابه ما بين الأميرتين من شبه عجيب وغالبه الظن أنه لم يغادر باب القبة الأولى وراح يترنح حيرة بين الأميرتين لا يدرى أيتهما السابقة إلى قلبه .

ورمى والجواد فى الغلوة القصوى فأصاب القبق

أما جلبان فتوسمته فتى أحلامها المرجو واستمهلته الخطى فأصبح منها قاب قوسين أو أدنى واستمع إلى ثنائها المرسل وهتاف إعجابها الصداح .

واستدناه الأمير وهنأه بالفوز وقال: لقد كنت أتعقبك فى أقصى مدى سرعتك فما انفرد ذيلك من تحت فخذك وتلك سجية الأبطال .

وأمر له بفرس من مراكب الأمراء .

وأقام حرس السلطان لحيدر سماطاً فاخراً بالقصر وفاء بما فعل مع زميلهم جان بلاط ، وأولم لهم حيدر بقصر أبيه وجمع لهم رفاقه أبطال الكتائب فانطلقوا قبل الغداء للصيد فى بركة الرطلى وكانت فى موسم الجفاف لا ماء بها ونما عشبها وكثر الطير فجعلوا يرمونه بالبندق .

وعاد جان بلاط قبل رفاقه إلى دار حيدر وكان عطشان فرأى البستان مفتوحاً فسار فيه خطوات يبحث عن الماء فرأى فى ظلال الكروم صبية تختال فى حلة بيضاء وضاءة الحسن جميلة المحيا تتلفت كالمها النافر ، فلما أحست به ولت على استحياء وفى أعقابها جواريها فلحق بإحدى الجوارى وسألها عن الصبية فقالت: هى مولاتى السيدة زبيدة ابنة مولانا الوزير، فجعل ينظر فى آثارها معجباً مشغوفاً بجمالها مأخوذاً بحسنها وقال : ما أقرب الشبه بينها و بين أخيها حيدر ولئن عدت من حرب سوار سالماً لتكونن بإذن الله عروسى .

الفصل السابع

فرسان القصر

كانت القلعة مدينة عظيمة عالية الأركان تشرف من الشمال على القاهرة ومن الجنوب على مدينة مصر (مصر القديمة) والقرافة ويجرى النيل منها غرباً ومن ورائها جبل المقطم شرقاً .

ولها بابان أحدهما الباب الأعظم أو الباب المدرج ، وهو يواجه القاهرة ويجلس بداخله والى القلعة فى حجرات أعدت له ، ويليه شمالاً باب ثان هو باب القرافة .

ولها باب ثالث وهو باب سر القلعة يدخل منه كبار الأمراء وخواص الدولة كالأتابك والدوادار وكاتب السر يوصل إليه من مكان يسمى الصوة ، وهى بقية الجبل الذى بنيت عليه القلعة بتعاريج يمشى الأمراء فيها بجانب جدار القلعة البحرى وتنتهى تلك التعاريج من الداخل بالباب ويكون مقابله الإيوان الكبير الذى يجلس فيه السلطان أيام الحفلات الرسمية وأيام نظر المظالم[1] .

وبين البابين الكبيرين ساحة عظيمة على جانبيها مبان مشيدة جليلة القدر وفى صدر الساحة دركاة جليلة يجلس بها الأمراء حتى يؤذن لهم بالدخول ، وفى وسط الدركاة باب داخلى للقلعة تخرج منه إلى ساحة ثانية فى صدرها الإيوان الكبير سالف الذكر ، وبجانب تلك الساحة رحبة كبيرة تنتهى بمسجد الناصر محمد بن قلاوون ،

---

(١) جلسة المظالم : هى محكمة عليا رئيسها السلطان وأعضاؤها القضاة والمفتون والمحتسب وكبار الأمراء تنظر القضايا الكبرى التى عجزت المحاكم عن نظرها أو الفصل فيها ، يقابلها فى أوروبا الآن مجلس الدولة .

وهو المسجد الرسمى الذى يصلى فيه السلطان ، ويلى الإيوان العظيم قصر الحكومة الرسمى المسمى القصر الأبلق وعلى بابه يجلس كبار الأمراء من خواص السلطان قبل دخولهم إلى الخدمة الدائمة بالقصر .

ويلى القصر الأبلق عدة قصور للحرم السلطانى تشرف على بستان عظيم وعلى الحوش السلطانى والإسطبل والميدان .

وبجانب ذلك ثكنات المماليك وهى أمام الرحبة التى تواجه الإيوان الكبير ، ثم دواوين الحكومة كديوان الجيش وقاعة الإنشاء ودار الوزارة وبيت المال والزردخانة وديوان البريد وأبراج حمام البطائق ودور كبار الأمراء وعيالهم ومماليكهم وخدمهم ، وكانوا : أمير السلاح المشرف على الحرس الخاص ورأس النوبة المشرف على سائر المماليك وعدتهم أربعة آلاف وأمير جاندار المشرف على البريد والبرجية والزردخانة وباب القصر .

وتكاد القلعة فى سعتها وجمالها وفخامة قصورها تعادل نصف مدينة القاهرة ، فإذا جاء الليل غلقت أبوابها وحملت المفاتيح إلى السلطان .

وكان المشرف على القلعة بقصورها وجنودها وأمرائها سلطان العصر الملك الأشرف قايتباى ، ذلك الرجل الذكى الفؤاد الخبير بشؤون الدولة وسياستها ، الواسع الحيلة فى ضبط المماليك وسائر الأمراء المنتشرين فى أنحاء ملكه العريض على اختلاف أميالهم ومطامعهم .

ذلك لأنه كان مثلهم مملوكا صغيراً جركسى الجنس اشتراه السلطان الأشرف برسباى عام ٨٣٩هـ وهو فى سن العشرين وأنزله طبقة المماليك (ثكنة) بالقلعة مع أنداد له ، وكانت الطباق عديدة فسيحة كل واحدة فى سعة الحارة ، وكان بينها قاعتان عظيمتان للممتازين من المماليك وهما القاعة : الزمردية والقاعة الذهبية .

وكان المملوك يبتدئ بمرتب شهرى أو جامكية قدرها ثلاثة جنيهات وترتفع

إلى عشرة ، ويختار السلطان من تلك الطباق خدمه الخاص : كالساقى الذى يسقيه والجمدار الذى يلبسه ثيابه والباشمقدار الذى يحمل نعله والجاشنكير الذى يتناول طعامه وشرابه قبله خشية أن يكون بالطعام سم ، فإذا تخطى المملوك تلك الدرجات بنجاح وتوفيق أدخل الحرس الخاص وصار خاصكياً ؛ فيكون أوجاقيا أى فارساً دائم الركوب مع السلطان فى السفر والرياضة ، ويكون سلاح دارى ممن يحملون السيوف ويحفون بالسلطان دائماً ، أو من حملة الأطيار الذين يمشون حول السلطان وبأيديهم الأطيار . وعدد هذا الحرس الخاص أربعمائة مملوك .

لقد مارس قايتباى كل تلك الدرجات فمكث بالطبقة ست سنوات حتى تولى السلطان الظاهر جقمق فاشتراه من بيت المال وأعتقه عام ٨٤٣ هـ فصار جمداراً ثم خاصكياً ثم صار أمير عشرة فى عصر السلطان إينال عام ٨٥٧ هـ وهو فى الثامنة والثلاثين ، ولبث أربع عشرة سنة يتقلب فى مراتب الدولة بين مصر والشام حتى أصبح أميراً كبيراً خبيراً بشؤون الدنيا والممالك ؛ إذ خدم فى ظل ثمانية ملوك خلال ثلاث وثلاثين سنة فرأى كيف كانت تولى الملوك ثم تعزل ، ورأى كيف كان المماليك يهدمون ملوكهم .

وكان قايتباى طويل القامة عربى الوجه نحيف الجسد شجاعاً بطلا ذا دهاء وحذر مهاباً جميل الهيئة وافر العقل مبجلا فى موكبه ومجلسه ؛ وما زال موفور الحرمة منذ كان مملوكا خاصكياً إلى أن تولى الملك ، فما نفى ولا سجن ، وما كان عجولا فى حكمه ؛ فلم يعزل أحداً من أرباب الوظائف إلا بعد أناة وتروٍ فى شأنه أياماً قبل إبرامه . ولم يخرج إقطاع أحد من الجنود إلا بعد موته . وكان فى شؤونه الخاصة تقياً نقياً لم يعاقر خمراً ، طاهر الذيل كثير الاشتغال بالمطالعات يعظم العلماء والصالحين . وكان موفقاً فى حروبه الخارجية مع التتار والفرس والعثمانيين ففاز عليهم أجمعين.

وحدث فى خلال العام الذى بويع فيه قايتباى أن سبقه إلى الملك ثلاثة ملوك ،

فتولى السلطان بلباى ولبث شهرين ثم عزل وجاء من بعده تمربغا فلبث أياماً ثم عزل وأخيراً جاء خير بك بن حديد فلم يمكث فى الملك إلا ليلة واحدة ثم عزل . وهؤلاء الملوك والسابقون عليهم كانوا موضع العبرة لدى قايتباى إذ أن كل سلطان منهم كان قد ترك من بعده أمراء ومماليك يؤيدون ذريته فكانوا يثورون فى وجه كل سلطان جديد إلى أن يعزلوه .

وقد تعددت أمام قايتباى مشكلات الأمراء والمماليك . فهناك مماليك السلطان خشقدم وآخرون للسلطان إينال وغيرهم للسلطان الظاهر جقمق ، وكانت كل طائفة تلقب باسم سلطانها الذى أنشأها ؛ فكانت نصب عينيه مماليك السلطان خشقدم المتحفزون للوثوب عليه حيث يرشحون للملك خير بك أو حفيد ملكهم الأمير شهاب الدين أحمد بن العينى ، فعاجلهم قايتباى بعمل حاسم ونفى خير بك وسجنه بسجن الإسكندرية وصادر أموال أحمد بن العينى وألزمه داره وطوقه بشبكة من الجواسيس ينقلون أخباره كل يوم . ورأى المماليك الظاهرية يؤيدون ملكهم المنصور الذى عزل ونفى من قبل إلى الإسكندرية فأراد أن يستميله إلى جانبه فاختار أحد أعوانه من الأمراء أهل السياسة والذكاء وهو الأمير أزبك بن ططخ منشئ حى الأزبكية — وكان نائباً لدمشق الشام — فرقاه أتابك الجيوش المنصورة بمصر وهى كبرى المراتب العسكرية وأشار عليه أن يصاهر الملك المنصور عثمان فتزوج أزبك بابنته الكبرى فقضى بذلك على عداء المماليك الظاهرية وأمرائهم . وبقى من الخصوم المماليك الإينالية وأولئك يطمعون فى الملك لابن سيدهم وهو الملك المؤيد أحمد الذى كان سلطاناً وعزل ونفى من قبل إلى دمياط — وأبوه السلطان الأشرف إينال — فأوعز قايتباى إلى أحد كبار الأمراء من أنصاره وهو الأمير يشبك بن مهدى أن يصاهر الملك المؤيد فتزوج يشبك بابنته وعقد عليها بالقلعة بحضرة السلطان فنال بذلك تأييد الأمراء الإينالية .

ولم يكتف قايتباى بذلك العمل ولكنه بالغ فى إكرام الملكين المنصور عثمان المقيم بالإسكندرية والمؤيد أحمد المقيم بدمياط ؛ فأنزلها أحسن القصور فى الثغرين ووسع عليهما فى النفقة ومنحهما حرية واسعة فى الخروج والتنقل .

ورأى قايتباى أن يقضى على الخصوم الظاهرين وهم المماليك الخشقدمية فندبهم للحروب التى كانت قائمة فى الشرق مع ملك العراق شاه سوار حيث قتل أكثرهم . فلما وطد أركان الدولة من الداخل أخذ يخفف من حدة الحوادث الخارجية وأولها موقف الدولة العثمانية الفتية من الدولة المصرية ووقوفها موقف المتربص من جهة الحدود المصرية الشمالية على غلوة من البلاد الحلبية . ثم يأتى فى المرتبة الثانية مطامع ملك العراق شاه سوار الذى كان فى حرب مع مصر بتحريض العثمانيين وعونهم ، واشتدت مطامعه بعد أن هزم جيش مصر الذى بعث به قايتباى على غير استعداد والذى كان قوامه المماليك الخشقدمية .

بعد ذلك جلس قايتباى يتجهز لقتال شاه سوار من جديد ويدرب الجنود من المماليك والمصريين حتى بلغت عدة مماليكه ثمانية آلاف مملوك مدربين مزودين بسلاح عصرى ثمين واختار منهم أربعمائة فارس حرساً خاصاً به هم الخاصكية ، وجعل رئيسهم ابن أخته الأمير تمراز السلاح دار ، واتخذ من أشجعهم وأجملهم أربعا وعشرين خاصكياً يحرسونه ليلاً ونهاراً ويركبون لركوبه ويحضرون مجلسه الخاص فى ساعات فراغه وخلوته وينالون بذلك ما لا يناله كبار الأمراء ، ولا يتخلفون عنه فى قرب ولا بعد ، ويمتازون عن بقية المماليك بحمل سيوفهم وبدخولهم عليه فى خلوته بغير إذن وتأنقهم فى زينة ثيابهم وخيولهم فلهم الرزق الواسع والعطايا الجزيلة .

وكان القصر الأبلق كما أسلفنا دار الحكم الرسمى يتصل من داخله بقصور الحرم الثلاثة ، وله من الخارج باب سر ينفذ إلى الإيوان الكبير حيث تعقد الحفلات الرسمية الكبرى ، وقد بنى ذلك القصر وباقى القصور من الحجر الأسود والحجر

السلطان تحت ظلال من سيوف مماليكه

الأصفر وزينت جدرانه من الداخل بالرخام والفصوص المذهبة المشجرة بالصدف وأنواع الملونات .

وكانت سقوفه كلها مذهبة قد موهت باللازورد يدخل إليه النور من طاقات من الزجاج القبرسى الملون كقطع الجوهر ، كما فرشت أرضه جميعها بالرخام الجميل .

ففى إحدى ليالى الشتاء قام السلطان من مجلس الدولة بعد ساعات مضنية قضاها فى تدبير ملكه فانصرف عامة الأمراء إلى بيوتهم ، أما هو فقام يتهادى بين حرسه إلى أجمل قاعة بالقصر ، وهى القاعة البيسرية التى كان يؤثرها على سائر قصوره وينام فى برجها العاجى تحت ظلال من سيوف مماليكه الأبطال .

وكانت البيسرية شاهقة البناء تمتد جدرانها إلى السماء خمسين ذراعاً ، وقد طليت سائر الجدران بخالص الذهب ، وكان بها خمسون ثريا من خالص الفضة مطلية بذهب تضاء كلها ، وبصدر القاعة برج صنع من العاج والأبنوس المطعم فيه مقرنص قطعة واحدة وشبابيك وطرازات مصوغة وشرافات وقبة ، كل ذلك صيغ من خالص الذهب وبلغت النفقة عليه خمسين ألف دينار ، وقد أعد ذلك البرج النفيس لينام به قايتباى ، وكان للقاعة شباك كبير مزين فى حجم باب زويله يشرف على بستان جميل ، وكان الخاصكية يجتمعون فى أقرب قاعة من برج العاج حيث ينام السلطان ، فكانوا يقتسمون الليل بينهم لكل جماعة منهم نوبة فيسهرون حول السلطان على نظام ساعات الرمل التى بالقصر فإذا انتهت نوبة نبهت التى تليها فى الحراسة والسهر وذهبت هى فنامت إلى الصباح .

وعرف بين الخاصكية[1] أربعة من المماليك بجمال الوجه وحسن القامة وشدة البأس مع الأدب الجم وهم : آق بردى وشاهين غزالى وقنصوه الغورى وجان

---

(١) الياوران .

بلاط وكان السلطان يميل إليهم ويؤثرهم بنعمته ويثق بإخلاصهم فجمعتهم نوبة الحراسة حول السلطان تلك الليلة .

وكان حرس النوبة يميزون فى الليل بألوان من الطعام الفاخر ومن البوارد والعسل القطر والقشطة والجبن المقلو واللحم السكباج [1] فيتشاغلون بالأكل والشرب عن النوم وبين أيديهم المصاحف الكريمة لمن يريد منهم أن يقرأ ويقدم لهم الشطرنج لمن يريد ، وكانت عندهم خزانة كتب بها بعض كتب من الأدب العربى والتركى ومختارات من الأدب الفارسى ككتاب (فرح نامه —) وقصة سهيل ونوبهار (دائرة المعارف الإسلامية) .

فخرج على حرس النوبة الحاج رمضان المهتار وهو المشرف على خزائن الشراب السلطانية من سكر ومربيات وفاكهة وماء ورد ومنعشات وعطريات وجاء من خلفه غلمان الشرابداريه يحملون الطعام الشهى وأباريق من بلّور مذهب بها شراب الأقسما المصنوع من السكر والأفاويه المطيبة بماء الورد .

فرأى آق بردى وشاهين غزالى يلعبان الشطرنج وجان بلاط مقبلاً عليهما أما قانصوه الغورى فكان بمعزل أمام خزانة الكتب ينظر فى كتاب فرح نامه .

وكان الحاج رمضان جليل القدر ذكى الفؤاد عالماً بالفلك له منزلة سامية بين رجال القصر بعد أن أحبه السلطان وقربه ؛ إذ كان هو الذى بشره بالملك مُذْ كان أميراً وعرف الجميع له ذلك فاتصل به الأمراء سراً ليفصح لهم عن حظهم المخبوء .

وقام فتيان الحرس إلى الموائد وكانوا جياعا عطاشاً وتخلف الغورى عند خزانة الكتب وقد استهوته المطالعة فقام إليه المهتار وقال : مالك لا تأكل يا بنى مع رفاقك أتشكو علة ؟ قال : كلا يا أبت ولكننى لا أنشط للطعام وأحس فتوراً فى

---

(١) السكباج: لحم عليه تابل فلفل وملح وزيت.

البدن وسائر الأطراف فإذا أكلت ثقات أجفانى فلا أقوى على السهر .

فشمر المهتار كمه عن سكرجة من الفضة بها شراب ساخن فصب فى قدح صغير بعض ذلك الشراب وقال له : باسم الله اشرب يا بنى فهو شراب سائغ ، فشرب الغورى ما فى القدح فانتعش و بدا نشاطه فاجتمع حول المهتار بقية الحراس يسألونه بعض ذلك الشراب فصب لهم فى الأقداح من السكرجة فشربوا وعاودهم نشاطهم وتفتحت أعينهم فقال : تلك يا أبنائى قهوة البن لا يعرفها أحد من أهل مصر قد حملها بعض اليمانيين من أهل الأزهر من بلاد اليمن وطبخوها سراً فى رواقهم ليستعينوا بها على السهر فى حلق الذكر ولا أزال أطبخها لكم سراً كلما حلت نوبتكم فى حراسة السلطان .

وأطال المهتار النظر فى وجه الغورى حتى استلفته فراح يسأله أن يحدثه عن المستقبل فأسر إليه كلمات نفذت إلى صميم فؤاده فأخذته نشوة السرور والزهو وعكف على المطالعة وقد رسخ فى نفسه أن سيكون يوماً سلطاناً على مصر .

ومر المهتار قبل خروجه بجان بلاط فمسح برأسه وأسر إليه بكلمات ثم انصرف .

وسمع الحراس ضجة فى الرواق الممتد إلى قاعتهم فوثبوا يستبقون إلى الباب وسيوفهم مشهرة بأيديهم فتقدم إليهم غلمان القصر يحملون الشموع فى الأتوار وعلى رأسهم ماماى و بهادور من الخاصكية ومن خلفهم الأمير الجليل يشبك بن مهدى الدوادار[1] ومعه أمير جاندار[2] وكاتب السر تقى الدين بن مزهر ومن خلفهم يمشى مقدم البرجية يحمل طائراً أزرق فى جناحه بطاقة .

وكان بالقلعة أبراج خصصت للحمام البطائق بها ألف وتسعمائة طائر فإذا سقط

(١) أكبر الأمراء العسكريين يشترك مع كاتب السر وأمير جاندار فى تقديم البريد إلى السلطان ويقدم إلى السلطان كافة المراسيم ليوقعها ويقوم عن السلطان بتبليغ الرسائل .

(٢) تشريفاتى وتحت إدارته رجال البريد وأبراج حمام الرسائل ويتسلم الزردخانة وبها يعتقل كبار الأمراء .

الطائر بالبطاقة على برج بالقلعة فلا يقطع البطاقة إلا السلطان بيده من غير واسطة. ولو كان السلطان على المائدة لتركها ليحل البطاقة فإذا كان نائما أيقظه الحراس الموكلون بخدمته ، ويقدم الطائر إلى السلطان كبار الموظفين الثلاثة مجتمعين وهم الدوادار وأمير جاندار وكاتب السر .

فلما رأى الفرسان الأربعة قدوم الأمراء والوزير علموا أن طائراً سقط بالبطاقة من أطراف المملكة فقبلوا الأرض للأمراء وأسرع أحدهم وهو شاهين غزالى إلى القاعة البيسرية ودنا من البرج العاجى حيث ينام مولاه ونقر بأنامله نقراً لطيفاً

فتنبه السلطان وقال : من هنالك؟ فقال: عبدكم شاهين غزالى يامولانا، فاستوى السلطان فى سريره وقال: ماذا حدث؟ فقال: سقط الطائر بالبطاقة والأمراء وكاتب السر بباب مولانا فقال : حسن! ناد الغلمان، فخرج شاهين إلى مقصورة فى الفناء ونقر الباب فخرج مملوكان من خاصة الخدم هما جاولى ورفرف وأسرعا إلى البرج العاجى فألبسا السلطان ثيابه وخرج يمشى بين خدمه وحراسه الأربعة حتى بلغ صدر الإيوان من القاعة البيسرية وأمر فأوقدت ثرياتها وأذن بدخول الأمراء فدخل الأمير يشبك ثم الأمير تمر ثم كاتب السر وقبلوا الأرض وخدموا ، ثم أذن للبراج فدخل يحمل الطائر الأزرق وفى جناحه البطاقة وقبل الأرض فتناول يشبك الطائر بيده وقدمه إلى السلطان الذى نزع البطاقة وناولها إلى كاتب السر وتنحى الأميران يشبك وتمر إلى الوراء فقرأ ابن مزهر البطاقة سراً للسلطان فلما استوعب ما فيها أطرق برأسه يفكر ثم أشار إلى الأميرين فتقدما إليه فقال لهما : هذه بطاقة نائبنا فى حلب يقول بأنه علم أن سلطان العثمانيين قد أعان شاه سوار ملك العراق بفرقتين من جنوده ، وأن بعض الكبراء بمصر ينقلون أسرار جيوشنا إلى الاستانة ويستترون تحت ثياب التجار ويحذرنا منهم ويطلب المبادرة بإرسال الجيوش قبل أن يتوغل شاه سوار فى سوريا الشمالية .

واتجه السلطان إلى الأمير يشبك يستطلع رأيه ، فقال : يا خوند[1] إنّ شاه سوار لا تعتد به لذاته وأنا كفيل لكم بسحق جنوده وحمله إلى بابكم ذليلا صاغراً ، ولكن العثمانيين أندادنا وسيكون لنا معهم شأن آخر . على أن خزائن الدولة وبيت المال خاوية وليت مولانا يفرض بعض الضرائب على المياسير من التجار فالناس بحمد الله فى رخاء ورغد ولديهم السلع تفيض بها القياسر والمخازن ولا يخلو دكان تاجر من أفخر القماش وأثمنه ، وتلك سفنهم تجوب بحار الهند واليمن و بلاد الروم ، فقال السلطان: هذا الذى أراه فإن الثراء والسعة قد غمرت أهل مصر فى أيامى حتى فاضت خزائنهم بالمال أما الأتراك والمماليك فليس لهم حظ من ذلك لأن همهم الجهاد والدفاع عن البلاد والتغرب فى أصقاع الأرض، وما مات منا سيد حتف أنفه ، ولا دفنت أشلاؤنا إلا فى ساحات الوغى وميادين القتال ، وقد كان هذا حالنا من عهد آبائنا الأولين الذين طهروا البلاد من طغمة الفرنسيين وأسروا ملكهم لويس التاسع ، ولولا سيوفنا ما نعمت البلاد بأمن الحياة وبحبوحة العيش ورغده .

وتحرك الأمير تمربلتمس الكلام فأذن له السلطان فقال :

والله يا خوند إن العلماء هم العقبة القائمة فى وجوهنا يستأنس الناس بقولهم فيفلتون من الطاعة فاذا رأى مولانا أن يجمع بنا العلماء نفاوضهم و يفاوضوننا قبل أن يعقد مجلس الدولة أمنا عاقبة الخلاف .

وكان السلطان يرنو بأنظاره إلى الوزير ابن مزهر فيراه مصغياً لاتبدو منه بادرة رضى ولا سخط ، وهو الرجل الذكى الفؤاد الخبير بأعباء الملك وأسراره ، وقد عرف السلطان فيه ذلك فمكنه من دخيلة نفسه واختصه بأسراره ، وكان إذا جد الجد خلا به دون الكبار من خاصته فكان نعم العون فى حل المشكلات .

---

(١) يا مولانا.

فأومأ إليه أن يتكلم فقال :

إن العلماء بمصر كجمهور الناس مخلصون لذات مولانا ولعرشه ولسلامة الأوطان، بل هم أشد إخلاصاً من كثير من طبقات الأمة ، وسيرى مولانا حسن بلائهم فى الدعوة إلى بذل المال لتسليح الجيش ، و إن الشعب ليتحفز لدخول الحرب بنفسه غير متوا كل ولا هياب . وقد شجعتم يا مولانا أبناء القاهرة على حب الجندية فخرج أبناء المدارس إلى الرحاب والميادين وتراشقوا بالسهام وحملوا السيوف وركبوا الخيل وأنا زعيم لمولانا بفرقة كاملة سابغة العدد من صميم المصريين يقوم الناس بنفقاتها حسبة لفريضة الجهاد لوجه الله . فابتسم الأمير يشبك وقال : أيها الوزير الكريم لقد أذكرتنى ما كنت ناسياً ، فإن ولدك حيدراً قد أصبح بطلا مجربا وفارساً صنديداً، لقد رأيته يا خوند من أيام فى ميدان القبق على صهوة أدهم يطوى جنبات الميدان فى بسالة وبأس فأصاب حلقة القبق مرتين فأثار دهشتى و إعجابى ، بورك لك فيه أيها الوزير . فقال السلطان للأمير يشبك : إنك لم تحدثنى عنه يوم أثنيت على المملوكين جان بلاط والغورى . فقال يشبك : إنه حر طليق لا سلطان لى عليه وقد لبث فى ضيافة مماليكى يوما واحداً ثم اعتذر إليهم وعاد إلى دار أبيه وقد تعلقت به سائر القلوب .

وأخذ السلطان فى حديث جديد فقال :

ما ظنكم بالكبراء الذين يمدون العثمانيين بأخبار دولتنا وأسرار جيشنا ومن هم ؟ فقال يشبك : إن ابن العينى قد أحاط قصره بجمهور من أمراء جده السلطان خشقدم حتى أصبح حى منشاة المهرانى عش الدسائس و بؤرة المكائد . فقال السلطان : إن تقارير رجالنا تدل على أنه كف عن صلاته بالخشقدمية بعد أن صادرنا أمواله ، وقد رأى بعينه العبرة البالغة التى نزلت بصديقه خير بك نزيل سجون الإسكندرية الآن . ونكس قايتباى هامته العظيمة ثم رفعها فى ابتسامة اعتادها جلساؤه وصفق

بإحدى راحتيه على الأخرى فبادر إليه مملوكه شاهين غزالى ووقف يتلقف ما يأمره به فقال : احضروا مثقالا الحبشي . فطار شاهين من فوره يستحضره .

والتفت السلطان إلى أهل المجلس وقال : ألا ترون معى معالجة القوم بسلاح الخديعة؟ فليخرج شاهين غزالى بالغد فى زنط عتيق كالمغضوب عليهم وليدفعه أمامه مثقال الحبشى إلى سوق الرقيق بخان الخليلى حيث يباع وليدع الناس يخوضون الحديث عن غضبى ونقمتى على أن تروج بينهم قصة خيانة اقترفها شاهين لعل الخصوم يقعون فى الشرك فيقدمون على شرائه ويحاولون استخدامه فى مصالحهم ، ولن أجد مثل شاهين بين غلمان الشراكسة فى دهائه ومرونة طباعه،وله من جماله ما يفتح له طريقه إلى مخادع الجوارى وخواتين الأمراء حيث تستباح الأسرار فى ظل القبل .

فتلفت الأمراء والوزير معجبين بذلك الخاطر الذى مر بالسلطان حتى فتق له عن تلك الحيلة . وحضر شاهين ومعه مثقال وقبلا الأرض لمولاهما فغمز السلطان الأمير يشبك فقام .

وأشار إلى الرجلين فخرجا فى أثره .

ومد الوزير ابن مزهر عنقه إلى ناحيه السلطان فأذن له بالكلام فقال :

إن هذا الخاطر العظيم له نتائجه القريبة ، وقد شجعنى على ذكر ما لم أفاتح به مولانا إلى الآن أن بالمدينة طائفة من الناس يطاردها الشرطة وينفر منها الناس وهم طائفة الزعر ، وكنت من الناقمين عليهم لولا صهرى سيدى عبد العزيز العباسى ابن أخى أمير المؤمنين فانه أخذ على عاتقه هدايتهم بالعهود والمواثيق وبدأ بزعيمهم أحمد الدنف طريد شرطة النهار وعسس الليل حتى أصبحوا من أحسن الناس خلقاً واستقامة ، وإن من طباعهم الفروسية وقد نبغوا فى فنون الحرب ورماية البندق

يتلهفون على كلمة من مولانا لتجتمع سراياهم تحت راية زعيمهم فى أكمل عتاد للحرب .

وزعيمهم الدنف رجل الدهاء والحيلة لا تخفى عليه أسرار القاهرة بقصورها ومخادعها وأسواقها ، وهو الذى اختار لولدى حيدر حياة الميادين وفنون الحرب حتى خرج به فارساً خبيراً كما ذكر سيدى الأمير يشبك واختار معه أبناء المصريين من رواد معاهد العلم والموظفين ودربهم على فنون القتال ، فهم اليوم أول كتيبة من المصريين تحمل سيوفها وتمشى وراء سلطانها إلى القتال .

فقال السلطان : لقد شوقتنا إلى ذلك الرجل فمتى أرى أحمد الدنف ؟ فقال الوزير : حتى يقوم بعمل من أعمال البطولة يرفعه فى عين مولانا ويستأهل به شرف المثول .

وفى تلك اللحظة عاد الأمير يشبك وحده بعد أن أوصى شاهيناً ومثقالاً بما أمره به مولاه . فقال له السلطان : يعقد مجلسنا بكرة النهار فى الحوش فادع القضاة والعلماء وأهل المجلس . ثم تحرك قائماً فوقف الأمراء وقبلوا الأرض وانصرفوا ، وكان الفجر قد بزغ ، فعاد قايتباى إلى سريره بالبرج العاجى تشدو له طيور الهزار والبلابل من أعماق البستان .

الفصل الثامن

دهاء الدنف

كان الأمير الكبير جان بك الفقيه أكبر الأمراء الخشقدمية أتباع السلطان الظاهر خشقدم، وهم خصوم لقايتباى . وكان قصره فى منشأة المهرانى (جاردن ستى الآن) يطل على النيل، وفى ذلك الحى كان قصر الأمير شهاب الدين أحمد بن العينى حفيد السلطان خشقدم بعضه كان يشرف على النيل و بقيته تشرف على جزيرة الروضة، وبجانبه قصر أخته خوند جلبان . وكانت تلك القصور تمتد من الشمال إلى الجنوب وتترامى بساتينها الغناء فتملأ فراغ الحى الكبير .

وكان الأمير جان بك حريصاً على تأنقه يشد وسطه بمناطق الذهب ويتختم بالياقوت والزمرد مولعاً بالطيب من المسك والعود والبخور ، ترفاً فى مأكله ومشربه وملبسه ، يجلس غالباً بين الرياحين والأزهار . وكان قوى الخلق يملك نفسه عند الغضب رقيق المزاج يميل إلى الطرب والغناء وله نظم باللغة التركية .

وقد جمع فى بستانه أنواعاً من الورد والياسمين والبان والزنبق والسوسن وجعل فى وسطه بركة ماء وحولها مجالس السرور ومناظر تطل على البستان ، واتخذ لنفسه دكة عظيمة مطعمة بالعاج والأبنوس وكساها بالمخمل والأنطاع اللطيفة لجلوسه بين أنصاره وحاشيته حيث تظله فروع الياسمين وتقف حوله المماليك الحسان بأيديهم المذابّ وتعلق بالأشجار أقفاص الطيور المغردة بين مطوق وهزار وقمارى وقد أطلق بين الأشجار دجاج الحبش والبط الصينى وأنواع الحجل .

وبالقصر إسطبل عامر بخيوله المختارة من كرائم الجياد العربية .

وكان قايتباى فى صدر حكمه قد تناول خصومه من الأمراء الخشقدمية بالنفى والتشريد والسجن والمصادرة ، فصادر ابن العينى فى كثير من أمواله وتركه تحت مراقبة شرطته ، ونفى خير بك بن حديد الذى تولى الملك بمصر ليلة واحدة ثم تغلب عليه قايتباى وفر الباقون فخلا الجو للأمير جان بك وأطلق لمطامعه العنان واستعان بالمنجمين على استطلاع المستقبل — وهو عمل شائع فى تلك العصور — واتخذ أعوانه من رفقائه وأكبرهم الأمير برد بك والأمير إينال الحكيم وملك التجار أحمد بن كاوان وأولئك كانوا يتداولون سراً مع تجار العثمانيين الذين كانوا يخدمون مصالح دولتهم فجعلوا بؤرة دسائسهم خان الخليلى .

وكان أكثر الأعوان نشاطاً الأمير إينال الحكيم ؛ فهو دائم التنقل بين القاهرة والإسكندرية والقسطنطينية ، وقد اتخذ له مقراً دائماً بالإسكندرية التى فيها سجن إخوانه الأمراء ، فكان يفاوض السجانين ويغدق عليهم أمواله ليمكنوه من مخالطة إخوانه . وكان فى سفره إلى الاستانة يطلع العثمانيين على عورات الجيش المصرى ويحمل إليهم أسماء الولاة والنواب ليستميلوهم بالمال وبالوعود . وكان ملك التجار له ببحر الروم المراكب العديدة فاتخذها الأمير إينال مطاياه إلى الآستانة . وكان بهاء الدين بن ملك التجار يمشى فى ركابهم فى سائر أسفار إلى الآستانة فيكافؤونه بالمال والطرف النادرة والجوارى الحسان .

وكان ملك التجار يسكن قصراً يجاور قصر الأمير جان بك ، وقد التحمت عرائش الكروم وتصافح سعف النخيل من بساتين القصرين ، وكان بكل بستان درج من رخام ينتهى بنفق ممتد بين أبهاء القصرين وقد أسبلوا على معابر النفقين شليارات كباراً غرسوا بها زهوراً منوعة فلا يفطن إليه أحد .

وأقام ملك التجار فى رحبة بداخل القصر بيتاً للضيوف به المخادع والأبهاء

وجعله من طبقتين وأعد الطبقة العليا لكرام النزلاء وفيها جناح صغير لقيم القصر وأهله ليشرف على شؤون الضيوف .

وترامى إلى ملك التجار أن بعض سفنه قد أرست بثغر الإسكندرية وفيها جماعة من الأمراء العثمانيين فى زى تجار المغاربة ومعهم حاشية كبيرة ، وجاء فى جملتهم ولده بهاء الدين ومعه جارية إفرنجية ذات حسن باهر ، فأعد بيت الضيوف لاستقبالهم ومد لهم سماطاً فاخراً وجعل لحاشيتهم ولكل عابر سبيل سماطاً آخر ، و بذل من الخيرات وأنواع البر ما أطلق ألسنة الناس حمداً وثناء ، وقد كان يرجو بذلك أن يصرف عن ضيوفه أنظار الأمير يشبك بن حيدر والى القاهرة وأعوانه من الجواسيس والشرطة ، ودخل ابنه بهاء الدين ليلاً وأمامه الغلمان يحملون المشاعل والشموع فى الفوانيس و بينهم محفة يحملها بغلان صنعت من المخمل الأحمر المرقوم بالذهب فنزلت منها جارية هيفاء تمشى فى مرط من حرير أخضر نسج بخيوط الذهب ، وقد تحجبت بنقاب من لانس ثمين ، وكان مرطها مسبلاً فوق خفيها ، وجاء من خلفها جاريتان صغيرتان تحملان بقج الثياب فلم تسلم على أحد ، وجاء على أعقابهن غلمان ملك التجار يسوقون عشرين بغلاً تحمل غرائر السلع الافرنجية وصناديق بها أوان من البلّور وأثواب المخمل وشقق الحرير والأطلس . واستقبل ملك التجار أضياف الآستانة مرحباً و بعد أن نالوا حظهم من الطعام صعدوا إلى الطبقة الثانية من البيت وكانوا متعبين من مشاق السفر وكثرة التنقل فتوسدوا المضاجع .

فلما كان نصف الليل تحرك رجل عابر سبيل كان نائماً فى صحن البيت على حصير وصاح وجعل يلطم وجهه و يقول : يا ضيعة مالى ! يا ضيعة مالى ! فقام من كان حوله من حاشية الضيوف وسألوه عن حاله فازداد الرجل صياحاً و بكاء حتى تنبه له ضيوف الطبقة الثانية فنزلوا مذعورين وقال له كبيرهم : و يلك ما شأنك وما الذى

دهاك ومن سرقك وما سرق لك ؟ فقال : يا سيدى أنا رجل من أهل طرا يقال لى أبو كريت الحاوى أمسى علىّ الليل فنمت عندكم وأكلت من خيركم وسع الله عليكم ولى عشرة أيام أجمع فى سلتى هذه من نواحى طرا والحى الكبير والجبل كل غريبة من الحيات والأفاعى مالا يقدر عليه قط حاو غيرى وقد انفتحت الساعة سلتى وخرجت الأفاعى وأنا نائم لم أشعر بها . فقال له الأمير مذعوراً : إيش تقول ؟ فقال الرجل : إى والله يا للنجدة يا للنجدة ! فصاح الأمير به : يا عدو الله أهلكتنا قاتلك الله .

وخرج الضيوف جميعاً إلى البستان وتسلقوا على قوائم الأعمدة وأخذ الحاوى يحسس و بيده قضيب اتخذه للحيات والثعابين وقال : لقد قبضت الرقطاء ، وفتح السلة ووضع فيها ثم قال: قبضت أم قرنين، وجعل يفتح السلة و يضع و يشير بأسماء الثعابين والحيات، والناس جميعا بباب البيت من الخارج مذعورون . فقال الرجل: الآن عودوا إلى مضاجعكم ولا تخشوا شيئا إذ لم يبق إلا الحية البتراء وأم رأسين! فقال الأمير : عليك لعنة الله يا عدو الله والله لن ندخل البيت إلا فى الصبح . وصاحوا بقيم القصر فنزل من طبقته و بيده شمعة وعلم بالخبر فلما رآه الرجل الحاوى قال : لا بأس عليك يا سيدى ولعلك توصى عيالك وخدمك بالحية البتراء وأم رأسين فلا يقتلوها إن كانتا قد تسربتا إلى مخدعك فإنى جاد فى ردهما إلى السلة .

فصاح قيم القصر مذعوراً وقال : إن الطلاق يلزمنى ثلاثا إن بت أنا أو أحد من أهلى فى الدار ، وخلا الجو للرجل فصعد إلى الطبقة العليا من البيت و بيده سلته ومرق من فجوة فيها إلى سطح فسيح به برج للطير .

وكان به زوجان فأخذهما الرجل وأخرج من السلة زوجين فى مثل لونهما فوضعهما مكانهما وأسرع كوميض البرق إلى مخادع الطبقة الثانية وتحسس ثياب

النزلاء فرأى بينها ثوبين من مخمل بطراز عليهما رنك الأمير أحمد بن هرسك من كبار أمراء الجيش العثمانى .

وخرج الرجل وجعل ينادى : لقيت البتراء وضاعت على أم رأسين ، وجعل يمشى فى البستان و بيده السلة وفيها الحمام يختاج والناس يجعلونه الأفاعى والحيات والرجل يتباكى ويقول : ضيعتم على أم رأسين حتى غاب تحت أستار الظلام فازداد الناس تشبثاً بالبقاء خارج البيت طول الليل خوفاً من أم رأسين وكان ليلا بارداً .

ودخل القيم إلى سيده بالقصر فقام ملك التجار من نومه وعلم بالخبر فأمر أن تفتح بعض المخادع ليلجأ إليها ضيوفه إلى الصباح وأوصى بإحضار حيوان القنفذ فإنه يقتل الأفاعى . وجاء الصبح فتقدم الغلمان إلى بيت الضيوف فأدخلوا العصى والسعف تحت البسط والطنافس فلم يعثروا بشىء وخاف رب الدار من ألاعيب أعدائه وحيلهم فسارع إلى برج الحمام فرآه على حاله وتفقد الضيوف متاعهم فلم يضع لهم شىء .

وكان ملك التجار قد بنى برجاً لحمام البطائق فى مكان خفى فوق بيت الضيوف يشرف عليه قيم القصر ، وجعل التراسل بالبطائق على أجنحة الطير بين القاهرة والإسكندرية أسرع الوسائل لنقل الأخبار بين الأمير جان بك وأعوانه .

وكان قد قدم عليه الطير بالبطاقة وفيها بيان عن الأمير العثمانى أحمد بن هرسك الذى كان يجوب بحر الروم فى شينى حربى فالتقى بمركب لملك قبرس فيها ابنته وحاشيتها فأسرها ونقلها إلى شينيه وأغرق مركبها ثم مرت به مركب تحمل الراية المصرية الصفراء وهى قادمة من ثغر البندقية بالسلع الثمينة وفيها بهاء الدين بن ملك التجار فانتقل الأمير ابن هرسك بمن معه إلى المركب المصرية وقدم الأسيرة

صفية مختارة إلى بها الدين الذى عرفه الناس كلفاً بالحسان من النساء والغوانى من الجوارى .

وهبطت على ملك التجار للمرة الثانية طيور البطائق يوم قدوم وفد الآستانة وجاء بها : أن ملك قبرس أوفد رسله إلى الإسكندرية ليتعاون تجار الإفرنج من سائر الملل ويشتدوا فى البحث عن بنت الملك فى كافة المدن والثغور .

وكان بثغر الإسكندرية تجار من جميع ممالك أوربا يمثلون ثمانية وعشرين دولة مسيحية منها جنوه والبندقية وسراجوسه وپيزا وبروڤنس وقطالونيا ، وكان لكل جماعة منهم فندق خاص يسكنونه ويخزنون به بضائعهم ، وكانت البنادقة أقوى هيئة تجارية بالثغر وعلى رأس جاليتهم قنصل (دائرة المعارف الإسلامية).

وفى ذات يوم قدم إلى الثغر غراب بندقى فدخل إلى المرفأ الشرقى المعد للمراكب التجارية كما كان المرفأ الغربى مرسى الشوانى الحربية ، ونزل من الغراب تاجر بندقى ومن ورائه الحمالون ينقلون صناديق البلّور وغرائر المخمل والثياب الفاخرة فطاف بكبار التجار من المصريين والمغاربة فى حوانيتهم وأهدى إليهم نماذج مما حمل . واستقر الغراب البندقى بالمرفأ الشرقى أياما والناس يروحون إليه للفرجة على زينته وطرافته ، وانتشر أعيان الإفرنج فى أرجاء الثغر وسرحوا إخوانهم إلى القاهرة يفتشون عن الأميرة الأسيرة فأعياهم البحث والتنقيب وبذلوا أموالا طائلة ولكن بغير جدوى ، وسرح ملك التجار طائرين بالبطائق إلى الأمير إينال بالإسكندرية يذكر له وصول الأمير أحمد بن هرسك القائد العثمانى الكبير الذى نزل ضيفاً عليه مع حاشيته وقد حمل اليهم من الآستانة صناديق ملئت ذهبا كما أهدى إلى ولده بهاء الدين جارية من بنات الإفرنج أسرها من بحر الروم فتبين أنها ابنة ملك قبرس ، وقد اجتمع الأمير ابن هرسك بالأمير جان بك وتفاوضا فى شؤون الجيش المصرى الذى يتجهز للسفر للحرب مع شاه سوار وقد

أعددنا مكاناً عند باب زويلة يستعرض فيه جيوش مصر وهو فى زى تجار المغاربة ، كما تجهزنا للثورة بالقاهرة بعد سفر الجيش بعشرة أيام فاقدم علينا بمن معك من المماليك الظاهرية .

وما كان الرجل الحاوى الذى نزل بيت الضيافة من قصر ملك التجار إلا الداهية العظيم أحمد الدنف ؛ فإنه كان يتردد على قصر الأمير جان بك وقصر ملك التجار ومعه تلميذه على الزيبق فاندس يوماً فى بيت الضيوف فى زى شيخ ضعيف عابر سبيل فسمع قيم القصر يحدث ملك التجار همساً باللغة التركية التى يجيدها ويقول بأن الطير قد سقط اليوم من الإسكندرية بالبطاقة فقال له أحضرها سريعاً وتحقق الدنف أن لديهم برجاً لطيور البطائق فوق بيت الضيوف فخرج ثم عاد إليهم فى زى حاو وحمل معه سلة فيها عدد من الطير الأزرق البطائقى كان يعده من قبل فى برج بداره ودخل فى غمار الناس وتناول من السماط طعامه ونام ثم قام نصف الليل يصيح حتى جازت حيلته على الجميع فخلا له الطريق إلى البرج وعاد إلى داره مسروراً بنجاح فعلته .

وجلس فى الصباح فى بستان داره التى شادها بين أنقاض مناظر الكبش القديمة بجانب جامع ابن طولون ومن حوله رجال الزعر على حصر بسطت لهم فى أرض البستان ، وكان للدار مزاغل فوق سطحها تخفى برجاً لطيور البطائق وكانت مخادع الدار تفضى إلى البستان من زلاقات منخفضة فبينما يرى البستان عامراً برجال الزعر وهم يتقارعون بالسيوف ويمارسون فنون الحرب تراهم قد اختفوا فى المزالق منحدرين إلى مخادع الدار فلا يراهم ولا يشعر بهم أحد .

وكانت بين يدى الدنف رقعة الشطرنج يلاعب تلميذه على الزيبق فسمع حفيف جناح الطائر يرف فوق البرج فطار تلميذه إلى البرج وحمل الطائر إلى رئيسه وكان يحمل بطاقة نقلها ملك التجار من ساعة إلى الأمير إينال بالإسكندرية فابتسم

الداهية الكبير وقد ظفر بوثيقة تسوق إلى المشنقة أعداء الدولة أجمعين، وأوفد ملك التجار ولده بهاء الدين إلى الإسكندرية ومعه كتب إلى تجار الكارم بالثغر يوصيهم بابنه أن يقرضوه ما يحتاج إليه وحمله زوجاً من طيور البطائق مما ترك عنده أحمد الدنف ليراسله به الأمير إينال فيما يجد من الأمور .

وكان الملك المنصور عثمان بن السلطان الظاهر جقمق يقيم بثغر الإسكندرية مشمولاً برعاية السلطان وكفالة صهره الأمير أزبك، غير أن مماليك أبيه كانوا يتوقون للثورة ويبحثون عن أنصار لهم يشاطرونهم الخروج على السلطان والعمل على خلعه ورد العرش إلى مولاهم الملك المنصور عثمان ، وكان ذلك بغير اطلاع الملك المنصور ولا رضاه .

وكان الأمير إينال يتردد عليهم ويزين لهم الثورة ويمنيهم بإقبال الدولة وعودة مولاهم إلى الملك ولكنه كان يعمل فى الباطن للأمير جان بك .

وجاء ابن ملك التجار إلى الإسكندرية فسلم الطائرين إلى الأمير إينال وبلغه ما وصاه به أبوه .

وكان التجار البنادقة قد يئسوا من ابنة ملك قبرس ونفدت وسائلهم وعيل صبرهم فخرج كبيرهم فى زيه الإفرنجى وطاف بالتجار المصريين يدعوهم إلى سماط فاخر أعد لهم فى بهو الغراب الكبير بالمرفأ الشرقى ، فاستجاب لدعوته كبار التجار وهم يعقوب بن عليبة وعلى الكيزانى وعلى التمراوى وكثيرون غيرهم وكان سماطاً فاخراً قدمت فيه الخمور المعتقة فى أقداح الذهب وعزفت فتيات البندقية على الطنابير وتمايلت أسرابهن يرقصن على إيقاع الموسيقى .

وكان الغراب قد أخذ يتهادى فى أرجاء المرفأ يمنة ويسرة والتجار لاهون بين الراح وفتنة الملاح فاعتدل فى عرض البحر وأطلق لنفسه العنان .

وأوقدت الشموع فى أتوار من فضة وأسبلت الستور وسدت النوافذ وبالغ

الإفرنج فى محاسنة ضيوفهم حتى أبعدوا عن مرابط السفن المصرية ، فتنبه التجار للحيلة التى أخذوا بها ولكن بعد فوات الفرصة . وخرج عليهم من جوف السفينة جنود مسلحون فأمسكوا بهم ووضعوا الأغلال فى أعناقهم وسألوهم عن الأميرة ماريا بنت ملك قبرس ، فلما عجزوا عن الإدلاء بمقرها زجوا بهم فى خزانة مظلمة فى أعماق الغراب .

وسرح الأمير إينال طائرين بالبطائق إلى ملك التجار بسط له تدبيره مع مماليك الملك المنصور ، وكيف أعد السلاح لهم والسفن لتحملهم أرسالاً إلى مصر حتى لا يفطن بهم أحد بحيث يكونون جميعاً بقصر الأمير جان بك قبل سفر الجيش بيومين أو ثلاثة ، ثم أطلعه على حيلة تجار البندقية الذين أسروا بها تجار الثغر ليكونوا رهائن بأيديهم حتى تعود ابنة ملك قبرس إلى قومها .

وسقط الطير بكل تلك الأحداث إلى أحمد الدنف ، فجمع البطائق إلى بعضها وحملها إلى الوزير كاتب السر .

وشاع فى القاهرة ما صنعه أهل البندقية بتجار الثغر ، فهاج الناس وتظاهروا تحت القلعة وطالبوا الحكومة بالعمل على فك الرهائن والثأر لهم من الإفرنج ، وبلغ الخبر مسامع ملك التجار فإن أميرة قبرس نزيلة قصره قد حملها بالأمس ولده بهاء الدين ، ولن يعجز شياطين الشرطة عن اكتشاف مقرها وفى ذلك غضب السلطان وبطشه ، فرأى من الحكمة نقلها إلى جوسق جميل بجزيرة الروضة له بستان منسق وأسوار عالية ، وفى ظلام الليل أخرجها فى محفة على عاتق الغلمان حتى بلغوا بها دار النحاس عند جسر الملك الصالح ، فخرج عليهم من عرض الطريق فارس ملثم على فرس أدهم وبيده سيف مشهر وحمل على الغلمان ففروا هاربين ، فرفع سجف المحفة واحتمل الصبية وأردفها خلفه وانطلق يسابق الريح حتى بلغ خرائب الكبش فنفخ فى بوقه فخرج إليه أربعة رجال يحملون المشاعل فأناروا له الطريق حتى

ترجل وحمل الأميرة إلى مخدع به سرير وملاحف من الحرير وحوله شموع موقدة، فلما أجلسها تعثرت فى مرطها واختلجت عيناها من خلف قناعها خوفاً ورعباً، فأزاح لثامه وجمع أذيال قبائه فى منطقته فتكشف لها ثوبه الموشى وحمائل سيفه المذهبة، ورأت وجهاً مشرق الحسن ليس لها بمثله عهد، وأقبل يحدثها بلغة قومها التى يجيدها فى عذوبة منطق ورقة لفظ وقال :

لا تخافى ولا تجزعى أيتها الأميرة واصفحى عن عمل قمت به لأنجو بك من أيدى آسريك الأنذال .

فطابت نفساً وتكشف روعها[1] وأسفرت عن طرفها الساحر وغرتها الفاتنة، واستحال رعبها سكينة وسخطها رضى، ولما ملأت ناظريها منه تكلمت بلسان عربى فصيح خلى من عجمة الإفرنج وقالت :

من أنت يا سيدى وماذا تبغى منى ؟ كأنك أحد أولئك السادة الذين يرعون حرمة الغريب ويحفظون ذوات الأحساب الكريمة من هوان الأسر، لست أخشاك فقد رأيت لك أشباها ونظراء ندعوهم حماة الأعراض يحملون سيوفهم للذود عنا معشر النساء .

فدهش مما سمع وقال : أراك تحسنين العربية كأهلها فمن أين لك هذا ؟

فتندت عيناها بالدموع وقالت :

أنا ماريا ابنة ملك قبرس صديق سلطانكم، وإنى و بعض بنات قومى نجيد لغة العرب التى شاعت فينا منذ خمسين عاما من عهد أن فتح سلطانكم الأشرف برسباى جزيرتنا وأسر جدى الملك جوان عام ١٤٢٥ م وحمل إلى القاهرة خوذته العظيمة دليلا خالداً للنصر علينا .

ولاذت بالصمت قليلا ثم قالت : أرجو ألا أسام عيش الرق بينكم فما أنا من بنات العامة .

---

(١) الروع : الفزع .

فأجابها فى لهجة حازمة مؤكدة :

بل أنت فى أمن وسلام ولك ذمة الله وذمة رسول الله نبى المسلمين فلن يمسك سوء وستقضين الليلة بهذا المخدع تحت سمعى و بصرى ، فإذا جاء الصبح حملتك إلى قصر مولانا السلطان فيصونك حجابه إلى يوم تعودين إلى أهلك بسلام .

فسرى عنها و بدا ثغرها الجميل وقالت : وحق المسيح ما رأيت سيداً قبلك فى مثل مكارمك ورقة حديثك ، فمن أنت صانك الله كما جنبتنى ذل الأسر وهوانه ؟

قال : أنا حيدر بن الوزير تقى الدين بن مزهر كاتب سر السلطان .

قالت : سيد كريم صنو بيت جليل .

وخلت بنفسها تفكر فى مستقبلها القريب وقالت :

ألا ليت بمصر ديراً للعذارى أسكنه إلى أن يأذن الله بعودتى إلى قومى، وإن أشد ما أخشاه الليلة أن يتعقبنى الذين انتزعتنى من أيديهم فينالك المكروه من أجلى . فقال : لتنامى أيتها الأميرة بأوفر أمن وسلام ، فبالباب مائة ترابط حولك فى سلاحها ، و إنى أقص عليك نبذة من شؤوننا تضاعف السكينة حولك ، فقد عرف ملوكنا السابقون بصيانة النساء وحماية أعراضهن من كل سوء أو عبث ، فأقاموا من أجلهن رباطاً يشبه من بعض الوجوه دير العذارى ، فكان أول رباط بمصر الذى شيدته ابنة السلطان الظاهر بيبرس من قرنين حجبت فيه المرأة المطلقة والتى مات عنها زوجها أو غاب فى سفر طويل ،وهو إلى الآن عامر بسكانه لا يسمح للرجال بدخوله ، ونظامه غاية فى الضبط وشدة الاحتراز ، والنفقة عليه وافرة سابغة .

فقالت : أليس لديكم دير للعذارى من بنات دينى ؟ قال : نعم ياسيدتى فهناك بالجيزة دير ناهيا فى أطيب موقع عامر برهبانه وسكانه وله فى النيل أجمل منظر حين تحيط به المياه من جميع جهاته ، فاذا انحسر الماء عنه رأيت مرجاً أخضر كله طيب وزهر وخليجاً لطيفاً ينساب بين واديه .

فقالت : هذا الذى أشتهيه من ضيافتكم يا سيدى ضاعف الله لك الأجر على حسن صنيعك . فوقف يودعها وقال : موعدنا الصبح وخرج .

فلما جاء الصبح ناداها من وراء الباب : أى الجنائب أحب إليك ؟ قالت : إنى أشتهى فرساً من كرائم خيلكم .

فلما خرجت كان بالباب فرس شقراء فى ضمور المها ولفتاتها ؛ فوثبت عليها وأمسكت بعنانها كأحسن الفوارس دربة وشجاعة ولحق بها حيدر على الأدهم ومن ورائه أسامة فكان يلاحقها كلما خبت بالفرس خشية جموحها ، وأعجبه سرعة تنقلها بين الربى والأكم حتى بلغوا الدير ، فدق أسامة الباب فخرجت عليهم راهبة فى مسوحها ومن ورائها طائفة من العذارى فتقدم منها حيدر يحدثها ويشير إلى الأميرة فرحبن بها تقديراً لوالدها الملك .

وأرادت الأميرة أن تودع حيدراً فأحدقت به تتشوفه قبل رحيله فتولتها نشوة لطيفة لا عهد لها بها واهتزت يمينها وهى تصافح يده ثم توارت خلف جدران الدير . فوقف الفتى بالباب بعد مغيبها وقال :

فديت من مر بنا مسرعاً ... يسعى إلى الدير بأسفاره
خدمت أهل الدير من أجله ... حتى كأنى بعض أحباره
حيرنى تفتير أجفانه ... وحل عقدى عقد زناره

الفصل التاسع

بركة الفيل

نزل حيدر ذات يوم من أيام الصيف ضيفاً على صديقه جان بلاط ورفاقه فرسان الحرس الخاص بقصر السلطان ثم عاد فى الغروب فمر بحى بركة الفيل وكان البدر فى ليل تمامه ، فراقه التنزه حول البركة كأهل الستر الذين كانوا يتفرجون بالليل على مطارفها و يستجلون مغانيها وقصورها ورؤية ماء النيل وهو يتسرب إليها من القنطرة التى تحت الجسر الأعظم أو الصليبة المعروفة بشارع مراسينا، وكانت مقراً لسكنى الملوك السابقين وكبار الأمراء ، فكانوا إذا جن الليل أسرجوا القناديل والشموع ونشروا الأنوار فى سائر الأرجاء .

وكان للسلطان قصر شاهق يقف ببابه الأوجاقية ، وهم فرسان الحرس الخاص على خيولهم ، ومن فوق رؤوسهم الكوافى الزركش على هيئة الطاسات ، فإذا انصرفوا إلى الراحة حملت إليهم زبادى من الصينى بها شراب المزر وهو نبيذ الحنطة؛ و إلى جانبه قصر الأمير يشبك الدوادار، وهو أكبر الأمراء صاحب الموكب الكبير الذى يحاكى موكب السلطان، فإذا ركب رفعت فوق رأسه العصائب وهى الرايات ونادى من حوله الشاويشية، وقد ضرب على بابه رنك وظيفته أى العلامة التى يتخذها ، وهى دواة ومقلمة ، وكانت على شابورة بابه طوارق حربية مدهونة كبقية أبواب الأمراء كما كان ببابه دكة يجلس عليها نقباء جنوده و إلى جانبهم رجال النوبة يحملون ثلاثة أحمال من الطبل وأربعة أنفرة فيدقون بها على الباب خمس مرات فى اليوم والليلة ، و بظاهر الباب حرس الأمير عليهم الطراطير المذهبة

ومن فوقها العمائم من القطن لونها أحمر وعلى وجوههم الكنابيش وهى أقنعة من قماش رقيق توضع فوق الأنف ، وكان كبيرهم من الأمراء يحمل فوق رأسه كلوتة وهى قلنسوة من الزركش بكلاليب من ذهب عليها الشاش المنسوج بالذهب والموصول بطراز السلطان وعليه فرجية دائرها ورأس كميها تراكيب زركش ، فلما رآه حيدر توارى منه بطرف إزاره حتى لا يفطن إليه .

وكان إلى جانب ذلك قصر الأمير أخور المشرف على خيل السلطان وكان رنكه نعلة الفرس ، ثم يليه قصر السلاح دار وهو الأمير على الحرس الخاص وكان رنكه القوس .

وكان رنك كل أمير يصنع دهاناً على ألوان مختلفة كما يختار فيضعها على أبواب بيوته ومطابخه وشون غلاله ومراكبه وقماش خيوله وعلى سيوفه وأقواسه .

وكانت سائر القصور مبنية من الحجر الأسود والحجر الأصفر وجدرانها مزينة من الداخل بالرخام والفصوص المذهبة المشجرة بالصدف وسقفها مذهبة وأرضها فرشت بالمرمر الجميل .

ومر بحيدر رجل على اكديش عال[1] عليه ثوب بكم قصير من سمور كزى صغار الأمراء يمشى إلى جانبه رجل يفسح له الطريق فقيل إنه شلبى[2] السلطان .

ودنا حيدر من ماء البركة فراعه كثرة الزواريق وتنوعها وجمال العشاريات ذوات المظال المخمل والساريات الجميلة ، وكان الناس يعبرون البركة فى الزوارق فدنا من أحدها وكان مربوطاً بالشط وإلى جانبه رجل ملاح فى بشت أزرق قصير إلى ركبتيه، فدعاه ليعبر به وناوله بضعة دراهم، فهش له الرجل وقال: إنه ينتظر مهتار[3] قصر خوند سيدى شعبان . وبعد قليل أقبل عليهما رجل قصير القامة

(١) حصان غير أصيل يستخدم لحمل الأثقال . (٢) حلاق .
(٣) رئيس فرع من فروع خدمة القصر .

طويل اللحية يهرول فى مشيته ، فوقف له الملاح فى أدب وهمس فى أذن حيدر بأنه سيدى شعبان المهتار ، فتظاهر حيدر بأسباب الحشمة ودنا منه المهتار يملأ منه ناظريه و يفحص ثيابه وقال: لعلك يا بنى غريب عن هذه الديار ؟ فقال نعم يا أبت . فقال: إنى أرى عمامة موصلية وثياباً لأبناء الوزراء . فابتسم حيدر وقال : هو كما تقول يا سيدى فأنا من الموصل قدمت لأرى مشاهد القاهرة ومجاليها وأحظى برؤية أمرائها وشهود مواكبها ومزاراتها . فخدم المهتار حتى مس بأصابعه الأرض وقال: على الرحب والسعة يا خير قادم فأنت الليلة ضيفى ، وصاح فى الملاح فحل القارب ودعا حيدراً للركوب وهرول أمامه يبسط له السجادة وجعل الملاح ينشر المظلة ويوقد القناديل ، فانطلق القارب يسبح بهم فى ذلك المحيط الحافل بالزوارق والعشاريات ذوات الأمراس[1] المجدولة من الحرير الأصفر والأحمر والمظال الأطلس وتعاليق الحرير التى تحمل عليها القناديل والثريات الملونة ، واعتدل المهتار فى جلسته وكان ثرثاراً فقال لحيدر : ما اسمك الكريم ياسيدى ؟ قال : اسمى بدر الدين المارديني ، فخدم المهتار وبالغ فى الانحناء والترحيب حتى بلغوا عشارياً غاية فى الحسن وجمال الزينة ، ففى جانبيه صفائح من النحاس الأصفر ومجلسه من الأبنوس المطعم بالعاج ومن فوقه قبة قائمة على أعمدة من رقاق الخشب المصبوغ بألوان الذهب ومن حول الأعمدة ستور مضفورة بخيوط من الذهب وبداخله أتوار من فضة بها الشموع الكبار ومن حولها السرج والقناديل الملونة تمتد من المظال والأمراس وبين ذلك المدورات والتكايا من ريش النعام أعدت للجلوس .

فقال المهتار : ذلك العشارى لمولاتنا خوند جلنارابنة مولانا الملك المنصور عثمان وحفيدة السلطان الظاهر جقمق وربة ذلك القصر العالى ، وهى الساعة بالقاهرة فى بعض دورها التى أعدتها لساعات صفوها وللتحلل من قيود الإمارة فتنفق على

---

(١) حبال المركب

الفقراء وتكسو العارى وتطعم الجائع كعادتها فى كل أسبوع ، ولا تعود إلا بعد العشاء الأخيرة ؛ فتعال يا سيدى نستمتع بجمال القصر بعيداً عن أعين الرقباء وسماجة المماليك وصلفهم ، فلدينا فسحة الزمن والبدر يغنينا بأنواره عن وقود الشموع والثريات .

ومشى حيدر من باب القصر فى دهاليز مفروشة بالرخام ثم هبط على درج من المرمر الوردى إلى بستان يمتد على شاطىء البركة فرأى الخولة مجتمعين بباب البستان فانتقل إلى مجلس فسيح فرش بالنمارق من أوله إلى آخره وفى صدره سحابة من حرير أصفر بأعمدة من ذهب وأرضه مصورة بفصوص حمر وصفر وخضر من بللور وبوسطه فسقية من المرمر الجميل عليها أنبوب من نحاس يزعج الماء بقوة وحولها أقفاص الزرازير وطيور الفواخت تغنى .

فسحر حيدر من جمال المجلس وحسن رياشه ومخائل النعمة البادية منه ، ومد يده وفيها أشرفيان[1] إلى المهتار وسأله أن يحمل له من السوق طعاما ، ثم دس فى يده الأخرى أشرفيين وقال : ترشو بهما كل فضولى من الخولة والأتباع يتعرض لنا فى سمرنا .

وكاد المهتار يجن من الفرح بما جمع فى يديه من الذهب ؛ فهرول إلى المجلس فأضاء بعض القناديل وقال : لا حاجة بالمزيد من الأنوار ، فإن بالقصر رقباء من الحاشية ، وخرج إلى السوق . أما حيدر فإنه قام إلى الأنوار وكان فيها شموع كبار كل شمعة قدر قنطار غرس فيها العنبر والعود فأوقدها جميعها ثم رقى إلى التنور الكبير وفيه خمسون سراجا ملونة فأوقدها بأكملها حتى شع النور وملأ أرجاء المجلس ثم خلع قباءه فظهر من تحته ثوب بغير أكمام مجمل باللؤلؤ اسمه البغلطاق .

ولاحت له آلات الموسيقى على رفرف قريب بين طنابير وأعواد وشبابات ،

---

(١) الأشرفى ثلث جنيه استرليني

فتناول من بينها عوداً ودغدغ أوتاره ثم أوقع طبقات من النغم فأشجاه التوقيع فغنى:

تعشقته ســـاحر المقلتين كبدر يلوح وغصن يميل
إذا احمر من وجنتيه الأسيل واحور من مقلتيه الكحيل
فقـــل للشقائق ماذا ترين وللنرجس الغض ماذا تقـول

فترددت أغاريده فى أفق المجلس حتى ملأت أسماع الوصائف فى المقاصير ، فأقبلن طيعات سافرات يحفزهن غياب مولاة القصر ودخلن إلى المجلس يتهادين فى العصائب العالية وغلائل الحرير الشفوف وكن سبعاً ، فتعاقدن بالأيدى حلقة حول حيدر وقد أذهلهن حسنه كما خلب قلوبهن تغريده، فأمسك عن الغناء والعزف وحدق فيهن باهتاً مأخوذاً .

وتقدمت الوصائف باسمات له وخرجت إحداهن عن الصمت وكانت أروعهن حسناً وقامة وقداً وقالت :

أحسنت يا سيدى فذلك هو التغريد وحلو التغنى ، ومدت يدها إلى الرفرف فناولت صواحبها بعض الطنابير والشبابات وجلسن بين يديه على حشايا من الحرير ووقعن لحناً شجياً طرب له حيدر . ثم أمسكن وتمايلن يتحدثن بالتركية التى يجيدها فقالت إحداهن :

والله ما أبصرت عينى فى قصور الملوك ولا بين أبناء الأمراء ندا لهذا الفتى فى حسنه وروعة ناظريه ، ولاسمعت أذنى طرباً كالذى غناه فلعله يحركنا ، ثم قالت : من أنت ياسيدى وما اسمك ؟ وتشوفته بملء ناظريها وهى تبتسم .

فأدرك مادار من حديثهن وانحنى على العود وغنى :

ألا يا ظبية الوادى وذات الجسد الرادى
وزين المصر والدار وزين الحى والنادى
وذات المبسم العذب وذات المبسم البادى

وشاركنه عازفات على الطنابير نافخات بالشبابات [١] فأجدن ، وكاد المجلس يطير من حلو الإيقاع ، وسما حيدر بالنغم الشجى حتى نفذ إلى قرارة الفتنة من قلوبهن فتواثبن حوله يسألنه عن اسمه فكان يتمنع و يأبى معتذراً باسماً . فتناولت الكبرى طنبورها وغنت عليه غناء كأنه مزامير داود رقة وحلاوة صوت وحسن إيقاع ، وتراقص على غنائها أترابها الولائد وقالت :

وشادن مر بنـــــا يجرح باللحظ المقـــل
اعتدلت قامتـــــه والطرف منه ما عدل
بدر تراه أبـــداً طالع ســــعد ما أفل
سألته عن اسمه فقال اسمى لاتسل
وطلعت فى وجنتيه وردتان من خجل
لا تسألن عن شـــادن فاق جمالا وكمـــــل

ودخل المهتار ومن ورائه غلام يحمل الطعام وقال : أى غناء ذاك الذى تسمعه يا سيدى ؟ لقد استجاب لطيبه سائر أهل القصور من سكان البركة ، فانظر إلى يمينك تر كيف تعج الشرف والطاق بالمستمعين ، وكيف تشع أنوار شموعهم وقناديلهم ، لقد جئتك من عند الشرائحى [٢] بشواء مكبب على الجمر من لحم خراف رضاع وخبز الطاق الذى رقق واختمر وطيافير [٣] بها أطيار دجاج سمان محشوات ورقاق شطر بالكامخ [٤] ولحم سكباج [٥] وقد حملنا زبادى من حب الرمان وطيافير من مأمونية ومن قطائف محشوة وجئتك يا سيدى أحمل بيدى قفص عنب يغريك به لونه وأنشد

عنب طعمه كطعم الشراب كالح لونه كلون الغراب
خلته وهو بين أقماعه الخضر بنان النساء بين الخضاب

(١) الشبابة : هى الناى المتخذ من القصب . (٢) الحاتى . (٣) صحون .
(٤) السلطة . (٥) لحم به توابل الفلفل والملح والزيت .

لقد فاتنى والله سماعك يا سيدى فأجزنى على حسن صنيعى .

فشكره حيدر مبتسما وتناول العود ودغدغ الأوتار فترامى الوصائف فوق الحشايا حافات به ووقف المهتار بين يديه وغنى وقال :

دمن كأن رياضهـا يكسين أعلام المطارف
وكأنما غدرانهـا فيها عشور فى مصاحف
وكأنما أنوارهـا تهتز بالريح العواصف
طرر الوصائف يلتقين بها إلى طرر الوصائف
تلقى أوائلهـا أواخرها بألوان الزخارف

فكانت الأغاريد أطيب ما سمع ولحن . وفجأهم خلالها ضجة عالية ودبيب أقدام وقعقعة سلاح . فتسرب الولائد إلى أفنية القصر وتوارين مذعورات وجعل المهتار يرجف خوفاً وفزعاً وتخلف حيدر وحده بين الطنابير والأعواد ، ودخل المجلس غلمان من المماليك فى سلاحهم يتدافعون ويتوعدون بلغتهم ذلك الفضولى الذى استخف بحرمة خوند واقتحم مجلسها فى غيبتها .

وكان على رأسهم قهرمان القصر سنجر وشارباه يرقصان من الغضب فرمى حيدراً بنظرة تحقير ووعيد وصاح فيه صيحة تقصم الظهور وتنذر بالويل والثبور فجثا المهتار وأسلم نفسه للموت المحتوم ، ولكن حيدر لبث فى مكانه راسخاً معتمداً على حشية فى يده وهى كل ما يحمل من سلاح ، فأشار سنجر إلى رجلين من رجاله وخاطبهما بالتركية أن يضعا ذلك الفضولى فى الإغلال ثم يقذفا به فى البركة . وأدرك حيدر ما يدور حوله وما أعد له وكانت على بدنه درع من الفولاذ الرقيق نسجت بالحرير ، ثم رنا بعينه إلى الأسياف المعلقة بالجدار فقفز فى ومضة البرق فانتزع أحدها وضرب به إحدى الشموع الكبار ليختبر مضاءه فأطارها .

وثارت حمية الجند فساواسيوفهم وطوقوه من كل جانب ، فقفز حيدر إلى التنور الكبير الذى يضىء المجلس فتعلق بشبكته وعض بفكيه على متن السيف وجعل يتأرجح فى الهواء حتى تناول رؤوسهم بقدميه فدفعهم بقوة ساقيه فألقى على الأرض

أقرب الجنود إليه ، وقفز إلى الناحية الأخرى من المجلس فصار من ورائهم وعاجلهم يطعن جنوبهم بذباب سيفه قبل أن يفيقوا من الدهشة فتراجعوا إلى الوراء فأطار السيوف من أيدى بقيتهم فصاح بهم سنجر وانتهرهم وقال: لستم أنداده ، ثم نحاهم عن الطريق واخترط سيفه فى طمأنينة وثقة فقد كان من أشجع أبناء الترك وأكثرهم خبرة بألعاب السيف ، وأنف أن يسخر من جنوده المختارين غلام من أبناء العرب لا نبات بعارضيه ، فجعل يناضل كأحسن فرسان ذلك العصر ، وكان حيدر أخف حركة وأقدر على سرعة التنقل وكلما لاحت له عورة من قرنه تجاوز وعفا ثم دفعه إلى الوراء وهو يلاحقه حتى ألصقه بالجدار وأطار من يد الحسام ثم مد ذباب سيفه إلى جبهته حتى مس جلده .

فأوقفه من ورائه صوت يسيل عذوبة ورقة فتلفت فرأى سيدة هيفاء تمشى إليه فى مرط ذهبى ونقاب يشف عما وراءه من فتنة المحيا ومن خلفها أربع من الوصائف يرفعن أذيالها بكلاليب من ذهب فلما تبينته هتفت فى لهف :

« أنت والله فارس القبق الذى نال السبق على سائر الفرسان » وطابت نفسها وأسفرت عن طرف ساحر وغرة بدر وجيد كعنق إبريق من الفضة نسجت حوله من جدائلها الملتوية غلائل من الذهب .

فهال الفتى ما جمع الله فيها من مفاتن الحسن وروعة الجمال وتراخت يمينه حتى سقط منها السيف ووقف لديها مكتوف اليدين ذاهل الطرف لا يحير جواباً . أما هى فقد أشبعت ناظريها من وجهه وغصنه الميادفاستحال رعبها سكينة وسخطها رضى وتولتها نشوة لطيفة تمشى رويداً إلى قلبها وتكلمت فقالت: إن لدى شؤوناً وشجوناً أريد أن أكاشفك بها منفردين وأشارت له أن يتبعها .

فهدأت ثائرة الحاشية ولمعت جبهة سنجر بالأمل المعسول والرجاء فقد عرف ذلك الفارس الذى نال السبق يوم القبق ، فهو حيدر بن تقى الدين بن مزهر كاتب السر وزعيم كتائب جند القاهرة فإذا بات حليف خوند مولاته وأعان الأمراء

الظاهرية بسيفه وجنود الكتائب عاد إلى العرش مولاه الملك المنصور عثمان . وترامت خوند جلنار فى مقصورة أبيها على سرير من الذهب تتنازعها شتى العوامل من الرجاء والأمل المعقود على ذلك الفتى الذى سمر بين يديها وأذنته بالجلوس فتمنع أدباً وحياء فقالت : عزمت عليك أن تجلس فسيطول بنا الجلوس ، والحديث ذو شجون ، فجلس خافض الرأس يستمع فقالت :

لعلهم حدثوك أنه كان على عرش مصر جدى السلطان الظاهر جقمق ثم مات عام ١٤٥٣ من أربع عشرة سنة فخلفه على الملك أبى الملك المنصور عثمان فخلعه أتابك الجيش إينال بعد ثلاثة وأربعين يوماً من توليته ، وتولى الأتابك سلطاناً باسم الأشرف إينال ونفى أبى إلى الإسكندرية حيث هو الآن . ثم جاء بعد إينال ولده فتولى باسم الملك المؤيد فخلعه أتابك الجيش خشقدم ، فتولى الملك ثلاثة ملوك متعاقبون لم يفلحوا . حتى جاء دور قايتباى فرأى عن يمينه أمراء أبى الظاهرية وعن يساره أمراء الملك المؤيد وهم الإينالية وأمامه الأمراء الخشقدمية فتغلب بدهائه وحسن سياسته على الجميع ، وبدأ يستميل إليه أنصار الملكين المخلوعين فزين لكبار أمرائه أزبك ويشبك فصاهرا الملكين وتزوجا بنتيهما فنال بذلك ولاءها وبدد بعد ذلك شمل الخشقدميين وساقهم إلى مجازر الحرب القائمة الآن بالشرق البعيد مع ملك التركمان شاه سوار .

وأمسكت خوند عن الكلام تستريح وتعد نفسها للمرحلة الأخيرة من كلامها فقال حيدر : إنى أعلم تفصيل ما أجملته لى خوند وأترقب بقية الحديث .

فلاحت على وجهها بارقة من الأمل واقتحمت حديثها جملة دون مواربة ولا مداورة وقالت :

ألا ترى أن العرش كان ولا زال مغالبة بين الأمراء وهدفا لكل سباق بينهم ، فمن رفعه جده إلى الذروة نال جزاءه الذى يستحقه ونصيبه الذى كتب له ، وأن الأمراء الظاهرية أشد أعوان الملوك بأساً وأكثر نفيراً ومن ورائهم حلفاؤهم

الإينالية يشدون أزرهم ، ولئن شددت أزرنا ياحيدر ودخلت صفوفنا منحتك المنزلة التى عزت على الملوك والأمراء .

فوقف حيدر وقفة تفيض مهابة وصدقا وخدم حتى مست أنامله البساط وتكلم فى عزم وروية فكان يتدفق فى حديثه ثم يتريث فترات فى سكون ثم يعود إلى الكلام فقال :

لقد استوعبت حديثك يا خوند وسبرت أغواره وقلبت وجوهه فحيرنى وذهب بتفكيرى وتشعبت فيه طرائقى ، وسبلى وما يدريك أن أبى وهو كاتب سر السلطان قايتباى وأمين دولته ومستشاره الذى لايخفى عنه تدبيراً ولا عملاً من أعمال سياسة ملكه — ما يدريك يا خوند لعل أبى هو الذى أشار بسياسة التوفيق التى نال بها مودة الملكين وولاءهما من وراء المصاهرة التى ذكرت حكايتها ؛ وقد عرف السلطان لأبى تلك النصيحة الخالصة فمكن له فى دولته واختار أخى بدر الدين متولياً لحسبة القاهرة على حداثته وجند من فتيان المدينة تلك الكتائب المعروفة بعد أن وثق من إخلاصهم وولائهم .

لقد كان آبائى جميعاً كتاب أسرار ملوك مصر من لدن السلطان المؤيد الذى حمل جدى الأكبر من دمشق وأسكنه القاهرة ، ولقد كان جدى كاتب سر جدك السلطان الظاهر وأبيك الملك المنصور، فما خرج أحد منهم عن دائرة الوفاء ولا أخل بحقوق الشرف ، فكيف تريدينا على نكث العهود ؟ !

فجذبته جلنار حتى التقى الوجهان ونسجت حوله من غلائل حسنها وفتنة جمالها خيوطاً من الرهبة والخضوع ، فاستكان بين يديها كالطفل وحدثته بصوت شجى خلاب وقالت : إنك يا حيدر ما زلت حدثاً تعوزك تجاريب السنين، فأنت أول فتى من فتيان مصر جمع الله له صريح النسب العالى وجمال الوجه وحسن القامة وشجاعة القلب ، وليس بعجيب أن يختصك الله بتلك المواهب، فإن أباك سيد من أبناء الأنصار وأمك من بنى العباس كان جدها الخليفة المستعين بالله سلطاناً على

مصر فجمع الله له الخلافة والملك ، ولئن كان أبى وجدى من ملوك الترك غير أن أمى فى صريح نسبها من بنات عمك الأنصار ، فترى بينى وبينك من وشائج الرحم ما يدنيك منى ويوثق ما بيننا من أواصر المودة ، ولقد كنا نحن وغيرنا من وجوه البلد نتشوفك فى نهضتك ونحوطك بحبات قلوبنا ونتوسمك زهرة نبتت منا وأينعت فينا حتى أصبحت بحمد الله أول مصرى يسامى أمراء الترك ويزحمهم على المناصب الرفيعة ويطغى بنبوغه على الكثيرين منهم ، فأولى بك أن تحمل إلينا فاضل مجدك وتضفى علينا رداء الرفعة التى شرفك الله بها من أجلنا ، ولو كنت ياحيدر من آحاد الناس لتركناك وشأنك حراً تختار لنفسك طريقها وتلقى بها حيث شئت ، ولكنك معقد آمال أمة بأسرها يحذو خطوك الموفق شباب هذا الجيل ، وأمامك مستقبل زاهر بالآمال وحروب طويلة المدى تصلاها بشجاعتك وإقدامك ونحن من ورائك ندعو لك بالنصر .

فقال حيدر : لقد بلغ حديثك يا خوند من نفسى مكانة التقدير والإعجاب وإنى لأرجو لك العافية من بلاء الفتنة .

لقد أجمع علماء الفلك أن قايتباى يمشى بخطى واسعة إلى سعد السعود ، وأن ملكه موطد يمتد ربع قرن من الزمان ، فزنى يا خوند حرج الموقف بالحكمة وحسن التدبر ، ولا يغرنك تشجيع الأمراء الخشقدمية فإنهم يزينون لأبيك العودة إلى الملك ليستعينوا بأنصاره على بلوغ أمانيهم والمناداة بكبيرهم جان بك سلطاناً على البلاد .

فنظرت إليه فى يأس وقنوط وقالت : كأن هذا اليوم فراق الأبد بيننا . فقال لا تعجلى يا خوند فإن بيد الله مقاليد الغيب يصرف القلوب بحكمته ويؤلفها بإلهامه وتوفيقه ، أما أنا فسأبقى إلى جانبك إن شئت أدفع عنك كل عدوان وأحيا بمودتك ، فليس أحب إلى من كريم يبادلنى الود ، وإن عز اللقاء يا خوند ونبذتنى كانت آخرتى فى ساحة الوغى حيث لا ظل إلا كنف مضربى وقامة

رمحى وصهوة أدهمى ، فهنالك تشجينى طبول الوغى من خلفى وتكبير الكتائب من حولى وخفوق لواء النصر بيمينى ، وهنالك ياخوند أجد العافية للقلب الجريح والنفس المحرومة .

وغلبته عبراته فجففتها بينانها المضطرب .

وغلبها الحب الجارف والعاطفة الملحة فطوقته بين أحضانها وتقابل الثغران طويلاً حتى اشتفيا .

ومدت يمينها إلى صدرها فانتزعت منه تميمة من الحجر الكريم عليها غاشية من العود نظمت فى سلك من الذهب فطوقت بها عنقه ، وقالت :

هذه تميمة جدى السلطان الظاهر كان يتقلدها فلما أورثها أبى استودعها عندى . وقد جعلت غاشيتها من العود حتى تعود إلىّ بإذن الله. ثم قامت إلى خزانة بالجدار فحملت إليه سيفاً صقيلاً من دخائر الملوك فقلدته إياه وقالت : ما كان لك أن تمشى أعزل بعد اليوم . وخطرت به بين دهاليز القصر حتى بلغت بابا موصداً فوقفت وهمست تقول إن وصيفتى زليخة من وراء هذا الباب تستقبلك وتشق بك أنفاق القصر ثم تسلمك إلى حارس يمشى بك إلى الطريق حيث جوادك الأدهم ومولاك أسامة . وتعانقا طويلا ثم خرج

الفصل العاشر

حمام السلطان

كانت سويقة المسعودى محلة لطيفة يسكنها بعض سراة القاهرة ومياسير تجارها، وكان بصدرها رحبة تدعى رحبة خوند تفصلها عن حارة زويلة[1] ويمتد طرفها الآخر إلى قنطرة الموسكى، وكان بين بيوتها حمام شهير يدعى حمام السلطان جميل البناء فاخر الأثاث اختص به نساء ذلك الحى وعقائل الأثرياء، يترددن عليه من مشرق الشمس إلى قبيل الغروب، فكانت الجوارى يحملن بقج[2] الثياب وقوارير الطيب فى المجامر ويمشى فى آثارهن بنات النعمة الكواعب فى الحرير المثقل والبخانق والعقود.

وكان زين الدين بن مزهر متولى حسبة القاهرة أشد الناس احتشاماً وأرعاهم للآداب العامة يسلط أعوانه على الطريق المسلوكة إلى الحمام فيمنعون من يقف بالقنطرة يضايق الغاديات الرائحات، ولكن شياطين الحى كانوا يتسللون من تحت أذقان الشرطة فى سبيل نظرة خاطفة من الغوانى الغيد بباب الحمام.

وكان فى طريق الحمام فاكهى جمع فى حانوته أنواعاً من التفاح وتأنق فى تنضيدها على رفرف من رقائق الخشب مكسو بنفيس الورق المذهب ونثر فيه الرياحين والأزهار، وكان فتى وسيماً نظيف الثياب ينادى على الفاكهة بأغاريد حسان، وكان أكثر المترددين عليه من زائرات الحمام فكن يداعبنه فى حديث شهى ولفظ عف.

---

(١) هى حارة اليهود. (٢) صرر.

فأقبلت عليه يوماً غانية فى إزار من الحرير الأخضر وعلى رأسها وقاية من ديباج تقيها الشمس، و بين يديها الولائد يحملن المذاب ومجامر الند والعود وحوائج الحمام فتلفتت يمنة و يسرة كأنها تخشى قادماً إلى الدكان ، وخطرت بين صفوف الفاكهة تختار منها ما يروق لها وأخذت تساوم الفاكهى ، فبهره منطقها العذب يغنى على سليقته فقال :

تخال تفاحتها فى لونها وقدها
تناولتها كفها من صدرها وخدها

فابتسمت له الصبية وازدهاها الغناء وهلّ على صوته فتى وسيم جميل فى الثامنة عشرة، عليه عمامة من القصب الرفيع منظومة بلؤلؤ وقباؤه وثيابه تنم عن ثراء ونعمة. فتراجع الجوارى عن طريقه حتى كشفت له الصبية فى مظهرها الخارجى تغالبه برمان قدها وتغريه بتفاح خدها وتوارت خلف أستار الفاكهة قبل أن يملأ منها ناظريه ، فأطل إلى ما وراء الستر وقد حسرت عن وجهها النقاب فلاح له حسنها الباهر وغصنها الزاهر ، ورنت إليه بعينين جمع الله فيهما السحر والفتنة وضاقت أنفاسها من الحر ، فألقت وقاية رأسها وجففت لؤلؤتين انحدرتا من مفرقها، فلاح جبينها كأنه طلعة قمر ، فراع الفتى ما شهد وأخذ بجمالها .

وعرف الفاكهى ذلك الفتى ، وكان سيف الدين بن الوزير تاج الدين ناظر الخاص ، فرحب به وحمل إليه طبقاً من الخيزران به تفاح وعزم عليه أن يأكل منه فتنهد الفتى واستدار قليلاً وقال :

لا آكل التفاح دهرى ولو جنته كفى من جنان الخلود
تالله لا أتركه عن قلى لكننى أتركه للخدود

وخرجت الصبية من وراء الستر تمشى إلى الحمام وعز عليها ألا تودع الفتى فزودته بنظرة عجلى وانصرفت تتهادى كأنها نشوى .

فترنح الفتى لهول ما رأى من ملاحة قدها وفتنة عينيها وقال فى أعقابها :

أيها الظبى المليح القـــد ممدول مهفهف
أنا من ميلك فى مشـــيك مرعوب مخوف

وأبطأ الولائد عنها فجعلت تناديهن : تعالين تعالين . فأقبلن إليها مسرعات وحففن بها كالهالة حول البدر فسأل الفتى صاحب الدكان : من تكون هذه المليحة؟ فقال : إنها السيدة سلمى غانية سويقة المسعودى وابنة الطبيب محمد بن بقاء .

فتركه الفتى وسار على غير هدى وقد ملكه حبها ومر بباب الحمام يتنشق ريحها وقال :

أسلمى أزمعت بيناً وأين لقاؤها أينا
وقـد قالت لأتراب لهـا زهر تلاقينا
تعالـين فقد طاب لنا العيش تعـالينا
فأقبلن إليهـا مســـرعات يتهـادينـا
إلى خـود منعمة حففن بها وفدينـا

وعاد إلى رحبة خوند يمشى الهوينا ويسأل المارة عن دار ابن بقاء .

وكان ابن بقاء طبيباً ماهراً منقطعاً لطبه وعلاج مرضاه لم يتخلف عن عيادة أحد كائناً من كان فأحبه الناس ؛ وقد رزق من الذرية فتاة وفتى فماتت أمهما فى عهد طفولتهما وكان ولده غانم يميل إلى دراسة الطب فلحق بالمعهد المنصورى وبقيت سلمى بدار أبيها بين جواريها ، وكان للدار قهرمانة كرجية شديدة الوطأة على الجوارى وعلى سلمى نفسها ، فأقرها سيد الدار على شدتها وصرامتها ورأى فى ذلك صون ابنته وحماية خدرها .

وأقبل سيف الدين على ربع سلمى فرأى داراً فسيحة لها باب مقوصر عقد على حنايا العاج والأبنوس وعتبتها من المرمر وبالباب سندال من نحاس أصفر وحلقة من الفضة، وكانت القهرمانة تشرف من طاق فرأت فتى جميل الوجه حسن الزى يحوم حول الدار ويصوب بصره إلى الشرفات، فأخذها الغضب وصاحت فى الجوارى وتلفتت حولها تبحث عن شئ تقذفه به فتنبه لها سيف الدين وغلبه الحياء والخجل فانصرف يتعثر بأذياله، وود لو عاد إلى طريق الحمام وجاز به لولا الخوف من سياط الشرطة.

وفى اليوم التالى خرج سيف الدين إلى الميدان على صهوة فرس له شقراء كالمها النافر فى ضمورها وخفة وثبها وكان يؤثرها ويعجب بغرتها وتحجيل ساقيها ويضفر فى جدائل عرفها ألواناً جميلة من الحرير ويصوغ لها القلائد من الفضة فى جبهتها وحول لبتها. فعبر بها الدروب والرحاب مزهواً بها وأجاز بها سويقة المسعودى لعل سلمى تسعده بطلعتها، فرأته القهرمانة من بعيد وترقبته حتى صار بحذاء الشرفة فقذفته بآنية من فخار فتحطمت الآنية وهى تصطدم بالجدار وطارت شظاياها فشجته وغمرت وجهه وثيابه بالدماء، فعلا صياحه وسقط على الأرض، فأشرفت سلمى من الطاق وهالها مصرع الفتى ونزف دمائه فأسرعت إلى الباب تسعفه، ولما أقبلت عليه عرفته فأنت أنين الموجع وقالت: معذرة ياسيدى! لقد شج رأسك دون عمد من أحد، وما كنت أدرى أنك الساعة عابر بدربنا فتعال إلى الدار نغسل عنك أثر الدماء ونضمد جراحك، فتنبه سيف الدين ورآها تأخذ بيده وتسنده فهانت فى عينه شجته، وقال: آجرك الله ياسيدتى على صنع يدك وبذلك المعروف من أجلى، وتظاهر الفتى بالضعف فعاونته حتى وقف واستند إلى ذراعها وهو يمشى إلى الدار فى دهاليز فرشت بالرخام وامتدت إلى إيوان عالى الأركان صنعت أرضه من فصوص الرخام الملونة وكسيت جدرانه بصور

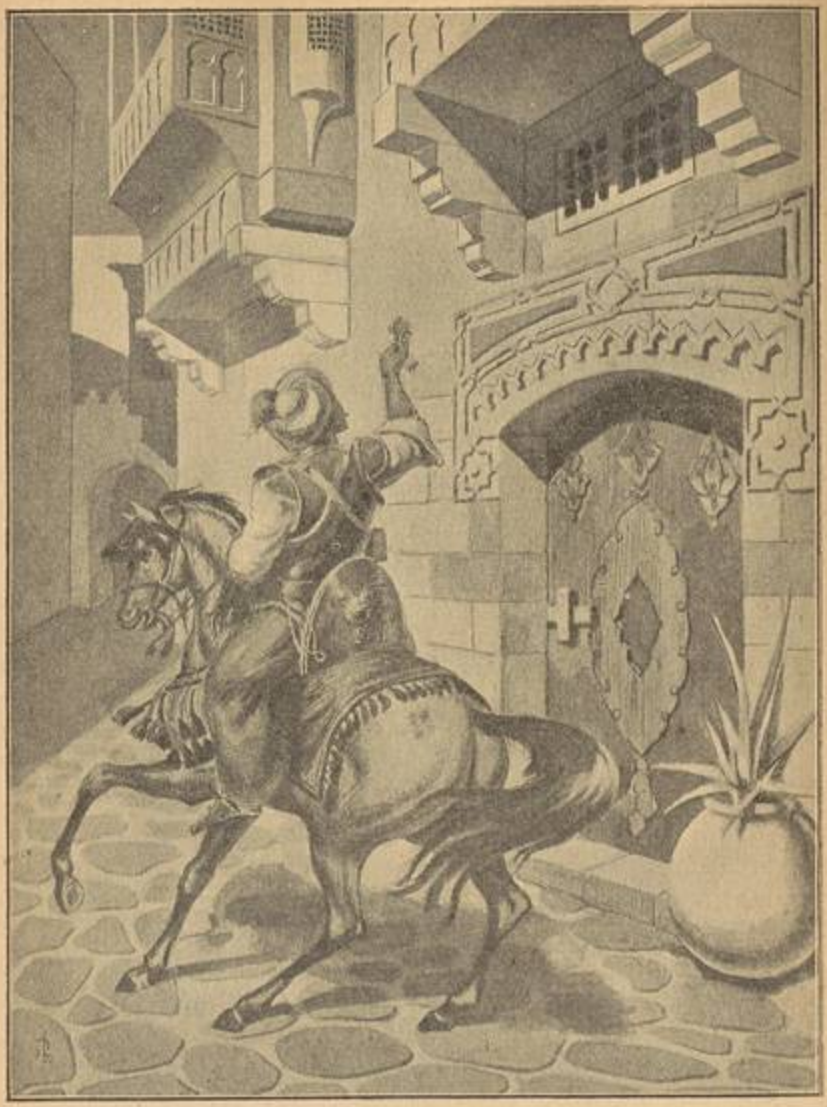

سيف الدين يرقب سلمى فى شرفتها

الحيوان و به النمارق من المخمل الثمين وللإيوان قبة عالية على عمد من المرمر الوردى وشمسيات من الزجاج القبرسى الملون . وسار سيف الدين إلى دهليز آخر تسنده سلمى إلى درج من رخام حتى بلغ بيت الحرم ومربعة الدار، وكانت أرضها من بللور مصبوغ بالأصفر والأحمر وفى وسطها فسقية من المرمر البديع الصنع يصل إليها الماء من نوافير تزعجه بقوة ، وحول الفسقية عدة أسرة من الأبنوس عليها نمارق من الحرير الإسكندرى المقصب تشرف من طيقان لطاف على بستان جميل حملت أزهاره من بلاد الشام ، وكانت القهرمانة قد توارت خوفاً من سيف الدين أن يكون قد عرفها ، فانفردت سلمى بخدمته ونزعت عمامته وقباءه وقد نضحا دما وحملت إليه الماء الساخن فغسلت شجته ثم ذهبت إلى مخدع أبيها وعادت بلفائف وضماد ودهان وكانت هائمة النفس تطالعه بأفصح بيان من عينيها. فنسى ألم الشجة وغالبته عاطفة مشبوبة فطواها بين ذراعيه وهى تطوى الضمائد حول شبحته فاستجابت له وسكنت وأسلمت ثغرها ثمناً لدمه المسفوح تحت شرفة قصرها ، وظلا فى نشوتهما حتى نذرا بدبيب على الدرج فتفرقا ، وكانت إحدى الولائد تحمل قدحاً من الشراب وجاماً من الحلوى فتناول القليل من الشراب وغابت الوليدة دقائق ثم عادت فى لهف وفزع وقالت: إن سيدها لدى الباب.

فقال الفتى : وأين المفر ؟ فقالت لا خوف فلدينا سفط يحملك إلى آخر الدرب، وقادته فى دهليز مظلم فى آخره طاق يطل على الدرب وقد عقد على مصراع الطاق حبال شدت إلى سفط، فجلس سيف الدين فيه ووقفت سلمى عند حافة الطاق تودعه وحركت الحبال فراحت تجرى على الأكر ، فلما قارب وجهها ثم خديها مودعاً ثم تراخى به السفط فبلغ الدرب سالماً ، وكانت فرسه فى خربة بآخر الدرب فعاد بها إلى الدار .

وشغل أبوه بشجته فاستدعى الرئيس شمس الدين كبير الأطباء فقيل : إنه يعود أحد الأمراء ، فدعا لعلاجه محمد بن بقاء — وكان صديقاً لأبيه منذ القدم — فدهش لأول وهلة لضمادة الجرح ، فلما كشفه وتناول الدهان الذى فيه اشتدت دهشته وسأله عن الطبيب الذى أسعفه بعلاجه فقال : إنه رجل حجام فى خدمة الجند.

فأسرها ابن بقاء ورسخ فى نفسه أن الدهان من صنع يده تفرد بتركيبه من أخلاط لايعرفها غيره من الأطباء وكذلك الضمائد فإن أسلوبها خاص به لايعرفه إلا ولده غانم و إبنته سلمى .

وعاد الرجل إلى داره ساخطاً متبرما وكف عن علاج سيف الدين رغم تردد الرسل عليه ، وقد وقر فى نفسه أن لابنته سلمى صلة بالفتى ، وخلا بها وطلب منها ألا تخفى عنه شيئاً مما جرى فى غيابه فصارحته بالحادث وجعلت تثنى على الفتى وتطريه أثناء حديثها فأدرك أبوها أنها ولعت به ورأى أن يعالج الفتنة قبل استفحالها فحملها معه فى سفر طويل ، ولكنها مرضت وبدا هزالها واشتدت وطأة المرض عليها فعاد بها إلى الدار وخاف سوء العاقبة، وكان شديد العطف عليها والبر بها.

وكان ابن بقاء كغيره من سراة البلد يستأجر كبار المطربين لتعليم ولديه التوقيع والغناء فتردد برقوق التونسى عليه وكان أول ضارب بالعود شيخاً أعمى تقوده ابنته ليلى ، وكانت سلمى تميل إلى النغم والتوقيع على العود فأقبلت على الموسيقى حتى حذقت سائر الألحان والتواقيع وضاعف من نجاحها رخامة صوتها ورقة غنائها ، فلما عادت من سفرها أقبلت عليها ليلى تتعرف حالها بعد طول غيابها .

وشفى سيف الدين من شجته فخرج يتنسم الخبر عن فاتنته سلمى ووقر بنفسه أن بعض الإماء قذفته بحجر من شرفة الدار فغير من زيه حتى لايفطن به أحد وطاف حول الدار يقلب الطرف بين الطاق والشرف فكانت مقفلة لا أثر للحياة بها فعاد أدراجه كئيباً حتى بلغ دكان خياط فجلس بها وسأل صاحبها عن الطبيب

ابن بقاء فقال : إنه رحل بأهله فى سفر طويل فاشتد به الوجد ورفع عينيه إلى شرفة سلمى التى كانت تلوح من بعيد وقال يردد شجوا كأنه رجع الحمائم :

لما أناخوا قبيل الصبح عيرهم ورحلوا فتنادت بالهوى الإبل
وأبرزت من خلال السجف ناظرها يرنو إلىّ ودمع العين منهمل
فودعت ببنان حمله عنم فقلت لا حملت رجلاك يا جمل
ويلى من البين ماذا حل بى وبها من بارح الوجد حل البين فارتحلوا
إنى على العهد لم أنقض مودتهم فليت شعرى لطول العهد مافعلوا

وعاد إلى داره كاسف البال موجع القلب فزاره طيف سلمى يناجيه حتى السحر فلما أصبح خرج يتنشق الخبر من جديد وطاف بالدار حتى آخر الدرب ولما هم بالعودة لمح برقوقا التونسى مقبلا تقوده ابنته فطار فؤاده من الفرح وقال : هذه مفاتيح الفرج وبكر فى اليوم التالى إلى ربع الزيتى وسأل عن منظرة برقوق فخرجت إليه ليلى وكانت صبية حسناء طيبة القلب فسألها عن أبيها فقالت : إنه خرج مع غلامه حسن إلى عرس بالمدينة فدس فى يدها صرة نقود وقال عزمت عليك ألا تكتمى عنى خبراً أسألك عنه فأين كان أبوك بالأمس قالت كنا بدار ابن بقاء الطبيب ندارس ابنته بعض الألحان على العود وكان قد طال غيابه وآب بالأمس من سفره والفتاة عليلة تشكو فخفق فؤاده واصفر وجهه وقال : بالله ماعلة مرضها فحدقت فى وجهه طويلا وقالت ذلك ياسيدى سر من أسرار القوم لا أبوح به فتنهد المسكين طويلا حتى كاد صدره ينفجر وقال :

وناهدة لما تنهدت أعرضت فراحت وقلبى فى ترائبها نهد

فقالت الفتاة : مابك ياسيدى ؟ فقال : ذلك سر مابين جوانحى ياليلى : وكانت الفتاة ذكية الفؤاد فأدركت بعض الحقيقة وقالت وهى تخفى ابتسامتها : إنها تهيم

بحب فتى من أبناء الوزراء اسمه سيف الدين ، فأمسك بكفيها وقال : أنا والله الفتى الذى تذكرينه أنا صريع هواها المفتون بحبها أنا سيف الدين .

فقالت : لقد حزرت ذلك يا سيدى من خلال محياك المشرق وقسماتك التى ذكرتها لى سيدتى سلمى ، ولقد وددت أن ألقاك لأشكو لك حالها من بعدك ولعل الله يجمع بى شملكما وإن شئت حملت إليها رسائلك .

فما صدق أذنه حتى طار إلى الدار وأخذ درجا من الكاغد[1] طرازه من خالص الذهب وفى صدره قلب اخترقه سهم فسطر فوق قمة القلب تلك الأبيات :

يا راشق القلب منى ... أصبت فاكفف سهامك
ويا كثير التجنى ... منعت عنى سلامك
فاردد على منامى ... فلا عدمت منامك
فمن رأى سوء حالى ... بكى علىّ ولامك
فلو أردت حياتى ... لما هززت قوامك
يامن أحلك قلبى ... ارفع قليلا لثامك
وابسم لعلى أحيا ... إذا رأيت ابتسامك

المدنف سيف الدين

وجعل بين ثنايا الرسالة وردة حمراء بمعنى التحية .

فلما عاد برقوق من حفلة العرس أنفذ ابنته ليلى إلى دار ابن بقاء لتعود سلمى فاستدعاها الجوارى إلى مخدع مولاتهن سلمى فقد كانت عليلة . وكانت القهرمانة ترمق ليلى من أقصى الدهليز بعين نافرة وودت لو أقصتها عن الدار ، ولكن سلمى ألفت عشرتها وكاشفتها بحبها لسيف الدين واستعانت بها على جفاء عيشها ووحشة الحياة فما كانت تصبر عنها ساعة ، فلما سمعت بقدومها جلست فى سريرها تستند

---

(١) أجود أنواع الورق .

إلى حشية من ريش النعام وفى عصابتها كرائم الحجر من الياقوت وحبات اللؤلؤ الكبار ، وكان الشمع يضىء فوق رأسها وتحت رجليها والتعاليق الذهب مشرفة فى حجرتها وأمامها مجمرة من فضة موقدة وجارية تسجر فيها الند، فقربت منها ليلى وأمرت بعود فحملته إليها الجارية فتحركت ليلى كأنها تبادلها التحية ودست تحت مرفقها الرسالة فاستدارت سلمى ناحية الشرفة فأنعشتها رياحين البستان وغناء الطير وفضت خاتم الرسالة فاشتد خفوق فؤادها ومرت على طرازها الذهبى وراقها السهم الذى مزق الفؤاد كأنه امتد إلى صدرها . وتناولت منه الوردة الحمراء فلثمتها وغيبتها فى صدرها .

ورددت تلك الأبيات التى صاغها الحبيب فسرت فى بدنها نشوة من السرور والمرح ومالت إلى أذن ليلى تثنى عليها وتشكرها .

وأغمضت عينيها تستجلى حلاوة مارأت وماسمعت وجمعت راحتيها حول الرسالة وانهالت ترشفها ثم غيبتها فى غلائل صدرها .

وجلس الولائد بين يديها على الحشايا والطنافس يضربن الدفوف و ينفخن الشبابات وطرحن لليلى مدورة من السنجاب وحملن لها العود فأصلحته ليلى وغنت طبقة بعد طبقة ثم عادت فأصلحته وقالت :

أنا فى عافيـة إلا من الشـوق إليكا
أيها العـائد مابى منك لايخفى عليـكا
لاتعد جسما وعد قلبـا رهيناً فى يديكا

فصفقت سلمى طرباً وانتعش بدنها ونزلت من سريرها تخطر فى المخدع وهى تميل أنساً وبهجة وتنشق ريح العافية، ففرح جواريها وأطلقن الزغاريد سروراً بها وتعاقدن بالأيدى فى حلقة من حولها وتراقصن على إيقاع العود والدف حتى أشارت لهن سلمى فأمسكن وقد غلبها الإعياء والضعف ، فحملن أريكتها إلى الشرفة

فتوسدت صدر الأريكة وتناولت العود من ليلى وغنت صوتاً كأنه مزامير داود حسناً وملاحة وكانت تلثم الوردة الحمراء ثم تخفيها بين ثدييها وغنت :

وكالوردة الحمراء حيا بأحمر   من الورد يسعى فى غلائل كالورد
له عبثات عند كل تحية   بكفيه تستدعى الخلىّ إلى الوجد

فعلا هدير القهرمانة وارتفع من الغيظ صوتها حتى بلغ مسمع سلمى فضحكت وكانت تكنى عن القهرمانة بالرقيب لأنها كانت ترقب حركاتها ولا تمكنها من الخلوة بمن تحب من أترابها وولائدها .

فأرادت أن تكيدها فتغنت على العود وقالت :

من كان ذم الرقيب يوماً   فإننى للرقيب شاكر
لم أر وجه الرقيب وقتاً   إلا ووجه الحبيب حاضر

فلما استقر بها المجلس وعاودها نشاطها وشبه الخمر إلى وجنتها ووقع السحر إلى مقلتها قامت إلى خزانة صغيرة فى آخر قبتها تودع بها جواهرها وألوان زينتها فنمقت لحبيبها جواب رسالته وحملت صندوقاً من الفضة به القلائد وعقود الذهب فقلدتها جواريها فرحن يثنين عليها ويدعين لهـا ومنحت ليلى عقداً ثميناً من خالص الذهب فلما خرج الجوارى يحملن القلائد مالت إحداهن إلى مخدع القهرمانة وكانت عينا لها فنقلت إليها ما دار بالمجلس .

وخرجت ليلى تحمل إلى سيف الدين رسالة الحبيبة وكان الليل قد نشر رواقه إلى ما بعد العشاء بعشرين درجة فسارت على ضوء القناديل والسرج إلى أن بلغت قنطرة الحاجب وكان سيف الدين جالساً على دكة من فوقها يلاعب فرسه الشقراء فلما هلت عليه ليلى هب قائماً وقال :

ومغترب بالمرج يبكى لشجوه   وقد غاب عنه المسعدون على الحب
إذا ما أتاه الركب من نحو أرضه   تنشق يستشفى برائحة الركب

فسلمته الرسالة وقالت له :

إن بالدار قهرمانة شديدة الوطأة عليكما وقد فطنت إلى التراسل بينكما فبثت فى سائر أرجاء القصر رقباء عليها وعليك وقد فتشوا ثيابى عند خروجى ولكن الله أعماهم عن الرسالة التى أخفيتها فى جدائلى .

فشكرها سيف الدين على حسن صنيعها واحتيالها فى إخفاء الرسالة ودس فى يدها صرة بها عشرون أشرفيا وقبل الرسالة وأودعها منطقته وعاد إلى داره .

فلما خلا بنفسه فض الرسالة وكانت فى لفائف من الحرير الأصفر عقدت بأسلاك من ذهب وفيها خصلة من شعرها الذهبى غمست فى العطور الذكية ، ونقشت على صدرها هذين البيتين :

وافى كتابك أسنى ما يعود به ... وفد المسرة منى إذ يوافينى
فظلت أطويه من شوق وأنشره ... والشوق ينشرنى فيه ويطوينى

ثم نقشت تحتهما ما يأتى :

أيتها النفس إليه اذهبى ... فما لقلبى عنه من مذهب
مفضض الثغر له نقطة ... من عنبر فى خده المذهب
أنسانى التوبة من حبه ... طلوعه شمساً من المغرب

ووقعت فى ذيل الرسالة :

حليفة السهاد سلمى

فلما بلغ سيف الدين من سلمى إلى حد التراسل بكر يحمل الرسالة إلى دار صديقه حيدر يستعينه على أمره ، وما كان يخفى هواه عن حيدر ولا أخفى حيدر عنه حبه لخوند جلنار ، فكان للصديقين ليال يحتجبان فيها عن سائر الأهل والرفاق فيتبادلان أحاديث الهوى ولواعج الأشواق .

فرق له حيدر وقال : لقد بلغت يا أخى غاية المنى ولم يبق إلا أن تخطبها من

أبيها فقال : ومن أين لى المال و أبى كما تعلم ضنين به معتز بجمعه ولا يعطينى منه إلا النذر ، ولولا عطف والدتى و بذلها السخى لكنت بشر حال ، فقال حيدر : لا تضق بالأمر يا أخى فسأتولى عنك هذا العمل قم بنا نستدن الساعة من عملاء أبى الذين فى أيديهم ودائعنا فهم لا يضنون بالمال الذى أطلبه وأمامنا سوق العنبريين أبتاع لك منه عقداً من اللؤلؤ تحمله إلى سلمى ولا أعدم من يقرضنا مبلغ الصداق ولا تنس أنى و إياك نوشك أن نجتاز مراحل الجندية إلى مرتبة الإمارة حيث الرخاء والنعمة وأنت بحمد الله من أكبر النقباء مقاماً وأجلهم قدراً.

وخرجا إلى سوق العنبريين وجعلا يتصفحان الخزائن من خلف زجاجها فبهرهما عقد جميل فى سمطه حبات كبار كان بحانوت رجل اسمه كريم الدين القصبى وسال لعاب سيف الدين حين رآه وود لو كان المال بيده فيحمله إلى سلمى هدية العرس .

وما غاب ذلك عن صديقه حيدر فتقدم إلى صاحب المتجر وطلب أن يريه ذلك العقد وكان لكاتب السر ابن مزهر عملاء فى السوق فلما لمحوا ولده حيدراً بحانوت كريم الدين أقبلوا للسلام عليه وبالغوا فى الحفاوة به لمنزلة أبيه منهم فمال كريم الدين على بعضهم يسأله همساً عن حيدر فأخبروه بأمره فصح عنده الخبر لما رآهما فى ثياب أبناء الوزراء،وتقدم فى أدب واتضاع يحمل العقد إلى حيدر وقال : إن بعض الأمراء كان قد أوصانى بصنعه ونقدنى ثمنه معجلا وقدره خمسمائة دينار فان كان قد أعجبك فخذه بارك الله لك فيه وعندى ما يساميه جودة وصناعة .

فخلا حيدر بصديقه لحظة ثم قال للرجل : لقد رضيت الثمن الذى تطلبه على أن أرجئ الدفع إلى ثلاثة أيام فان أردت ثمناً معجلا أحلتك على بعض عملائنا بالسوق ، فقال الرجل : بل أرجىء الثمن إلى ثلاثة كما تريد يا سيدى فقد أسبغت علينا بزيارتك أسباب النعمة والبركة ، فشكره حيدر وخرج مع صديقه .

ومضت الأيام الثلاثة وحل أجل التاجر فجاء سيف الدين إلى صديقه حيدر وقال له فى لهجة الألم : إنى والله لا أقنع لك بمنزلة الصديق من نفسى وقد آثرتنى بمالك وأثقلت كاهلك بالدين من أجلى إنما أنت أخى وقرة عينى وعدتى فى ضيق وقد جئتك بالعقد لترده إلى التاجر إذ لا مال عندك توفيه عنى ، فضحك حيدر وقال : لا تعجل يا أخى فالمال بحمد الله ميسور ، وأما العقد فهو هدية كريمة إلى سلمى لا ترد أبدا ، وما يدريك لعلى آتيك الساعة بألف دينار بغير عناء فتوفى ببعضها صاحب العقد وتحمل الباقى إلى ابن بقاء الطبيب مهراً لسلمى، و إنى بإذن الله منجز وعدى ، فلا تغادر حجرتى حتى أعود وأوصد . عليه باب الحجرة وخرج إلى السوق وسأل عن هبة الله بن القمص كبير المباشرين فقيل له : إنه اليوم قد لزم داره فسار إلى دار سرية حسنة بها الفراش الفاخر والزينة وآثار النعمة وما كان فيها إلا الجوارى من بنات الروم للخدمة ليس بينهن غلام ، وكان هبة الله أكبر عملاء كاتب السر يتجر بماله و يتقلب فى نعمته و يقر بفضله،فاستقبل حيدراً بالرحب والسعة ، وكان على أثر خروجه من حمام الدار فأمر بالبخور وجعل يبخر حيدراً بيده بند عتيق جيد وأمر أن تجهز سفرة الطعام ، فاعتذر حيدر بأنه جاء على عجل فى شأن له ، ثم قال ،أتعرف بسوق العنبريين رجلاً اسمه كريم الدين القصرى ؟ فقاطعه هبة الله فى لهفة وقال: قبحه الله من مماطل لقد استدان منى ألف دينار فمطلنى ولا زلت أطلبه بالمال فيسوف ، وأى شأن لك به؟فقال حيدر : لقد أعجبنى بعض عقود بخزائنه ولكننى عدلت عن الشراء بعد أن سمعت شكواك منه فقال هبة الله سأخرج معك إليه ألاحقه فقد ملات تسويفه ومطله ، وخرجا معاً إلى حانوت كريم الدين فرحب بهما وجعل يتوارى من هبة الله خوف الفضيحة بين التجار ، فقال حيدر لهبة الله : مالك وكريم الدين فقال : أداينه بألف دينار فالتفت إلى كريم الدين فهز رأسه مصدقاً الحديث فقال حيدر لهبة الله : كل ماتطلبه

من كريم الدين على سداده فقال هبة الله : رضيت بذلك وقام لحاله ، وانهال كريم الدين يقبل يد حيدر و يقول : جزاك الله عنى خير الجزاء ، ثم وزن له من خزائنه خمسمائة دينار وقال : قد استوفيت لنفسى ثمن العقد وجئتك ياسيدى بباقى الدين الذى احتملته عنى .

فانصرف حيدر إلى داره مغتبطاً بذلك التوفيق الذى نال به العقد والمال ، دون استدانة ، ودخل إلى سيف الدين وقص عليه جملة الخبر بأسلوبه الفكه ، فأغرقا فى الضحك وقاما إلى المائدة يأكلان .

وكان حيدر قد عرج على حجرة أبيه قبل أن يلقى سيف الدين فقدم له العقد والمال وسأله أن يخطب سلمى لأخيه سيف الدين ، وكان الوزير على علم بأمر الحبيبين وقد حدث ابن بقاء مثنياً على سيف الدين وما فطر عليه من كمال الرجولة والفضائل . وقبل أن يتفرق الصديقان دخل عليهما الوزير فى ابتسامته اللطيفة وسكينته المحببة ، ومال إلى سيف الدين يحدثه فقال : لقد تمت بحمد الله خطبة سلمى لك وألبسها أبوك عقد اللؤلؤ النفيس ، وضاعف لأبيها المهر فصداقها ألف دينار ، فمال الفتى يقبل كفى الوزير و يندبهما بدموع السرور والشكر .

الفصل الحادى عشر

شيخ الإسلام

كان أمام القصر الأبلق رحبة فسيحة أعدت بها مقاعد على جانبى الباب لخواص الأمراء حيث ينتظرون الإذن بالدخول إلى خدمة مولاهم .

فلما كان يوم المجلس الذى عينه السلطان حضر كبار الأمراء ومع كل أمير عدد من مماليكه وعلى رأسهم الأمير الكبير أزبك أتابك الجيوش المنصورة والأمير يشبك الدوادار وبرسباى وجانى بك ولاچين وتمرو يعقوب شاه المهمندار . ثم أقبلت أمراء الطبلخانات والعشرات وقد ترجلوا فى الرحبة الأولى ما عدا كبار الأمراء وكانت ثيابهم الأطلس الأحمر الرومى المطرز بالذهب ومن تحتها الأطلس الأصفر وعلى رؤوسهم الكلفتات بكلاليب الذهب ومن فوقها العمائم من الشاش اللانس الرفيع المنسوج بالذهب الموصول به الحرير الأبيض المرقوم بألقاب السلطان مع نقوش باهرة من الحرير الملون ، وفى أوساطهم مناطق الذهب يعلوها فصوص الزمرد واللؤلؤ أما سيوفهم فكانت حليتها وحمائلها من خالص الذهب .

وبكر السلطان بالخروج من قصور الحرم وعلى رأسه عمامة عظيمة وعليه قباء بعلبكى أبيض بطرز ذهب على حرير أسود عريض وقد أحاط به السلحدارية وجم غفير من الخاصكية ورئيسهم تمراز السلحدار .

وكانت الخاصكية فى ثياب الأطلس الأحمر المزركش وعليهم العمائم من المخمل والشاشات المذهبة وفى أوساطهم مناطق الذهب وسيوفهم بأيديهم مشهرة وقد لبسوا دروع الفولاذ من تحت الثياب . ودخل السلطان إيوان القصر المطل على

الإسطبل وقد نصبت له طراحة (منصة) عليها الحشايا من المقصبات وعلى رأسه ، سحابة من الحرير الأصفر بأعمدة من ذهب . فلما جلس اصطف من حوله حملة الأطيار ومن حولهم الخاصكية .

وظهر آق بردى والغورى وجان بلاط و بهادر فى عدد من خواص المماليك يخطرون فى الدهاليز المفضية إلى الإيوان ، فكان بريق الذهب من ثيابهم ومناطقهم وسيوفهم يأخذ بالأبصار .

وأفسحوا الطريق إلى كبار الأمراء فدخلوا ، فلما بلغوا طراحة السلطان خدموا بالركوع حتى أوصلوا أصابعهم إلى الأرض ، ودخل فى جملتهم كاتب السر ابن مزهر فخدم بيده إلى الأرض ، وكان معه بطائق مما يحمل الطير وأوراق بريد الولاة والنواب وتقرير الصباح الذى يكتبه والى القاهرة ووالى مصر .

وكاتب السر بحكم وظيفته يشرف على إدارة البريد ومن ديوانه تصدر ألواح البريد ، وهى ألواح من فضة نقش على وجه منها (لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون — ضرب بالقاهرة المحروسة) .

ونقش على الوجه الآخر (عز لمولانا السلطان الملك الأشرف سيف الدين قايتباى المحمودى) . وفى ذلك اللوح ثقب معلق به شرابة من حرير أصفر ذات بندين يجعلها البريدى فى عنقه بأن يدخل رأسه بين البندين ويصير اللوح على صدره ولكن تحت ثيابه وتكون الشرابة من خلفه ظاهرة فوق الثياب ، فإذا خرج عامل البريد إلى إحدى الجهات أعطوه لوحاً من تلك الألواح يعلقه فى عنقه ، فكل من رأى تلك الشرابة خلف ظهره علم أنه بريدى فيذعن له أرباب المراكز ويسلمون له خيل البريد ويستمر فى سيره حتى يتم عمله ليعود إلى الديوان ويرد إليه ذلك اللوح .

وأشار السلطان إلى كاتب السر فتقدم إلى الطراحة وخدم ثم قال :

لقد وعدت مولانا بإحضار أحمد الدنف متى كان له أثر بارز فى الحوادث الجارية، وحدث السلطان بما صنعه الدنف بملك التجار وأعوان الأمير جان بك بمصر والإسكندرية وعرض البطائق وتلا ما سطر فيها فدهش السلطان لدهاء الدنف وسعة حيلته واستدنى الأميرين أزبك ويشبك وأطلعهما على البطائق فقال يشبك : لئن كان الدنف قد بلغ إلى هذا الحد من السخرية بالأمراء فهو جدير بمرتبة رفيعة وجائزة سنية . فقال الأمير أزبك وكان حكيماً متئداً :

إن رأيت يا خوند أن ترجىء مكافأة الرجل إلى ما بعد القبض على الخونة وإحباط مؤامرتهم كان عملاً موفقاً فإن حلوله فى مراتب الدولة الظاهرة بغير ذكر للسبب ملفت للأنظار فيراجع خصومنا أنفسهم ويعدلون عن استكمال أهبتهم ويبعدون أنصارهم عن القاهرة وأرى عدم التعجيل بالجائزة إلى حين .

فقال السلطان : يصرف له ولأعوانه ألف دينار معجلة .

وتلا كاتب السر بريد الإسكندرية وفيه تفصيل حادث الغراب البندقى وأسر التجار المصريين بسبب أسر الأميرة القبرسية واختفاء آسريها بالشواطىء المصرية فقال السلطان : إن البطائق قد أشارت إلى الحادث وإن الأميرة فى أسر ملك التجار ، وتلا تقرير الصباح من والى مصر ووالى القاهرة عن حوادث البلدين وما وقع فى الدروب والأزقة من حريق أو قتل أو سرقة ليأمر السلطان بأمره فيها ، فجاء بها أن عبيداً لملك التجار كانوا يسوقون محفة فيها جارية لسيدهم ليلة الأمس فخرج عليهم فارس ملثم على فرس أدهم وبيده السيف ففروا من وجهه فاختطف الجارية، فقال الأمير أزبك: وما يدرينا أن الجارية هى الأميرة القبرسية ؟ فقال الأمير يشبك: إن كان للدنف ضلع فى اختطافها فقد بلغ الغاية من التنكيل بهم .

وأطرق السلطان قليلاً وقال : لقد زدتمونى شوقاً إلى الرجل ، ثم التفت إلى

كاتب السر وقال : سنصلى العشاء بقبة الأمير يشبك بالمطرية فتجهز للقدوم علينا ومعك الرجل ، وظهر بباب الإيوان حارسان من الخاصكية وهما جاولى ورفرف وتقدما وخدما ثم قالا : إن المجلس قد أعد لمولانا بالحوش فقام السلطان والأمراء من خلفه . وقدمت إليه فرس النوبة وهى فرس شقراء فى عنقها رقبة من الحرير الأصفر مزركش مذهب تستر ما تحت أذنى الفرس إلى حيث السرج فركبها وسار على جانبيه اثنان من مماليكه الأوجاقية على فرسين أشهبين برقاب فى مثل زينة فرس السلطان وسار السلحدارية من حوله وسيوفهم مشهرة وسبقه الأمراء ليستقبلوه فى الحوش . وكان الحوش السلطانى ساحة عظيمة حولها سور مساحته أربعة أفدنة كان يعقد به المولد النبوى فتنصب فيه الخيمة الكبرى التى تتسع لسائر الأمراء ورجال الدولة ، وبالحوش دكة عظيمة يجلس عليها السلاطين فلا تنقل من مكانها ولا يغيرها أحد .

ودخل الحوش كبار الأمراء وقضاة القضاة الأربعة والعلماء وعليهم الفرجيات المفتوحة من قدام من أعلاها لأسفلها مزررة بالأزرار وعليهم العمائم من الشاشات الكبار للغاية فترسل منها بين الكتفين ذؤابة طويلة تلحق قربوس السرج وفوق العمائم طرح سود تسترها وتنسدل على الظهر وكانت العمائم وشاشها والطرحة كلها سود . ودخل السلطان إلى الحوش فوقف الجميع وجلس على الدكة ، وكان الخليفة العباسى المستنجد بالله قد حضر فى عمامة سوداء مزركشة ودراعة بنفسجية ومن تحته فرس أشهب فى عنقه مشدة سوداء وسرجه أسود ، وكان شيخاً جاوز السبعين فتحرك له السلطان وتصافحا وأجلسه معه على الدكة .

ولم يحضر شيخ الإسلام أمين الدين الأقصرائى وقد بلغ المجلس أوجه فأمر السلطان كاتب السر فنهض للكلام وقال :

إن مولانا السلطان أيده الله بنصره يبين لكم نيات الخارجى شاه سوار باتفاقه

مع بعض ملوك الشرق علينا و إنه توغل فى أطراف البلاد مغتراً بما نال من الفوز والغنم فلم يدخر مولانا وسعاً إلا بذله من المال والسلاح والكراع حتى أصبحت بيوت الأموال خالية بينما يستفيض الرخاء والأرزاق الدارة بين الناس فهم أولى بمعونة الدولة كما فعل أسلافهم من قبل ولا ننسى أيام الطاغية تيمورلنك حين خيف على مصر من الغزو عام ٧٩٦ هـ فقام ثلاثة من آبائكم بمعاونة الدولة بأموالهم وهم المحلى والخروبى وابن مسلم ، وإنكم لترون أوقاف المساجد كيف فاضت غلاتها عن حاجاتها فأولى بنا أن نترك لها ما يكفى للقيام بالشعائر ونرد الفاضل إلى بيت المال . فأمن الحاضرون على قول كاتب السر أو استجابوا لدعوته . عندئذ حضر شيخ الإسلام فالتف حول بغلته جمهور من طلبة العلم وتنازعوا زمامها بينهم فكان أسبقهم فتى فى السابعة عشرة نحيل الجسد واسع العينين يتقد منهما ذكاء وحدة ، فأمسك باللجام ونحى عنه بقية إخوانه .

وتقدم الشيخ إلى صدر الحوش وكان كهلا جاوز السبعين إماماً فقيهاً علماً من أعلام المسلمين حافظاً واعظاً مفسراً ثقة ، وكان معتدل القامة حسن الوجه فى سعة من العيش ، لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، فامتدت إليه الأعناق من كل مكان ، وأشار إليه السلطان أن يتقدم فيجلس بجانبه فقال له : يا مولانا إنما يجلس الرجل حيث انتهى به المجلس ولا يتخطى الرقاب .

وأخبروه بمقالة كاتب السر فالتفت إلى العلماء والقضاة وقال :

مالكم سكوت ؟ ورفع رأسه يخاطب السلطان بصوت جهورى جلجل فى أرجاء الحوش على سعته كأنه لسان الأمة وقال :

يا مولانا السلطان ! لا يحل لك أن تأخذ أموال الناس إلا بوجه شرعى فإذا نفد ما فى بيت مال المسلمين فانظر إلى ما فى أيدى الأمراء والجند وحلى نسائهم فخذ منه ما تحتاج إليه فإذا لم يف بالحاجة نظرنا فيما تريد ، هذا هو دين الله تعالى إن سمعت آجرك الله على ذلك و إن لم تسمع فافعل ما شئت ، فإنا نخشى من الله

تعالى أن يسألنا يوم القيامة لم لا نهيتموه عن ذلك وأوضحتم له الحق .

فخفتت الأصوات وساد الصمت وانصرفت الأنظار إلى السلطان لترى أثر كلمات الشيخ ، فنكس السلطان رأسه وامتدت يده إلى لحيته لحظات ، وكان يجل شيخ الإسلام ويفسح له صدره ويغدق عليه الأرزاق تقربا إلى الله وقد كان طلبه لمناصب القضاء العليا مرارا فكان ينفر منها تعففاً .

وفى خلال ذلك السكون المخيم بالمجلس دخل الفتى الذى تركه الشيخ ممسكا بزمام البغلة وكان كلام الشيخ قد نفذ إلى صدره فألهب مشاعره وأطلق لسانه يجرى فى فضاء الحوش على غرار كلمات الشيخ الجليل فقال :

« إنما الأموال فى خزائنكم معشر الأمراء تبخلون بها على سبيل الله ومجاهدة أعداء الله وتنفقونها فى جهاز بناتكم وزينة حلائلكم من الجوهر واللآلئ والذهب والفضة حتى لتجعلوا لبيوت الخلاء آنية الفضة ولنعال نسائكم رصائع من الجوهر الكريم وتفرشون لدواب الملوك شقائق الحرير وبدرات الذهب ، فإذا جاء يوم الكريهة بسطتم أيديكم إلى أموال الناس وقبضتموها عن أموالكم »

فتغير وجه السلطان من الغضب ودمدم الأمراء بالوعيد .

لقد اقتحم المجلس غلام ليس من أهله فسفه أحلامهم وشهر بكرامتهم ولئن كانوا قد غضوا من أبصارهم عن مقالة شيخ الإسلام فذلك توقيراً لمنزلته من المسلمين ، ولكن ما شأن ذلك السفيه ومن أين جاء ؟

وتحرك صف طويل من المماليك إلى الوراء وعقدوا عزمهم على قتل الغلام .

ومشى شيخ الإسلام خطوات إلى الباب وقد رأى بعينه تنمر الجنود وتهالكهم على الفتك بالفتى المسكين ، فأمسكه بيمينه ثم خرج ، فلم يجسر أحد منهم على الدنو منهما حتى ركب الشيخ بغلته والغلام آخذ بزمامها .

فلما هبطا إلى الطريق أحاط بهما بضع عشرات من فتيان الأزهر وطلاب المعاهد الأخرى وتسامع بهما الجماهير فملئت الشوارع بألوف من الدهماء يدعون لشيخ الإسلام .

وتلطف الشيخ بالناس حتى انصرفوا أرسالاً وسار هو فى قلة من فتيان الأزهر وكان يقطن دار بنت السعيدى بحارة برجوان ، فلما بلغ حى الكافورى صرف الطلبة وشكر لهم مروءتهم ودعا لهم بخير ، وانطلق والغلام إلى جانب البغلة حتى نفذا من خوخة الحاجب ودخلا الحارة ، وكان جماعة من المماليك يتعقبونهما من بعيد، فسبقوهما إلى الحارة من ناحيتيها وأطبقوا على الغلام فاحتملوه وفروا ، وكان عملاً جريئاً خاطفاً فمروا به من الكافورى إلى أرض الطبالة .

ورأى الغلام البيوت المشرفة على بركة الرطلى فاشتد حنينه إلى حماه بدار الوزير كاتب السر وصاح بالناس أستجير بكم معشر المسلمين من هؤلاء المماليك فتجمع الناس من حوله ولكنهم تفرقوا لما حمل عليهم المماليك بسيوفهم .

فلما جازوا بزاوية سيدى عبد القادر الدشطوشى كان الصياح قد ملأ الآفاق ، وكان سيدى الدشطوشى من كبار العلماء الصالحين واعظاً مذكراً يحضر ميعاده خلق كثير وله معرفة تامة بكلام أهل الحقائق وأرباب الطريق يزوره السلطان والأمراء عن محبة خالصة واعتقاد صحيح ، وكان مسجده ملجأ للمظلومين من المصريين يهربون إليه من قسوة الحاكمين فيحميهم ويظلهم برعايته ويشفع عند السلطان فى كثير منهم فلا ترد شفاعته ، وكان مجلسه حافلاً بالصالحين الزهاد .

فلما سمع الصيحة بباب المسجد خرج ومن حوله سيدى إبراهيم المتبولى وسيدى أحمد بن عقبة ، وكان سيدى الدشطوشى يلبس دلقاً واسعاً بغير تفريج ، فرأى الجنود ممسكين بالغلام فقال لهم : أرسلوه . فلم يذعنوا لأمره ، فغضب من وقاحتهم وصفق بيديه فخرج عليهم المريدون من صحن المسجد وبأيديهم المقارع ، وانهالوا بها على المماليك وقذفوا بهم فى عرض الطريق ، وكان الموقف جليلاً خطيراً . ولكم سبق للشيخ أن بطح على أرض المسجد من المماليك وأوسعهم ضرباً بالمقارع فلم يجسر منهم أحد على الشكوى واشتد ضجيج الناس لرؤية سيدى المتبولى ذلك الشيخ الصوفى الدين الخير المبارك مأوى الفقراء المنقطعين .

وعاد المشايخ إلى صحن المسجد و بينهم الغلام فمدوا بين يديه منديلاً به كعك جاف من جريش الحنطة وهو طعام أهل الريف وكان جائعاً فأكل وحمد الله فقال له الدشطوشى : ما اسمك يا بنى ؟ قال : اسمى ولى الدين بن حسن وقد نشأت يتيماً فى حجر سيدى تقى الدين بن مزهر كاتب السر فأحسن القيام علىّ ودفعنى إلى معاهد العلم فنلت منه نصيباً .

فقال له أحد الشيوخ : ولم اعتزلت ذلك السيد الكريم ؟ فقال : غلبتنى شقوتى فهجرت داره وحرمت نعمته بكلمة قالها ولده حيدر وهو أخى من الرضاع فلم أحتملها ولكم ندمت على فعلتى . فقال له سيدى أحمد بن عقبة :

اعلم يا بنى أن الكريم تنسيه الخلة الواحدة من الإحسان الخلال الكثيرة من الإساءة . وقال له سيدى الدشطوشى : وأين كان مقرك بعد خروجك من دار ابن مزهر ؟ قال : كنت أبيت فى خان السبيل بغير أجر ، وأقضى نهاري عند رجل كتبى أعاونه فيطعمنى ويكسونى ، وقد زارنا شيخ الإسلام فحمات له بضعة كتب إلى داره فتولى رعايتى إلى اليوم . فقال له سيدى المتبولى : تعال يا بنى معى إلى زاويتى أفتش لك عن عمل ترزقه فإن من لم يحترف لم يعتلف ، وكان المتبولى شيخاً صوفياً صواماً قواماً من الكدادين يحيى الليل الطويل ويشد اللفائف على ساقيه فى أول الليل كأنه خارج إلى سفر طويل ليقوى بذلك على قيام الليل .

فانهال الفتى على راحتيه يقبلهما ، وقال له فى أدب : إنى أستعين بالله يا سيدى أن يهدينى بأخلاقك وينير باطنى بإشراقك فللعارفين مقامات وللمشتاقين علامات هى كتمان المصيبات وصيانة الكرامات .

فدعا له الشيخ وأردفه من خلفه على حماره وسلم على صاحبيه وانصرف .

وقال للفتى فى الطريق : ما أقصى أمانيك من الدنيا يا بنى ؟ قال : أشتهى يا سيدى أن أمارس مهنة الطب . فقال الشيخ : سأوصى بك الرئيس بن العفيف فهو عميد بمعهد الطب المنصورى والله يتولاك برعايته وينفع بك الناس .

وكان للفتى مندوحة من إبداء تلك الرغبة فقد كانت دراسة الطب بمصر مورداً عذباً كثير الزحام .

وكان بالقاهرة فى ذلك العصر الزاهر ثلاثة معاهد لدراسة الطب بأنواعه ، أكبرها المعهد المنصورى الذى شيده الملك المنصور قلاون عام ١٢٨٤ م وجعل به مارستاناً [١] ذا أجنحة أربعة ووقف عليها أعياناً غلتها خمسون ألف دينار كل عام فكان به جناح للحمى وآخر للرمد وثالث للجراحة ورابع للولادة ، وألحق به صيدلية عظيمة ومطبخاً لطعام المرضى وتحضير الأدوية والأشربة ووظف به عدداً من الرجال والنساء لخدمة المرضى .

وكان كبير أطباء مصر لذلك العهد الرئيس شمس الدين القوصونى ، فأشرف على إدارة المعهد وتولى به العلاج ، وكان عميد قسم الرمد الرئيس عبد الرحمن ابن الشريف

وكان بالجامع الطولونى وبالقلعة فرعان من معهد الطب الأكبر لدراسة ذلك الفن الجليل ولتخفيف الضغط عن المعهد الأكبر .

(١) فارسية معناها مستشفى

الفصل الثانى عشر

خيال الظـــل

كان من محاسن القاهرة كثرة رحابها الفسيحة التى كانت تموج أبداً بالعابرين والباعة ليلا ونهاراً ، فهناك رحاب باب اللوق الخمس وقد أخذت برقاب بعضها وانعقدت بها عدة حلقات ، فهذا صاحب دب يرقصه ، وذاك صاحب قرد يغنى له ، وبينهم جماعات الحواة يعرضون على الناس أنواع الثعابين والأفاعى وأهل الفراغ من حولهم صفوف وحلقات تضيق بهم الرحبة على سعتها ويلتوى الطريق على المكارين حين يعبرون إلى رحبة التبن وإلى قنطرة الدكة .

وكان أعظم الرحاب قدراً تلك التى بين القصرين ، فاذا أسبل الليل ستاره تجلى حسنها وأوقدت فيها السرج والتنانير صفوفا زاهية زاهرة متعددة الألوان والأقدار فلا تدع لظلام الليل فرجة إلا غمرتها بأنوارها .

وكانت سوقها حافلة بالمتاجر العظيمة تضيق حوانيتها بالباعة فيجلسون فى عرض الطريق صفين متقابلين يمتد أحدهما من باب المدرسة الكاملية إلى باب المدرسة الناصرية ، وكانوا يحملون أطباق الخبز الرقيق المختمر ولحم الدجاج والأوز المطجن والقطا وفراخ الحمام فيباع الرطل منها بدرهم أما العصافير المقلوة فكان كل عصفور بفلس ، وكل أربعة وعشرين عصفوراً بدرهم .

وكان بالساحة مشارب لطاف وحانات يتغنى فيها النساء على إيقاع الدفوف والنفخ بالشبابات ويلعب الناس بها النرد والشطرنج والرقاع برهان ويشربون الأفاويه والزنجبيل وحب الرمان وفى بعضها يقدم شراب المزر الأبيض وهو نبيذ

الحنطة وبها مجالس القصاص يتلون سير الأبطال على أنوار الشموع والناس من حولهم يستمعون .

وكان أجمعها لأسباب التسلية ملهى خيال الظل، وهو نوع يدور بالقاهرة لتسلية الطبقات العليا بل أعلى طبقات الناس ، وكان تمثيلا لروايات عن بعض الأمراء والملوك بأسلوب فكاهى راق ، وكان أبدع من كتب فيه محمد بن دانيال الطبيب الكحال الذى عاش فى القرن السابع الهجرى ، وكانت أجمل القطع التى يشتاقها جمهور الناس طيف الخيال وهى صورة واضحة من ثقافة مصر وشؤونها السياسية فى ذلك العهد ، وتليها فى الطرافة رواية عجيب وغريب ، فكان الذى يعرضها يصور للناس ثلاثين صنفاً من أسواق القاهرة فتعرض على النظارة كافة الشخصيات المختلفة الواحدة بعد الأخرى وتصف كل واحدة مهنتها بروح فكاهية مرحة (١) .

وكان يدير الملهى فى تلك الأيام رجل اسمه أبو الخير فكان به الموائد العديدة يحف بها الناس حلقات والجدران والسقف تشع بالأنوار .

فتوافد الناس ذات مساء على الملهى يشهدون قصة عجيب وغريب وغالبهم طبقات خاصة من أبناء الوزراء وحرس السلطان و بعض الأمراء فأسبلوا ثياب التنكر ليطيب لهم اللهو وأسباب السرور .

وكان بصدر الملهى قريباً من شاشة العرض مائدة حولها ثلاثة من المماليك ملثمون عليهم مآزر سود تخفى ثيابهم وسيوفهم ، وبجانبها مائدة أخرى تصدرها شيخ معمم فى ثياب أهل المغرب ومعه أربعة من الفتيان فى أزياء تجار ، ويليهم فتيان أربعة ملثمون فى المآزر السود كالسابقين .

وتعاقبت الموائد فى الفناء الفسيح والناس من حولها جلوس .

---

(١) رسالة بول كاله .

وكان أبعد الموائد عن شاشة العرض مائدة لفتى معمم من أوساط الناس . و بلغ باب الملهى مكارى يسوق بين يديه حماراً عليه كهل معمم فى ثياب أهل القاهرة وكان المكارى غلاماً وسيم الطلعة فجعل يساوم و يشتط فى الأجر ، فأجاب الشيخ طلبه ودخل الملهى ، فتعلقت به عيون أصحاب الموائد وتنافسوا على جلوسه بينهم فقد كان أديب القاهرة الكبير بدر الدين الزيتونى وجعل يتنقل بين الموائد باحثاً عن إخوانه الذين يسمرون معه فاصطدم برجل ملثم من أصحاب المآزر السود بيده قدح من المزر يشربه فكشر الرجل عن أنيابه وأسمعه من خلال مئزرة صلصلة السلاح، فأجفل منه الزيتونى وتعوذ وأسرع إلى ناحية أخرى فعثر بضالته وكانت مائدة حولها رجلان من خاصته الذين اعتاد الجلوس معهم فيتفسحون فى الحديث و يتنادرون فى مرح ودعابة بريئة وكانا مجد الدين الشطرنجى وأصيل الحضرى .

فنادى الأخير غلام الملهى ليحمل إليهم زبادى من حب الرمان فمنعه الزيتونى وأخرج من كمه ورقة مطوية وقال: إن شرابنا الليلة من هذه ، وناولها للغلام ووصاه بصنعها فسأله الشطرنجى عما فى الورقة فقال : ذلك شراب عطات منه مجالسنا فهو قهوة البن جئتكم بها من نقيب أهل اليمن النازلين بالأزهر فهم يطبخونها و يحملونها فى السكارج و يطوفون بها على المشتغلين بالأذكار وقد طبخت لى اليوم فأعجبنى ريحها الطيب وشرابها السائغ .

وسأله الحضرى : أين كنت الساعة ؟ فقال : كنت فى سوق الوراقين فدخلت حانوتاً أقلب فيه الكتب المنضدة أبحث عن كتاب أشتريه وأطلت النظر فى جمال الكتب ذات الورق الحريرى وأقلام الزينة والجلود المذهبة وكثرة الناس و إقبالهم عليها وكان فى وسط الجماعة دلال رفيع فى يده كتاباً يعرضه على الناس و يشيد بذكره ، فلما رأنى صاح وقال: ياسيدى الزيتونى هاك كتاباً كنت سألتنى عنه منذ أمد قل فيه كلمتك فتناولته وقد أعجبنى تجليده وقلت: بورك فيك دلال الخير

هو على بعشرة دراهم فصرخ الدلال : أليس من مزيد ؟ فزاد أحد الناس درهمين وزاد آخر درهماً واعتقد الدلال أن السوم قد وقف عند هذا الحد ، فنهض بين الناس رجل عليه هيئة الرياسة وقال : علىّ بدينارين ، فتقدمت من الرجل وقد ظننته فقيها فلما حدثته بشأن الكتاب قال: لست بفقيه ولا أدرى ما فى الكتاب ولكننى أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان القاهرة و بقى منها موضع يسع هذا الكتاب .

فالتفت الحضرى إلى الزيتونى وقال : نعم لا يكون الرزق كثيراً إلا عند هذا الرجل ألا تراه يشترى الكتاب ليسد به ثغر خزانته ؟

وجاءهم غلام الملهى و بيده سكرجة من فضة وأقداح فصب فى الأقداح قطرات لكل واحد فلما استوعب الشطرنجى قدحه بدأ نشاطه وتنبهت عيناه وصاح : علينا بها كل ليلة فما أطيبها وأحلى مذاقها ، فقال الزيتونى متهكماً : ألا تدرى أن سيدى بدر الدين بن مزهر متولى الحسبة قد حظر على الناس مذاقها فقال الحضرى مغضباً : ليت الذين حرموها شهدوا أثرها فى الأبدان ، فقال الزيتونى :

يا قهوة تذهب هم الفتى ... أنت لحاوى العلم نعم المراد
شراب أهل الله فيها الشفا ... لطالب الحكمة بين العباد
نطبخها قشرا فتأتى لنا ... فى نكهة المسك ولون المداد
كاللبن الخالص فى حله ... ما خرجت عنه سوى بالسواد
حرمها الله على جاهل ... يقول فى حرمتها بالعناد
فيها لنا تبر وفى حانها ... صحبة أبناء الكرام الجياد

وكانت أقرب الموائد إلى الزيتونى تلك التى كان عليها الشيخ المغربى وأتباعه الأربعة المطوقون بازياء التجار، وكان الشيخ يستمع إلى حديث الزيتونى ، فتقدم بمقعده خطوة حتى لا يفوته الحديث .

فقال الشطرنجى : ما حديث المجالس ؟ فقال : الحضرى عند الزيتونى الخبر اليقين ، فقال الزيتونى : ألا ترون الذى أرى أن المدينة تغلى وتتمخض عن ثورة تأكل الأخضر واليابس أوقد جذوتها شيخ الإسلام بحديث الأمس الذى نفذ إلى آذان السلطان والأمراء وقد زادها لهباً ذلك الفتى الأزهرى النجيب الذى عقب على كلمات الشيخ .

فقال الشطرنجى : لله دره ماذا قال ؟ قال : لقد اقتحم طريقه إلى مجلس السلطان وما كان دعاه إليه أحد ، فأوسع جراح الأمراء بالتشهير والانتقاص ، كأنه صدى الصيحة التى نادى بها أهل القاهرة من فداحة الضرائب التى تكال منهم ثم تبذر بين المماليك بغير حساب ، وكاد الجنود يقتلون الغلام وهو ممسك بركاب شيخ الإسلام ، فوقف دونه سيدى الدشطوشى وأحسن تأديبهم بأطراف المقارع .

إن أصحاب البيوت والبساتين والحمامات والطواحين والأفران والمراكب أكرهوا على دفع ضريبة تعادل أجرة شهرين عن أملاكهم ، ولم يقف الأمر عند ذلك بل خرجت على الناس ضريبة أخرى تعادل أجرة خمسة أشهر ، فكان الرجل لايبرح عتبة داره حتى يتلقفه أربعة من الرسل يضيقون عليه الخناق حتى يدفع الضريبة .

وكان الناس منصرفين إلى الفرجة على الشاشة ومايلوح فيها من المضحكات وأسباب التسلية إلا ذلك الشيخ المغربى ، فانه أرهف السمع إلى حديث الزيتونى حتى استوعبه فعاد إلى تحريك مقعده حتى قارب الزيتونى وقال يحدثه : لقد أحسنت التعبير عن شكوى الناس بأسلوبك الطلى وعبارتك المعقولة ، فقال الزيتوني : وكيف يستمع لى قوم جعلوا همهم جمع المال بكل وسيلة ؟ أولئك أعوان السلطان الذين يفعلون مايؤمرون ! ولا تنال محبة الشعب إلا بإفساح الرزق وتوفير منابع الثروة ، هنالك تهون الضرائب لأنها تجبى من يسار الشعب وفاضل رخائه ، فقال الشيخ :

ليت فينا بعض أعوان السلطان فيبلغه ذلك الرأى الرشيد . وفى خلال الحديث عرض على الشاشة مثال لصبية تغنى على دف بيدها وأمامها رجل ينفخ فى شبابة[١] وسمع الناس من وراء الشاشة صوت مطربة تغنى ومعها رجل ينفخ فى شبابة ، فكان نظماً رقيق المعنى يطابق الحال يغنى بصوت شجى ولحن حزين وهو :

غرمت شهرين عن أجرة مكانى أمس وأصبحت مغموس فى بحر المغارم غمس
أقسم برب الخلايق والقمر والشمس ماطقت شهرين كيف أقدر أطيق الخمس

فنفذ غناء الصبية إلى قرارة النفوس حتى ضج جمهور النظارة بالألم ، وصاح من أقصى الموائد فتى أزهرى وتقدم الصفوف حتى وقف إلى جانب الزيتونى وقال: لقد علمت ياسيدى أنك صاحب اللحن الذى غنته الصبية من وراء الشاش ، وقد بلغت به أعماق الصدور . فقال الزيتونى : من أنت يابنى ؟ قال : أنا طريد المماليك أنا الذى عقب على مقالة شيخ الإسلام فى مجلس السلطان ، ونددت بالأمراء الذين فاضت بالمال خزائنهم ، فبخلوا بها فى سبيل الله وأنفقوها فى جهاز بناتهم ونعال نسائهم و بسطوها حريراً غالياً تحت دواب ملوكهم ، فإذا كان يوم الكريهة وهلت الحرب على الأبواب بسطوا أيديهم إلى أموالنا وقبضوها عن أموالهم وضاعفوا علينا الضرائب ليفشوا فينا الغلاء والجوع والفاقة والمسكنة ، ولقد هموا بقتلى بالأمس لولا فضل الله .

فتحرك ثلاثة من أصحاب الموائد الملثمين وألقوا مآزرهم فلاح من تحتها ثياب المخمل الأحمر و بريق الذهب من مناطقهم وحمائل سيوفهم واندفعوا إلى حلقة الزيتونى حيث وقف الغلام الأزهرى وصاح به أحدهم وقال :

لئن فاتك الموت بالأمس فستلقاه الساعة بأيدينا أيها السفيه الذى يشتم سادات البلاد . فوجم الناس ولزموا موائدهم صامتين من الخوف .

---

(١) ناى .

وذعر الفتى الأزهرى وجعل يتلفت حوله يستنجد بأهل الموائد وصاح بصوت ملأ الأسماع وتردد صداه فى أرجاء الملهى :

من يجيرنى من هؤلاء القتلة يا أهل الموائد أنشدكم الله .

فلم يتحرك من الحاضرين أحد ، وسادهم صمت رهيب ، وعلى حين فجأة طلع من الموائد صوت يقول : « أنا أجيرك » .

وكانت مائدة حولها أربعة فتيان ملثمين عليهم المآزر السود ، فوقف أحدهم ليتقدم الصفوف وإخوانه يمانعون فصاح تلك الصيحة وقال : « أنا أجيرك » والتفت إلى أصحابه وقال : لاتحركوا ساكناً حتى أعود إليكم .

وكان المماليك الثلاثة قد كشفوا عن ثيابهم وأحاطوا بالغلام الأزهرى ، ولكنهم تراجعوا قليلا حين سمعوا صيحة القادم ورأوه يخطر بين الصفوف إلى ناحيتهم حتى خالط الفتى الأزهرى فلما تبينه صاح وقال : هذا أخى ولى الدين قد منّ الله علينا .

وكان القادم حيدر بن الوزير كاتب السر ، فضمه الفتى الأزهرى ودموعه تجرى وقال :

لقد نلت جزائى على سوء عملى و بطرى بنعمتكم يا أخى . فقال حيدر : بل أنا الذى عوقبت بالحرمان منك والبقاء وحدى من بعدك و إنى أستغفرك مما بدرمنى فأغضبك . فتأثر الناس من ذلك اللقاء .

وكان حيدر قد استدار إلى ناحية المماليك يحدثهم فى حزم وثقة راسخة فقال: ليس من المروءة أيها الإخوان أن يقاتل ثلاثة مسلحون غلاماً أعزل .

فقال له أحدهم : وماشأنك أنت أيها الفضولى ؟ تنح عن الطريق أو نقتلك قبله . فابتسم وقال : ما أهون حديث القتل على ألسنتكم .

فسل المملوك سيفه وقال : بل ما أشد هوانه على سيوفنا .

فنزع حيدر مئزره وطواه ورمى به إلى أخيه ولى الدين فظهر أمام الناس فى ثوبه المخمل الجميل ومنطقته المذهبة وسيفه الممتد إلى جانبه ومشى خطوات إلى المماليك ويداه مكتوفتان على صدره وقال :

والله إنى كاره لقتالكم ولو دفعتمونى إليه دفعاً وحتى الساعة لا زلنا تملكنا عقولنا فعودوا إلى مجلسكم وخلوا الفتى يمشى بسلام .

فقال الذى تولى الحديث منهم : إن الفتى قد أصبح لا يعنينا من أمره بقدر مايعنينا أمرك أنت فقد حملت فى وجوهنا السيف تحدياً واجتراء وسنريك أمام بنى جنسك المصريين أدباً غير الذى تعلمته .

فقال : معاذ الله إن كنت شهرت سيفى فى وجوهكم والناس على ما أقول شهود وإن كانت ترضيكم المعذرة اعتذرت .

فشمخ المملوك بأنفه وجعل يفتل شاربه صلفاً وكبراً وقال :

كلا حتى ترمى سيفك تحت قدمى وتجثو على ركبتيك أمامى أيها العبد !

فغضب حيدر وصاح به صيحة دوى رجعها فى أفق الملهى وقال :

تباً لك من أحمق أتظن أننى أحاسنك خوفا وفزعا ؟ ثم سل سيفه فتراجع الناس إلى الوراء من شدة الخوف ، ووثب رفاق حيدر من مجالسهم فأشار إليهم بيده فجلسوا وكذلك تحرك الفتيان الأربعة الذين حول الشيخ المغربى فنظر إليهم نظرة حازمة فسكنوا . واتسع فناء الملهى للقتال بعد ما تراجع الناس ونشب القتال بين المملوك وحيدر ولكنه لم يطل ، لأن حيدراً تفوق على قرنه وأطار سيفه من يده فولى المملوك هارباً .

وأحاط المملوكان الباقيان بحيدر فتراجع إلى الخلف وقابلهما مجتمعين فأصاب أحدهما فى كتفه والآخر بيمينه التى بها السيف فانهزما ولحقا بصاحبهما ، هنالك

تحرك الشيخ المغربى وقال : بارك الله فيك من فتى شجاع لقد أنصفتهم من نفسك وأحسنت فى المعذرة إليهم وازددت كرماً بالعفو بعد المقدرة عليهم .

ثم قام الشيخ وسلم وخرج بين فتيانه الأربعة .

واستعاد الناس أمنهم وحرية جلوسهم ورجعوا إلى ما كانوا حلقاً متجاورين ودوى أفق الملهى بهتافهم ودعائهم وتهليلهم ، وصاح الزيتونى يخاطب حيدرا : كيف أثنى عليك ياسيدى وقد جملك الله بنعمة الحسن ودرعك ببأس الأبطال ، ثم نادى أبا الخير صاحب الملهى وقال : لقد ازدهى المجلس بهذا السيد الذى يطيب فيه الحمد والثناء ويحلو التغريد والغناء .

وكان صاحب الملهى قد استأجر إحدى المطربات وتدعى بدرية ومعها أستاذها المحلاوى أكبر نافخ بالشبابة فغنت الصبية على وقع الشبابة وقالت :

يامن تنكب قوسه وسهامه ... وله من اللحظ السقيم سيوف
يغنيك عن حمل السلاح إلى العدا ... أجفانك المرضى فهن حتوف

فتعالى الهتاف لحيدر وضج الناس بالدعاء له ، وبعد ذلك خرج مع أخيه وأصحابه الثلاثة ولم يستطع أحد من أهل الملهى أن يعرفه .

وسمع بعد ذلك صوت نفير من الخارج فقال الزيتونى: لا يعدو أن يكون بعض الكتائب فى طوافهم فقال له الحضرى مداعباً : وما يدريك لعلهم المماليك الذين مثل بهم صاحبنا قد جمعوا إخوانهم وعادوا يثأرون لأنفسهم .

وكان بعض الحاضرين قد خرج يستجلى الخبر فعاد وقال: إنى أرى رجلاً من الجند وقدامه رجال يحملون المشاعل وحوله عدة من السقائين والنجارين والهدادين بفؤوسهم ، فقال الزيتونى : ذاك والى العسس الذى يطوف القاهرة كل ليلة بعد صلاة العشاء وقدامه تلك النوب من أهل المهن خوف الحريق فيطفئونه

ومن حدث منه خصومة أو وجد سكران أو قبض عليه من اللصوص تولى والى العسس أمره .

وقال الحضرى : لقد كنت أراه عند منصرفى ليلا يستريح من طوافه فى الشارع الذى على رأس حارة الجودرية قريباً من دربنا .

ودخل الملهى رجل من سواد الناس ، وجعل يتلفت بين الموائد ثم وقف بازاء حلقة الزيتونى وقال :

خبرونى أيها الناس أكان بينكم الساعة شيخ ملثم فى ثياب أهل المغرب وحوله فتيان أربعة فى أزياء تجار .

فأجابه الزيتونى وهو يرجف من الخوف نعم يا سيدى لقد كان يجلس حول تلك المائدة وحدثنى وحدثته ثم انصرف .

فدق الرجل يداً بيد واشتدت صوته اضطراباً وقال:

أتدرى أيها الأحمق من ذلك الشيخ إنه السلطان فمن ساعة كان يطوف الجامع الأزهر وخالط أهله واستمع إلى أسباب شكواهم فما فطن به أحد حتى خرج .

فالتفت الزيتونى إلى أهل حلقته يكلمهم فى صوت مضطرب يكاد لا ينطلق من الخوف وقال :

ويلى من السلطان لقد كنت أشير بيدى فى وجهه وأنا أحدثه بعيوبه وما نلقاه من مظالم أعوانه .

وعاد الحضرى إلى دعابته فقال لئن كان السلطان هو الذى حضر مجلسنا واستمع إلى حديثك ليكونن اليوم آخر العهد بك وإن أشد ما أخشى أن يصلبوك على باب الملهى .

وكان نفير العسس قد اشتد ودوى فى أفق الملهى ثم انطلق النداء أيها الناس أنصرفوا إلى مساكنكم .

وكان الزيتونى أول من خرج وهو ينادى فى فزع وخوف ويلى من السلطان. وأقفلت الحانات والمشارب وامتد رواق الليل فوق ساحة بين القصرين العظيمة .

الفصل الثالث عشر

خان الخليلى

كان خان الخليلى قديماً مقبرة الخلفاء الفاطميين إلى عصر سلاطين المماليك ، وفى أيام السلطان برقوق قام أحد الأمراء المسمى جركس الخليلى فهدم تلك المقابر وألقى ببقايا الخلفاء على تلال البرقية التى فى شرق القاهرة وشيد مكانها خاناً عظيماً يحمل إلى اليوم اسمه وكان ذلك عام ٧٩٠ هـ أو ١٣٨٨ م وفى عام ٩١٨ هدمه السلطان الغورى وشاده من جديد على ما هو عليه الآن وأصبح الخان مقراً لتجار الجواهر الثمينة وثياب الزركش الغالية وفيه سوق الرقيق المماليك ومقر تجار العثمانيين الذين اتخذوه مركزاً للدسائس والدعاية ، وكان تجاره مياسير و بينهم تجار الأخفاف ونعال النساء غالية الأديم الجيد الرفيع القيمة وتجار الخز الطرازى والقصب الخاص الطرازى وحرير الهند وشاشاته .

وكان بصدر الخان تاجر يبيع قماش النساء وفاخر الثياب اسمه بدر الدين الغزولى يشرف متجره على الرحبة التى فيها خان الرقيق وكان يجلس عنده أهل الفراغ واللهو من شباب القاهرة وأدبائها ، وقد اختص بنديمين من ظرفاء المدينة أحدهما أصيل الحضرى خلاصة أهل القاهرة رقة وأدباً وفكاهة ، والآخر مجد الدين الشطرنجى وهذا أوحد زمانه فى الشطرنج .

وأصبح الخان فى عمارته ذات يوم صائف بعد خمس سنوات من حكم السلطان قايتباى ، وكان بدر الدين فى صدر متجره و بين يديه بضع شقق بيرمية من القطن وقناطير من و بر السمور يحملها غلمانه إلى الرفوف .

وأقبل عليه نديماه وجلسا حوله متقابلين ، فقال التاجر للشطرنجى : مالك بكرت اليوم على غير عادتك ؟ فقال الشطرنجى : لقد زارنى الليلة ضيف يهوى الشطرنج حتى أصبح به مستهتراً ، وكانت المغرب قد وجبت فقلت له بت الليلة عندى نلعب الشطرنج ونتحدث فما قبل فقلت إذن نصلى المغرب ونلعب دستاً أو دستين إلى وقت العتمة[1] وتنصرف فصلينا المغرب ولعبنا وطاب اللعب لنا فواصلناه والليل يمضى ونحن لا نشعر به إلى أن أحسسنا فى أنفسنا بتعب شديد وضجر ووافق ذلك سماعنا للآذان فقال لى قد أذنت العتمة وتعبت ولا بد من قيامى فناديت غلامى فلم يجب فقام الضيف معى ننبه الخادم فلما خرجنا نظرنا فإذا الآذان هو آذان الغداة[2] وإذا الليلة كلها قد مضت ، ونحن لا نعقل فخرجت فى أثره إلى السوق حتى وضح الصبح . وقال الحضرى : ليس هذا بمستغرب منك فما نسيت ليلة قضيناها فى دارى نلعب الشطرنج ،وقد بركت على الأرض واتكأت على ذراعيك كالنائم ،وكان صغارى من ورائك يضعون المخاد على ظهرك فلا تشعر بها حتى انقضى الدست فنحيت المخاد عن ظهرك .

وقال له الشطرنجى : وأنت مالك بكرت بالحضور ؟ فقال : لقد هبطت سوق البزازين فى طلب كساء لى وقلت أجد حاجتى عند نقيب السوق محمد المرجوشى . وكنا قبل عمار السوق فلمحت غريماً لى كان يطلبنى حثيثاً بثمن كتان حملته لزوجتى تنسج منه أبداناً ثم تبيعها فتواريت منه حتى انصرف وخشيت عودته فنفذت إليكم من خوخة فى درب ضيق .

وظهرت على الأثر فى أول الرحبة محفة من المخمل الأحمر نسجت ستورها بخيوط الذهب يحملها أربعة من المماليك قد شد كل وسطه ببند من الحرير الأصفر وعلى صدر المحفة رنك سلطانى، وكان يمشى أمامها مملوك جليل القدر يحمل قضيباً

(١) صلاة العشاء . (٢) الفجر.

بدر الدين التاجر فى متجره

من الفضة يفتح به الطريق ، واستقرت المحفة بباب المتجر فوقف الحاضرون وشرعت الستور وخرجت سيدة فى إزار من حرير أخضر نسج بخيوط الذهب وعلى وجهها بخنق[١] من حرير شفوف يمتد من أسفل جيدها إلى جبينها وعلى رأسها عصابة من حرير نظمت بحبات لؤلؤ كبار ، وخرجت من بعدها وصيفتها .

وكانت خوند جلبان حفيدة السلطان خشقدم ومعها وصيفتها زمرذ ، فخدم لها صاحب المتجر ونديماه وتنقلت على شقق من الحرير الأحمر والأصفر فرشت لها ، ثم استقرت على وسائد من ريش النعام بداخل المتجر و بين يديها الوصيفة قائمة و بالباب قهرمانها بهادور .

وحسرت الأميرة لثامها فأشرق النهار من جمال مقلتها واستعرضت ما أعده التاجر من الطرف النادرة فقال لها :

لدينا يا مولاتى الغلائل الرقاق من الكتان الناعم وأصناف من الرداء الرشيدى والطبرى والقصب الملون والأكمام المفتوحة والسراويل البيض المذيلة و بين ذلك شقق من الحرير المختم المرقوم بالذهب للباس الأميرات و بنات الملوك ولدينا النعال الغالية الأديم يشرك أديمها الأسود بالأحمر والأصفر بالأبيض وجوارب الخز الثمين.

فقالت خوند : وماذا يحضرك من أنواع الفراء فقال : لدينا أكرم الأوبار من جلود الفنك الخراسانيه وجلود الثعالب السود .

فمدت يمينها تقلب الثياب والأوبار فأشرق بنانها بوميض خاتمين من زمرد وماس ، واختارت من بين الأصناف ما أعجبها .

وحملت إليها موائد الفضة عليها تفاح و إجاص ، وقال التاجر : باسم الله يا خوند لقد حملت إلينا الفاكهة من غوطة جلق[٢] ، وحمل إليها قدحاً من الذهب فيه شراب ، ثم عاد الغلمان بمجامر الفضة يسجر فيها الكافور مخلوطاً بمسك وعود معنبر ،

(١) ما يسمى اليشمق . (٢) دمشق .

ودنا منها التاجر ينثر عطوره عليها وقال: ذلك الطيب يا مولاتى مسك محلول بماء الورد وهو خلوق الأميرات لا تجدين له لوناً أما عطور الغالية فهى طيب الغلمان .

فشكرته الأميرة لحسن حفاوته ، وأومأت إلى قهرمانها بهادور فحمل كيساً من الحرير الأصفر من تحت بنده وأفرغ ما فيه من الذهب فى الميزان وترك للتاجر بقية المال، فوقف وخدم وأكثر من الدعاء ، ثم أشارت إلى غلمانها فحملوا الطرف المختارة إلى المحفة وتحركت للعودة، فوقف التاجر وصاحباه وخدموا، وحملها المماليك وسار أمامهم بهادور يفسح الطريق حتى توسطوا الرحبة ، فاعترضهم شاب فى زى أبناء التجار يمشى الخيلاء ، وكان بهاء الدين بن ملك التجار الذى عرف بمغازلة الغوانى والوقوف لهن فى المسالك والدروب وكم نالته سياط التأديب من أيدى الشرطة وهو مسمر بباب حمام السلطان .

فأراد العبث بالأميرة فنادى: أسفرى بالله يا ربة المحفة، فلم يجبه أحد فقال منشداً:

جعلت إليك الهوى شفيعاً فلم تشفعى
وناديت مستعطفاً رضاك فلم تسمعى

فرفع السجف ونظرت إليه الأميرة مغضبة فلما رآها صاح وقال :

شمس إذا طلعت قالت محاسنها هاقد طلعت فياشمس الضحى غيبى

فاشتد بالأميرة الغضب وقالت : أما تستحى يا غلام !

فتمادى الأحمق فى غيه وتغنى وقال :

لقد رام ضوء الصبح يحكى جبينها مراراً فما حاكاه وافتضح الصبح

فقذفته بإناء فيه مسحوق أبيض غمر ثيابه ووجهه فمسح الخبيث أثره من عينيه ثم لحق بالمحفة وركع أمامها وقال :

كل شئ منك فى عينى حسن ونصيبى منك هم وحـــزن

فلاح فى الرحبة شبح فتى يمشى فى ثياب أبناء العجم ويتميز غضباً من سوء

أدب بهاء الدين فانقض عليه وأوسعه لكما بيديه وركلا بقدمه ، وكانت خوند قد برزت من ستور المحفة وملأت منه ناظريها فهتفت به فى طى سرها وعاودتها ذكرى يوم القبق . وكان الفتى قد رفع إليها بصره باسم الثغر وقد ظنها خوند جلنار ابنة الملك المنصور ، وذلك لفرط ما بين الأميرتين من شبه ، ثم خفض بصره وقبل الأرض وكانت خوند قد أغدقت عليه من إشراقها نفحة رضى ولمحة إعجاب ثم توارت خلف الأستار وغابت بموكبها عن بصره .

وقال الحضرى للغزولى : لقد نال التذل جزاءه على وقاحته ولكن من هى تلك الغانية التى ملأت أفق الخان نوراً وبهاء وأكف الناس بذلاً وعطاء ؟

قال : تلك ملكة الخان وغانية السوق لا نعرف اسمها ولا ندرك كنهها فهى تغشى الأسواق يومين من كل شهر لتبتاع الطرف الغالية فما عرف عنها أنها استردت بقية المال الذى تبذله ثمناً لما ابتاعت .

وكان كبار تجار الرقيق يصلون إلى السلطان ويبيعونه ما يختار من الجوارى والغلمان فكانت لهم الخلع والرواتب الدائمة فمن باع ولو رأساً واحداً من الرقيق فله خلعة خارجة عن الثمن وقد يعطيه السلطان مالاً يتجر فيه .

وكان تاجر المماليك السيد أمير جان رئيساً حشماً فى سعة من المال وجيها عند الملوك وقد جلب إلى مصر غالب أمراء العصر من كبار المماليك ، وكانت له وكالة فسيحة الأرجاء بخان الخليلى بها المقاصير للجوارى والغلمان ، وللجوارى قيم وللغلمان قيم ، وبابها يشرف على الرحبة الكبرى التى اكتظت بالمتاجر وفيها تقوم سوق الرقيق فتعرض الجوارى والغلمان على دكة عالية فى وسط الرحبة تشرف عليها أرباب المتاجر المحيطة بالرحبة .

وكان لخان الرقيق باب خلفى تدخل منه كرائم الأسر وعقائل الأمراء فوق

درج يمتد إلى شرفة فسيحة تطل على الرحبة فيشاركن جمهور المتفرجين ويشهدن كل جارية أو غلام ينادى عليه الدلال .

وحدث من غريب المصادفات أن خوند جلنار ابنة الملك المنصور قدمت فى موكبها إلى خان الرقيق ودخلته من بابه الخلفى وأقامت فى شرفة محجبة ترقب الرحبة وكان فى الناحية المقابلة لشرفتها متجر لرجل من العثمانيين اسمه الخواجا شلبى عرض فى صدره أنواع الجوهر والحجر الكريم وقلائد الذهب فى خزائن من البلّور ، وكان المتجر فسيحاً يمتد منه دهليز مظلم فيه درج يرقى إلى طبقة عالية تشرف على الرحبة وبها يجتمع الأمراء الناقمون على الدولة القائمة فيتبادلون الرأى ويعقدون المؤامرات، وكانوا يصلون إلى تلك الطبقة من خوخة غير ظاهرة خلف الخان ، وكان صاحب المتجر يفسح لهم الطريق ويراقب المارة ويتعرف الوجوه وينقل إليهم كل حديث يقال ، فإذا أنذرهم بالشرط سلكوا فى هربهم نفقاً تحت الخان يمتد إلى دار مهجورة فى درب بعيد غير مطروق، وكان النفق من آثار الخلفاء الفاطميين يمتد تحت الساحة المعروفة بساحة بين القصرين .

فدلف إلى خوخة المتجر ذلك اليوم ملك التجار أحمد بن كاوان والأميران برد بك وإينال ثم لحقت بهم خوند جلبان أخت الأمير أحمد بن العينى فوقف لها الجميع وأجلسوها صدر القاعة ووقف بالباب قهرمانها بهادور ووصيفتها زمرذ، وكان قد تقدم إلى صدر الخان شيخ قصير القامة طويل اللحية وبين يديه جارية عرجاء دميمة ، فعرفه الحضرى وناداه وقال: ماحل بك يا ابن الماوردى أتتزوج بعد أن عشت إلى أرذل العمر ؟ وكان الشيخ يدنو من التاجر فناداه : إنى أشكو إليك ياسيدى الخواجا قيمة الجوارى ، وكانت القيمة بالباب فقالت: ما تشكو منى يا شيخ ؟ فنظر إلى الجارية وأشار إلى وجهها وقال :

لما جلوا عرسى وعاينتها وجدت فيها كل عيب يقال

فقلت للدلال ماذا ترى فقال ما أضمن إلا الحلال

وجعل يحدث القيمة فقال :

لقد بعتنى هذه الجارية من شهرين فلما خلوت بها وجدتها عرجاء ، فالتفتت القيمة إلى سيدها التاجر وقالت : إنى يا مولاى كنت زوجته امرأة تؤنسه ولم أعلم أنه يريد أن يحج عليها أو يسابق بها فى الحلبة !

فضحك الحاضرون وقال الحضرى للجارية : كيف رضى بك هذا الشيخ يا أمة الله؟ فقالت: إن الحمار إذا جاع أكل المكنسة! والله يا عم إنه شيخ دينه حث الكاس وتنضيد الآس والتفكه بأعراض الناس فقد كنت جاريته يعيش من كدّى، كان يحمل إلىّ الكتان فأغزله وأنسج منه أبداناً وأظل عاكفة على مغزلى إلى ما بعد العشاء بعشرين درجة فإذا جاء الصبح غلق علىّ باب المنظرة وراح إلي السوق يبيع ما نسجته ثم يعود ضحى وفى كمه زق من الخمر وطعام شهى لنفسه أما أنا فيرمينى بفضلة عشائه فإذا بلغت منه الخمر قام يسبنى ويوسعنى لطماً، فلما قضى وطره منى وأحس بالجنين يزحمنى فى جوفى تنكر لى وساقنى إلى دار الرقيق يبيعنى، والله ما أبطرنى عيشه على سوء صحبته وقبح ذاته .

وصاحت فى وجه سيدها وقالت : الويل لى إذا كان الذى فى بطنى يشبهك .

فقال سيدها : بل الويل لك إن لم يكن يشبهنى .

فانهالت دموع الجارية تجرى وكساها الدمع جدة فى وجهها .

ومالت إلى التاجر متوسلة وقالت :

امنن على بصك يكون للدهر عده

تخط يمناك فيه الحمد لله وحده

فأعجب بذكائها وفطنتها ورق لها ونقد سيدَها ثمنها ثم أشهد الحاضرين أنه قد من بعتقها وردها إلى داره لتعيش بين الأيامى من عتقائه .

ولفت جمهور الناس ضجيج مقبل من أقصى الرحبة لاح فى أوله رجل حبشى عليه زى حاشية السلطان فى القباء الأطلس والعمامة المخمل والسيف الموشى، وكان بين يديه مملوك فتى ظاهر الحسن عليه زنط عتيق وهو زى المغضوب عليهم فلما رآه أصيل الحضرى صاح رباه ماذا أرى أشاهين غزالى مملوك السلطان المحبب إلى مجالس القاهرة وأهلها يساق فى زى النقمة ليباع بسوق الرقيق ، وأعجب مما كان أن مثقالا الحبشى ساق السلطان هو الذى ندب ليتولى البيع وهو أقرب الناس مودة إلى شاهين، تلك لعمرى سخرية القدر ببنى الإنسان ! فوقف التاجر يستقبل القادمين وأمر غلمانه فحملوا البسط ووضعت لمثقال حشية من المخمل على دكة عالية .

وازدحم الناس حول دكة الرقيق يتشوفون مملوك السلطان . وتراخى الدلال فى النداء حتى يجتمع مياسير الناس ووجوه التجار، فلما حفل السوق وقف الدلال ينادى ودعى شاهين للصعود الى الدكة ليراه الناس ، فأخذته العزة وتردد .

فوثب اليه مثقال مغضباً وقال يؤنبه:

أما كفاك استهانة بقدر مولاك وتفريطاً فى حق سلطانك ؟

ولولا أنها أسرار خطيرة لأعلنتها للناس .

ولطمه على خده وقنعه بالسوط فتقدم إلى الدكة صاغراً منكس الرأس وجعل يدفع لمّته الذهبية بيده ويمسح مدامعه بأطراف أنامله .

فتحسر الناس عليه ورقوا له رقة شديدة .

ولما رأى الأمراء الذين فى شرفة الخواجا شلبى أن الناس شغلوا بشاهين غزالى أخذوا يتحدثون بشئونهم الخاصة .

وبدأ الحديث الأمير إينال فقال : لقد نفدت الأموال التى حملتموها إلى الاسكندرية فقد ملأت بها أيدى السجانين القائمين على إخواننا فى معتقلهم حتى

مكنونى من زيارتهم فحملت لهم الطعام والكساء ودسست فيه المبارد والحبال ليكسروا القيود ويتدلوا من الأسوار متى حانت الساعة ، وقد سافرت المرة الأخيرة إلى القسطنطينية لأفاوض القائد العثمانى الكبير أحمد بن هرسك وأطلعه على التدبير الذى أحكمناه لنشوب الثورة التى نمتلك بها أبواب القلعة على أثر خروج الجيش إلى العراق لحرب شاه سوار ، وقد عاوننا القائد بالعتاد وآلات القتال فهى مكدسة بالشواطئ فى انتظار مراكب حليفنا ملك التجار لتحملها إلى مصر .

أما حلفاؤنا من الأمراء الظاهرية أتباع الملك المنصور عثمان فأغلبهم متردد ولكننى استعنت بأخى الأمير برد بك على استدراجهم إلى صفوفنا فقال برد بك: دعونا بالله من سيرة الملك المنصور عثمان ذلك الضعيف المستسلم الذى خلع من الملك بحق ، إنه أهون من لاقيت ، ولكن أمراءه قد استجابوا إلى الدعوة ومالوا إلى صفوفنا فملأت أيديهم بالمال وصدورهم بالآمال فى عودة مولاهم إلى الملك ، وقد أعطونا موثقهم على القيام معنا متى جهزنا لنا ولهم عتاد الحرب وحملناهم من الاسكندرية إلى القاهرة وقد خفى ذلك التدبير على مولاهم الملك المنصور والمقربين اليه من أمرائه وابنته خوند جلنار التى استجابت لدعوة قايتباى .

وقال الأمير إينال : لقد ملئت إعجابا بالبطل العثمانى أحمد بن هرسك فقد أشركناه بالأمس معنا فى مجلس أميرنا الكبير وسلطاننا المنتظر جان بك فجعل يفاوضه فى شؤون جيش مصر الذى بات على أهبة السفر إلى الحرب ، وطلب منا أن يطلع بنفسه على الكتائب يوم سفر الجيش ليرى مبلغ استعداده وقوة عتاده ، فجهزنا له دار رجل من أنصارنا قريباً من باب زويلة ، وقد استقر الرأى على قيام الثورة بعد سفر الجيش بعشرة أيام .

هنالك تحركت للكلام خوند جلبان ، فأمسك الجميع كأن على رؤوسهم الطير

فقد عرفت بسداد الرأى وصدق الفراسة فقالت :

أحذركم من ولاء الملك المنصور لقايتباى فإن من وراء ذلك عين الأمير أزبك الساهرة فهو صهر المنصور كما تعلمون لا يكف عن مداخلته واستطلاع أحواله ، وقد نسج من جواسيسه سياجاً كثيفا حول قصره وأتباعه ليتعرف المخلص من المنافق .

فقال برد بك : هذا الذى أخشاه وقد أعددت له عدتنا من المراقبة والحذر على أنى أكاشفكم بما دار بخلدى من الهواجس التى أصبحت تغالبنى وأُغالبها ، لقد زرت بالأمس أبا الكرم الفلكى المغربى وفاوضته فى استطلاع نجم قايتباى ومبلغ ما كتب له من أيام ملكه ، فاستعان باسطرلابه وراجع مخطوطاً عنده وكتب أرقاما وصوراً ثم أقبل يحدثنى أن قايتباى يمشى خطى واسعة إلى سعد السعود وسيطول حكمه بعد اليوم ربع قرن كامل ثم يخلفه ولده فلا يعمر طويلا ثم يليه ملك أول اسمه جيم وأول الثانى من أسمائه باء ، ثم يأتى بعد ذلك ملك باغ تنحل به دولتنا ، وكلا الرجلين حى يرزق الآن .

فقالت خوند : لقدحزرت أول الملكين فهو جان بلاط أحد الفرسان الخاصكية ومن نجباء المماليك يحب ابنة الوزير كاتب السر ابن مزهر وقد بشروه بالملك .

وقال برد بك : لقد أنذرنى الفلكى بأحداث هذا الشهر فلا أركب فيه أبداً لأن على فيه قطعاً ، وقال : أقم فى دارك بعيداً عن الناس حتى يكف عنك الرصد ، ولكنه حديث خرافة لايثنينى عن المضى فى العمل وسأحمل السيف حتى يحكم الله بيننا.

فتحرك ملك التجار للكلام وقال : دعوا بالله مهازل المنجمين فانها تفل العزائم وتوهن القوى فإنا قادمون على تجارب خطيرة وملاحم لا يعلم إلا الله عقباها لا نقطعها إلا بالايمان الراسخ بأن الحق فى جانبنا .

لقد سرحت إلى بلاد العثمانيين غراباً كبيراً كما أشار الأمير إينال ليحمل

إليكم عتاد الحرب من سهام ودروع و بنادق وأوصيت أن يغطى العتاد بصناديق البلّور المحمولة من ثغر البندقية لتخفى على المنقب معالم السلاح .

فبادرته خوند وقالت :

عليك أن تردف الغراب بمركبين يرابطان فى عرض البحر فتستقبلان الغراب وتحملان العتاد ومن فوقه مماليك الأمير برد بك وسائر المماليك الظاهرية فهم ينتظرون منكم أن تحملوهم إلى القاهرة ، ومن سداد الرأى أن يبلغ المركبان شط مدينة مصر ليلة وفاء النيل والناس لاهون بالفرجة على الزينة والصواريخ ، وإنى أوصيكم أيها الأمراء كافة أن تفتحوا أبواب قصوركم المشرفة على النيل وتطفؤوا أنوارها وتبعدوا عن مسالكها كل عابر سبيل ، وأعدوا المخابى والانفاق للجنود والعتاد ، وسأقوم بنصيبى من ذلك التدبير ، واحذروا الشرط فانهم جادون فى أثركم يتسابقون إلى اقتناصكم .

فقال برد بك : لا عدمناك ياخوند ولا حرمنا عونك وتدبيرك الحازم .

واستدرك ملك التجار حديثاً فاته فقال :

أتعلمون مانزل بنا بالأمس ؟ لما كنت أخشى العسس أن يكبس قصرى للبحث عن أميرة قبرس التى أهداها الأمير أحمد بن هرسك إلى ولدى بهاء الدين أمرت عبيدى بحملها ليلا إلى جوسق جميل لنا بجزيرة الروضة فلما بلغ بها الغلمان دار النحاس عند جسر الملك الصالح خرج عليهم فارس ملثم و بيده السيف ففروا وتركوا الأميرة فى محفتها ولا ندرى أين مقرها .

وأطل ملك التجار على الرحبة فرأى شاهينَ غزالى على دكة الرقيق والدّلال ينادى عليه وقد بلغ السوم إلى ستمائة دينار ، فقال : من ذلك الذى جمع له الناس من كل فج ؟

فقال بردبك : ألم تسمع لغط الناس من تحتنا بأنهم يبيعون مملوك السلطان

شاهين غزالى فقال ملك التجار : إنى لأراه فتى حلو الشمائل جميل المحيا .

وقالت خوند : لقد نقل إلىّ الكثير من أخباره فقد فاق أقرانه من حرس السلطان بسمو آدابه وترفعه لولا أنه يعاقر الخمر ويغشى مجالس السمر مع ظرفاء أهل القاهرة ويشبب بكبيرة المطربات خديجة الرحابية .

وقال إينال : كيف هان على السلطان أن يبيع مملوكا له هذه المنزلة العالية والشأن الرفيع إلا أن يكون قد قارف جرماً لا يغتفر ؟ !

فضحكت خوند وقالت: لعلها خدعة عمد إليها السلطان ليغرى الناس بمملوكه المدلل حتى إذا خدعوا به واستهوى أفئدتهم تعرف أسرارهم وفضح نواياهم ، فقال ملك التجار : إن خوند على حق فى حسن تعليلها وسأقوم الساعة فأشتريه ليكون أسيرا فى أيدينا وسأوصى به غلمانى فلا يثيروا ريبته وشكوكه ولا يقف فى طريقه منهم أحد ولا يتعقبه أحد فى الليل ولا فى النهار على أن يكونوا عيونا عليه من وراء حجاب فلا تفوتهم منه همسة يهمسها إلى أحد من أتباعى ، فليس ببعيد أن يكون بيننا من يتجسس فى ثوب بستانى أو ساق أو غلام لطاه . وخرج الأمراء جميعاً وخلفوا خوند جلبان فى الشرفة وحدها .

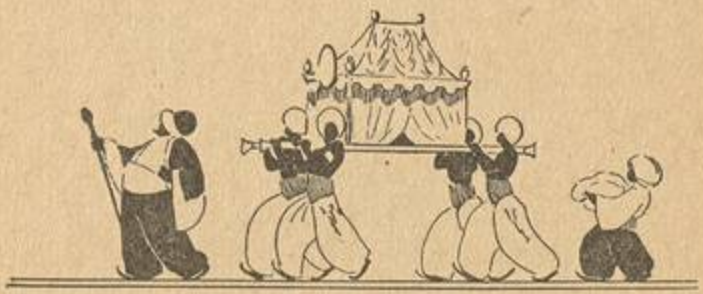

الفصل الرابع عشر

غـــرام الخوندات

كانت خوند جلبان قد خلت بنفسها فى مقصورة الخواجا شلبى التاجر العثمانى تشرف على سوق الرقيق فلا يراها أحد ، فغالبتها الخواطر وراحت تقلب ما مر بها من الأحداث فقالت :

أرى الأمراء يتوجسون شراً من وراء نبوءة الفلكى وإن كانوا يتجلدون أمامى ولهم المعذرة فما كذب ذلك الشيخ فى كلمة من أقواله مذ عرفناه ، ثم عادت إلى حديث آخر فقالت :

رب إنى ملت عيش الدسائس وحياة الفزع والخوف من شرطة قايتباى فيوما أتوارى منهم فى نفق بقصرى ويوما أطوف القاهرة متنكرة فاذا خرجت إلى الأسواق لذت بهذا المتجر فلا يرانى أحد ، رب أوزعنى أن أرى الطريق القويم فقد عميت علىّ الطرق .

واستدعت إليها قهرمانها بهادور وقالت : هل من جديد عن فارس الأدهم الذى اختطف أميرة قبرس من عبيد ملك التجار ؟ فقال : أكبر الظن أنه فارس القبق الذى فاز بالسبق على سائر الفرسان .

فصرفته وعادت إلى حديث نفسها فقالت :

ما نسيت ذلك الفتى الشجاع الذى طاف بقبتى يوم القبق وما نلت منه يومها إلا النظرة العجلى رب إنه من ذلك اليوم قد أخذ علىّ طرائقى وملأ فسيح أفقى واستوعب غاية تفكيرى ففى كل حادث وفى كل مكان يلوح لخاطرى فيذكى

لهيب قلبي ويؤلب على شجني إني لأجد ريحه وقلبي يحدثني أنه الذي قابلته الساعة رب أشهدك أني أستجيب فيه إلى سجية غرامي و إلهام عاطفتي فما أجمل قامته الساحرة وسنه الباكرة ، ليته يارب كان قد عرض لي فيما سلف من أيامي إذن لكنت كففت يدي عن مغامراتي وطموحي وعشت به أرغد عيش .

ولفتها نداء الدلال على شاهين فأمسكت عن خواطرها وأحلامها ، ودار في السوق همس بقدوم ملك التجار سيدي أحمد بن كاوان ، فمال الحضري على صاحبه الغزولي التاجر وقال : هذا الذي طغى بجشعه على سوق أمير الجيوش فقد أصبح سيداً لجالون كبير معمور الجانبين بالحوانيت التي تفيض بالسلع وله بالإسكندرية آلاف الأنوال لنسيج طرز الحرير و بمدينة البهنسا مصانع لنسيج طراز الستور التي تحمل إلى سائر الآفاق ، فقال الغزولي : لاعفا الله عنه فقد احتكر بالقاهرة تجارة الكتان الجيد فهو يبيعه بما يوازي ثقله من الفضة وضيع أكثر أموال التجار ، لأنه يطرح الأصناف علينا بأغلى الأثمان .

فقال الحضري : وله الجاريات في البحر كالأعلام تحمل سلع الصين والهند واليمن وأخرى تجوب بحر الروم فتنقل نفائس البندقية وجنوة وشواطىء أسبانيا الأندلس والمغرب ، فقال الغزولي : ولقد صارت غرائر أحماله من خالص الحرير لفرط غناه فأبطره الجاه ودلت على مكامنه الثروة واستطال على الناس بصلفه ومن منا لم ير قصره العالي بمنشية المهراني وهو يسامي الأمير أحمد بن العيني . ووقف الناس لما دخل ملك التجار وفرشت له سجادة من المخمل على دكة عالية وكان السوم على شاهين قد بلغ تسعمئة دينار ، فأشار ملك التجار أن يرفع إلى ألف دينار ، فكف الناس أيديهم وعادوا إلى مجالسهم .

وكان حديث شاهين غزالي قد ملأ الأسماع فأقبل إلى سوق الرقيق طوائف من الناس يتفرجون ، وكان بين الحاضرين حيدر بن كاتب السر متنكراً ومعه

على الزئبق فقال حيدر لصاحبه : إنى أرى القاهرة قد جمعت فى السوق ، فقال الزئبق : ذلك لأن حديث شاهين قد ملأ المجالس فأقبل الناس يشهدون مملوك السلطان، فقال : أكبر الظن أن الفائز به ملك التجار فهو أوسع الناس نعمة ولمح الزئبق عن يمين ملك التجار رجلا فمال إلى أذن حيدر وقال :

وىْ كأنى أرى شومان الخائن ومعه بعض أتباعه الذين انشقوا على رجالنا لقد عرفته رغم تنكره دخل فى خدمة ملك التجار يعاونه على استراق الأخبار ونسى الغبى أننا سبقناه إلى خدمة مولاه الجديد وتغلغنا فى قصره حتى أصبح رجالنا يلعبون معه دور العبيد الأرقاء و إليك أربعة منا وقوفا من خلفه يحملون أمواله، وانصرف ملك التجار إلى شأنه فدخل إلى الرحبة ولده بهاء الدين وكان مستتراً حتى ينصرف أبوه ولم يبال بأثوابه التى كانت تقطر منها المساحيق فجعل يقلب طرفه بين الحاضرين ثم قال لقد ذهب إبى بحاشيته والحمد لله فلا رقيب يحول دون البحث عن مقر تلك الغانية وعن ذلك الفتى الفارسى الذى بطش بى وسخر منى أمامها واندفع الأحمق بين الجمع الحاشد يزحمهم وعينه تجول بين الشرف والنوافذ فاصطدم بحيدر وداس قدمه فدفعه حيدر فألقاه صريعاً فقام يسب و يقول أعمى البصيرة أعشى البصر فقال حيدر: أينا الأعمى يا من يمشى مكباً على وجهه وعليه ثياب الغفلة والاستهتار تقطر بالمساحيق والدهان

فقال له: تبا للشقى الذى يساجل مواليه فغضب حيدر و إنهال عليه لكما بيديه حتى اشتفى وقد تبين فيه ذلك السفيه الذى ضايق خوند بسخفه .

وكان بين الناس ثلاثة أجناد من المماليك فصاح به أحدهم وقال :

أنت والله المعتدى علينا من أيام بملهى خيال الظل وقال الآخران هو والله بعينه على الرغم من تنكره .

وكانوا يحملون العصى الغليظة فلما هجموا عليه بادر أولهم فلكمه بقبضته فصرعه وانتزع منه العصا وانهال بها على زميليه حتى فجر منهما الدماء .

فصاحوا واستغاثوا بالشرطة . وسمع نداء الشرطى من أقصى الخان فقال الزئبق لحيدر : دعنا نفر من وجه الشرطة .

وجاء والى الشرطة فى نفر من رجاله فحملوا المماليك وغسلوا جراحهم واستمعوا إلى شكواهم فقالوا : خرج علينا من عرض السوق فتى له زى أبناء العجم فبطش بنا كما ترى ، فدهش الوالى وقال : كيف يبطش بكم غلام أعزل وأنتم صفوة من الجند ؟ ! وبث أعوانه فى أنحاء السوق ينقبون عن المعتدى ، وكانت خوند جلنار قد برزت من شرفتها على الصياح والضجيج فلاح لها حيدر وهو يقاتل المماليك وقد تألبوا عليه فأوسعهم ضربا بالعصا فعرفته رغم تنكره واشتد جزعها عليه وهمت أن تدعو قهرمانها لنجدته ولكنه ظهر على المماليك وبطش بثلاثتهم فاطمأنت وجلست ترقب حضوره إليها فما كان له من مهرب إلا إليها .

وكانت خوند جلبان فى الشرفة المقابلة بمتجر الخواجا شلبى فأزعجها ضجيج الناس وصياح الجنود ، فلما أشرفت على الرحبة بهرها مظهر حيدر وهو يكيل الضربات للجنود الثلاثة ويبلى فيهم أحسن البلاء ولم يضلها تنكره فخفق فؤادها وعادت بها الذكرى إلى يوم القبق والعهد به قريب يوم طاف على جواده الأدهم فاستقبلته فى قبتها سافرة ، وجعل حيدر يتردد بين الأبواب التى بالرحبة ليجد لنفسه مهربا فرأى خوخة مظلمة فى متجر الخواجا شلبى أسلمته إلى درج وساقه القدر إلى شرفة جلبان ، فأقبل يشتد ويتوسل إلى صاحبة الشرفة أن تواريه خلف أستارها عن أعين الشرطة .

فهتفت جلبان همساً وقالت : ربى هذا الذى كنت أنشده قد أقبل ، وظن الفتى

أنها جلنار وضاعف من خطائه ظلام المخدع وروعة المباغتة وتشابه الأميرتين ، فأمسك بكفيها وقبلهما وهو يقول :

هل تعلمين وراء الحب منزلة تدنى إليك فإن الحب أقصانى
هذا نداء فتى طالب بليته يقول : يا مشتكى بثى وأحزانى

فانطلق لسانها حلوا عذبا وقالت : لقد صدقتنى غريزتى أنك منى قريب ، وألهمت أنك بين الناس حتى أشجانى حفيف قدومك و إشراق جبينك .

ثم عانقته طويلا وقالت :

مولاى يا بدر كل داجية خذ بيدى قد وقعت فى اللجج
بحق من خط عارضيك ومن سلط سلطانها على المهج
مد يديك الكريمتين معى ثم أدع لى من هواك بالفرج

فلما أفاقت من نشوتها حدثته فقالت :

أنت بلا ريب فارس القبق الذى أطاف بقبتى ، وما يدريني لعلك الفارس الذى أغار على عبيد ملك التجار فاختطف من أيديهم أميرة قبرس تلك الغانية الباهرة الحسن ؟ فقال : نعم أنا يا خوند . فقالت فى شىء من الألم : وكيف نجوت من حبائل حسنها ؟

فقال فى لهجة الحزم : إنها لدواع خطيرة من شؤون غيرى لم أؤذن بنشرها حملتنى على اختطافها لأجنبها عار السبى فاستودعتها حرما يصونها إلى أن ترد إلى قومها سالمة .

وأدرك ما ترمى إليه فاستدرك قائلا :

على أنى وحرمة آبائى ما رفعت إليها بصرى بسوء ولا صبوت إليها حياء من الله

فأشرق وجهها وقالت : ذلك الظن بك ، فقد علمتنى خلجات صوتك وقسمات وجهك أنك تبقى على العهد وتخلص إلى الود .

واشتد دبيب الشرطة من وراء الجدار فقالت : لا يزعجك دبيبهم فالجدار يحجبنا . ثم أمرت أن تعد محفتها فلما خرجت إلى وضح النهار لمحت بصدره تميمة العود ، فقلبتها بيدها و بدا نفارها وقالت :

من أين لك هذه ؟

فحدق في وجهها طويلا وقال : ألست خوند ؟ فقالت وهى ترعد غضبا : أى الخوندات ؟ تعنى فأنا خوند جلبان .

فأفحم وخانته قواه وكلما أحدق بها خدعه توافق الشبه بين الأميرتين فقال : معذرة وصفحا جميلا فقد كنت مخدوعا ولا إثم علىَّ فعيناك عيناها وجيدك جيدها، فقالت : مهلا أيها المعتذر بسراب الرؤية وضلال الفراسة، أبعد أن أوردتك الكوثر من ثغرى وحبوتك جيد المها من عنقى وهتكت فيك الستر عن خدرى؟ وقطرت لؤلؤات من محاجرها جففها وقد وجنتيها .

فجثى حيدر بين يديها وقال : إثم والله لا تنفع فيه المعذرة وحرج لايغسله إلا السيف ومد عنقه تحت أقدامها وقال .

مُرِى القهرمان فليضرب عنقى فقد جاوزت حدى وعدوت طورى واستبحت حماك ونعمت بريّاك .

هنالك لاحت لها الأمانى السانحة وساورتها الرغبة الملحة فى استبقائه رهينة تمارس معه أساليب الفتنة وتغذوه بحبها فتطارد التى زحمتها ، وضاعف من عزمها أنه اقتحم عليها مقصورة الخواجا شلبى وفضح سراً من أسرار أعوانها وفطن إلى موطن الأمراء فإن عز عليها أن يكون من أعوانها أبقته بقصرها رهينة حتى يتبين الأمر .

وقالت تحدثه فى حزم وجد : سأحملك الساعة معى متنكراً فى ثياب وصيفتى فلا يلاحقك الشرط وتكون عندى بقصرى حتى أتبين ما يكون من شأنى معك

فإن لم يعجبك قولى أسلمتك بيدى إلى الشرطة فأنهم يترقبون من خلف الجدار .

فلم يحر المفتون جوابا واستكان لها واستسلم للقضاء والمقادير .

فلما خرج عليها فى ثياب الوصائف فترت عزيمتها وانهارت صلابتها وجرفها حب عنيف : فتناولته فى أحضانها تقطعه لثما وعناقا وقالت : إنك ملك كريم .

وأقلتهما المحفة فأسكرها الأنس به وودت أن يحملهما بساط سليمان إلى مجاهل الصين فتنعم و إياه بعيش الخلود ، وكلما تأرجحت بهما المحفة مال عطفها فطوقت عنقه وسوغته ثغراً عز مناله على سائر البشر .

فأنس بها وسرت أنفاسها إلى صدره تحمل هوى جديدا يزحم قلبه ويعصف بسره المكنون .

وكانت قد أحكمت غلائل المحفة لتخفى عنه معالم الطريق فلما شارفت قصرها أشارت فحملوها إلى المقاصير .

ورفعت الأستار فبدا له مخدع مديد الجدار ينوء بالرياش والأرائك والثريات ، ولاح سرير من الذهب يرهج بتعاليق الجاه ، ومدت إليه يدها وقالت :

إنك الضيف الكريم . ثم غابت عن بصره . فأحس أنه أسير ، وكان من سداد الرأى أن يرضخ إلى حين ، وأن يبادلها المودة حتى يفتح الله طريقا للنجاة .

الفصل الخامس عشر

أسرار الزعر

مر بنا فى فصل سابق بعض الحديث عن رجال الزعر الذين يقودهم أحمد الدنف، وقد بلغت عدتهم خمسمائة رجل، وغالبهم كان من رؤوس اللصوص الذين استتابهم سيدى عبد العزيز العباسى وأخذ عليهم مواثيقه قبل أن يلحقهم بصفوفه من أهل الفتوة حملة البنادق، فاندسوا بين الناس واستعانوا على العيش باتخاذ المهن والحرف الشائعة فكان منهم الحائك والحجام والخياط وحارس الخان. وقد جعلهم رئيسهم الدنف شعباً متفرقة فى أنحاء المدينة، فكانت منهم شعبة مختارة من أحسنهم أخلاقاً واستقامة وبأساً ورياضة على فنون القتال والمصارعة، وأولئك يتولى أمرهم الرئيس بنفسه ولذلك جعل مساكنهم حول داره عند خرائب الكبش القريبة من بركة الفيل حيث قصر السلطان وقصور الأمراء وكانت عدتهم مائة رجل، وهناك شعبة أخرى قوامها مائة وخمسون رجلا لا يقلون عن الأولين أخلاقاً واستقامة وشدة بأس يتولاهم على الزيبق ومساكنهم حول مقام السيدة نفيسة ودار سيدى عبد العزيز العباسى.

وكانت بقيتهم وعدتهم مائتان وخمسون رجلا يسكنون وكالة قوصون ووكالة الجوانية القريبتين من باب الفتوح.

ووكالة قوصون قائمة إلى اليوم تدل بعظمتها على ازدهار التجارة بمصر فى تلك الأيام، فقد كان ينزلها التجار القادمون براً ببضائع الشام من الزيت والشيرج والصابون والدبس والفستق والجوز واللوز والتفاح والكمثرى والسفرجل، فكانت

الأحمال الثقيلة تكدس فى مخازنها إلى أن يشتريها تجار القاهرة ومدينة مصر فتحمل إلى المتاجر الصغيرة بأسواق المدينتين .

وكانت كثرة البضائع المتنوعة وازدحام الناس من حولها وضجيج الحمالين تلفت إليها الأنظار ، وكان يعلوها رباع للسكن فيها ثلاثمائة وستون بيتاً كلها عامرة بالناس لا يقل سا كنوها عن ألف نسمة ، فاندس بين بيوتها الكثير من رجال الزعر وفيهم جماعة الحمالين بأقفاصهم وبغالهم .

وكانت تجاورها وكالة أخرى على رأس درب الرشيدى تسمى وكالة الجوانية تشرف على حارة الروم الجوانية كان ينزلها تجار الشام القادمون بسلعهم بحراً وبأعلاها رباع للسكنى كالوكالة الأولى .

وكان حسن شومان زعيم رجال الزعر النازلين بيوت الوكالتين ، وكان رجلا قوى الشكيمة متين العود لصاً فاتكاً .

وكان رجال الزعر لهم حوانيت بجانب الوكالة ، فكان منهم باعة الجبن والخبز والخضر والطباخون والعطارون وباعة الأمتعة والثياب الخليع وثياب العامة الزرقاء .

وكان أحسنهم حالا وأكثرهم أمانة وأطهرهم ذمة عمر القبان ، وهو الذى يزن الأمتعة والمال والبضائع بوكالة قوصون ، فما كان يستريح من عمله غمضة عين لكثرة العمل ، والناس من ورائه يستحثونه ليزن لهم . فدرت عليه الأرزاق وأقبلت عليه النعمة .

وكان يواسى الضعفاء من إخوانه ويمدهم بالمال ويبذل النصح للأشقياء بالكف عن السرقة والسعى للرزق من وجه حلال والتمسك بعهد إمامهم سيدى عبد العزيز العباسى .

وكان له ولد يدعى حسناً نشأ طاهراً شريفاً كأبيه ، فاتخذ له بباب الوكالة حانوتاً صغيراً يبيع به الشيرج والقطن لجهاز القناديل التي تسرج ليلا فكان يبيع كل ليلة من الشيرج بثلاثين درهما فضة أو بدينار ونصف دينار .

واتخذ رئيسهم شومان لنفسه حانوتاً يبيع فيه الشمع على رأس درب قريب من الوكالة ، فكان ببابه الشموع الكبار الموكبية والتى تحمل على العجل فتزن الواحدة القنطار وتجر العجل بها أمام الصبيان لتنير طريقهم إلى المساجد عند صلاة التراويح ، فكان ذلك الحانوت عامراً بالبيع والشراء إلى نصف الليل .

واتخذ شومان بعض النساء حول حانوته يقال لهن زعيرات الشماعين يلبسن سراويل من جلد أحمر ويحملن بأيديهن الحديد ويتسربن فى الدروب يفتكن بالمارة ويسلبن المال ، فكانت لهن وقائع لا تحصى مع العسس ، فإذا ظفر ببعضهن تسربن إلى حانوت الشمع من مزالق لا يعرفها غيرهن .

وكان شومان خبيثاً يراوغ رئيسه الدنف ويروح إليه فى زى أهل الصلاح وهو فى باطنه يدبر له المكائد ، واشتد حقده عليه من عهد أن تبنى الزيبق واختص به دون غيره ، واختار لنفسه من رجال الزعر نحو الخمسين رجلا من الفتاك الذين تعب الرئيس فى سبيل إصلاحهم وهدايتهم ، فكانوا يتظاهرون أمام الباقين بالأمانة والصدق ، فإذا خلوا إلى شومان كل مساء فى حانوت الشمع قاسمهم ما سلبوه من المتاع . وكان فى الطريق إلى خان الخليلى فندق كبير يدعى فندق بلال ، كان تجار القاهرة والقادمون من الشام والعراق وغيرها من بلاد الشرق يودعون به أموالهم كالمصارف الحديثة ، فإذا دخلت إلى بهوه العظيم رأيت الصناديق مصطفة بين صغير وكبير تحمل من الذهب والفضة ما يجل وصفه ، وله العدد العديد من الحفظة يحرسونه ليلا ونهاراً وفيه السرج موقدة طول الليل .

فأراد شومان أن يسطو على أموال هذا الفندق ، فأكثر من طروقه بالنهار فى زى تاجر وأودع به مالا ليتدرج من ورائه إلى دخول بهو الصناديق ، واتخذ من رجاله حرساً له ولأمواله فكانوا يعبرون الفندق فى أزياء أهل المغرب وبأيديهم أسلحتهم ظاهرة حتى أمن الحراس جانبهم ، وفى غفلة منهم سرق شومان صندوقاً كبيراً وأخفاه فى قبو عميق بحانوت الشمع .

فلما جاء الصبح ضج أهل القاهرة بالخبر وانتشر الذعر بين التجار وتهافتوا على الفندق ليستعيد كل ماله ، وتعاون شرطة النهار وعسس الليل على العمل لضبط السارق على غير طائل .

فاستيقظ الدنف من غفلته ورأى من السوابق السالفة أن هذا من عمل شومان ، وكان كبير الثقة فى عمر القبان وولده حسن ، فكان فى طوافه بسكان الربعين يزور حسناً فى حانوته فيوافيه إليه أبوه عمر القبان ويطلعه على أحداث رجال الزعر ويسأله أن يفسح لبعضهم أمله فى التوبة .

وكان عمر إذا جنه الليل صعد إلى بيوت الربع الكبير يواسى سكانها ويمدهم بالمال، فمر فى إحدى الليالى ببيت يسكنه أخَوان من الزعر فلما دخل رأى عشرين بطيخة خضراء وثلاثين شقفة جبن وكانت الشقفة بين نصف رطل ورطل فعجب من أمرهما وقد تابا وأقلعا عن السرقة من عهد قريب ، واشتد معهما وطلب بياناً عن تلك السرقة فقالا : إنهما كانا يقعان على حانوت الجبان أو مقعد بائع البطيخ والبطيخ مرصوص أكواماً متعاقبة فوق بعضه فى كل صف ما شاء الله من البطيخ فكان أحدنا يتظاهر بالشراء وتقليب البطيخ ، ولما كان الزحام شديداً حول البائع فكان أحدنا يجلس القرفصاء ويدفع البطيخة من تحته فيتناولها الآخر من خلفه ولا يشعر البائع بنقص فى البطيخ لكثرة أحماله وازدحام الخلق من حوله ، ثم نقلنا البطيخ إلى البيت على قفص لنا .

فانتهرهما على سوء فعلهما وتوعدهما بالكف عن معونتهما وانصرف مغضباً .

وكان عمر يسكن بيتاً فى عمارة أم السلطان التى شيدتها الملكة أم الملك شعبان من أولاد قلاوون فجعلتها قيسارية تباع بها الجلود ويعلوها ربع جليل لسكنى العامة ، به عدة طباق فاتخذ لنفسه منها طبقة ، وكانت بالدرب الأصفر القريب من

الوكالتين ، فلما هدأ الليل وأطفئت الأنوار وطاف العسس بالدروب والرحاب والشوارع وأمامه المشاعل تضيء له الطريق سمع عمر نقراً لطيفاً ببابه فقام يمشى على ضوء السراج وفتح الباب فرأى أحد الرجلين السارقين فانهال الرجل يقبل كفى عمر ويغمرهما بدموع التوبة والندم ويسأله الصفح وقال : إن أخاه حضر معه بالباب ينتظر فإذا عاد إليه بغير صفح انطلقا هائمين على وجهيهما لا يلويان على شيء .

فأدخل الرجل إلى الفناء وأوصد الباب وقال : لقد عفوت عنكما وصفحت وأرجو أن يتوب الله عليكما . فقال له الرجل ليس أدل على صدق توبتى من حديث أسوقه إليك سمعته من ساعة بين رجلين يعملان فى حانوت الشمع ، فقال أحدهما للآخر : إن شومان وجماعته هم الذين سرقوا صندوق المال من فندق بلال وقد دفنوه فى قبو بالحانوت .

فدهش عمر لهول الحديث وخطره وأشار بيده للرجل أن يكتم الخبر وأن آية التوبة أن تكون كتوماً للخبر ، وصرفه واندفع إلى فراشه ولكنه قضى ليله ساهر الطرف أسفاً وألماً حتى طلع الفجر فانصرف إلى عمله وأنفذ ولده حسناً إلى رئيسه الدنف يحمل إليه الخبر ، وكان الدنف يزور دار الوزير كاتب السر كل ليلة ويظل بها حتى السحر وله نوب من الرجال يتعاقبون فى سروجهم بالليل فى أنحاء المدينة يحملون إليه نوائبها وأحداثها وينفذون إلى قصور منشية المهرانى ينقلون أسرارها فيحدث بها سيده الوزير عند بزوغ الفجر وبعد انصراف الوزير من الصلاة .

فعاد الدنف إلى داره سحراً وعلى عاتقه صرة بها ألف دينار كان السلطان قد أمر بحملها إليه جزاء عمله فى الحصول على رسائل الأمراء وهو فى زى الحواة ، فلما بلغ خرائب الكبش ألقى بصرة المال إلى تلميذه الزيبق وقال : هذا نصيبكم يا بنى حملته الساعة من عند مولانا الوزير ، لقد أصبحت بحمد الله والياً للعسس بمدينة مصر ، فإذا كتب لنا التوفيق وأمسكنا بنواصى الأمراء قبل أن تنفذ دسائسهم

أصبحت بنعمة الله والى عسس القاهرة ، فإياك أن يتصل الخبر بشومان وأعوانه . واستلقى الدنف على سريره يستريح من طول السهر والطواف وترك الزئبق يعد صرر المال لرجال الزعر المختارين فدخل عليه حسن بن عمر القبان وطلب أن يقابل الرئيس .

وكان الدنف رجلا مرهف الحس كالثعالب ينام بإحدى مقلتيه و يتقى المنايا بأخرى، فهب من سريره وقد حزر الأمر ونظر إلى حسن باسماً وقال إنك : ما قدمت إلا لتقول أين أخفى شومان صندوق المال، فبهت الفتى وقال : كيف حزرت الخبر ياسيدى؟ فقال: إن هذا دأب شومان منذ القدم قبل أن يتصنع التوبة فهو مغرى بالسطو على خزائن المال لا يحاكيه فى طريقته أحد وأوصاه بالتكتم وصرفه .

وكان شومان من عهد طويل قد سبر أغوار الأمراء المنشقين على السلطان فرأى بذكائه أن أوفرهم مالا وأقدرهم على اصطناع الرجال هو ملك التجار فجاهد حتى اتصل به وعرض عليه خدمته هو ومن انشق معه من الزعر الذين تحت رئاسته ، كما اتصل بقهرمان خوند جلبان وهو الداهية بها دور الذى فرح به وأجزل له العطاء ، فزوده شومان ببضعة رجال من أعوانه كان أحدهم غلاما اسمه حسن أتقن تمثيل بلادة الطبع والغفلة فدسه بهادور فى خدمة برقوق التونسى المطرب الأعمى ليتنقل معه فى الأعراس والولائم ويحمل إليه أحاديث ربع الزيتى كلما عقد فيه السمر عند خديجة الرحابية وزارها فرسان المماليك المتصابين بالقصر .

وكان من نصيب ملك التجار عشرون رجلا من أعوان شومان يتعقبون شاهين غزالى فى أزياء خدم البساتين والطهاة والسقاة ويصورون له أنفسهم فى صورة رجال الدنف العاملين فى خدمة السلطان وذلك ليفضى إليهم بأسراره .

وكان فى خدمة خوند جلبان أحد الأخوين الذين استتابهما عمر القبان ، أما الآخر فدعاه رئيسه الدنف أن يتجسس مع أخيه أسرار الأميرة ، فعاد إليه

و بشره أن مولاه حيدراً فى الاعتقال عند خوند جلبان ، وكان حيدر حراً طليقاً يمشى من مخدعه إلى الأبهاء المحيطة به والإشراف على البستان ، ولكنه منع مما وراء ذلك فخشى إن هو تجاوز أطراف الدهاليز إلى مساقط الدرج الفسيح أن يرمى بالتجسس، فترك الأمور مرهونة بأوقاتها وأرهف أذنه حتى لا تفوته كلمة أحد من الأتباع والعبيد ، فلما طال عليه المدى وهو فى الأسر شكا إلى جليان تلك الضيافة التى لا يملك لنفسه معها نفعاً ولا ضراً ، فجعلت تراوغه بدعابتها وتغريه بمجونها وأساليب غوايتها فضاق ذرعاً وخاف أن تجرى الأحداث من حوله وأن تحاك الدسائس تحت ناظريه فلا يلاحقها ، وأنف أن يبيت فى أسر الأميرة وإن كان يحذر بأسها الأمراء ويحسب حسابها السلطان .

لقد كشفت له عن ذكائها وسعة حيلتها ودهائها وكياستها فى اعتقاله فى أصفاد من غزل العيون لا فكاك منها ، وشباك من كرم الوفادة لا جحود معها، فعظمت عنده مكانتها وكبر خطرها .

واعتكف ليلة بمخدعه وغلق الأبواب وأسبل الستور وأوقد فى زاوية المخدع سراجاً صغيراً وخلا بنفسه يفكر فى مصيره بذلك الصرح العالى الذى لا حيلة للهارب منه إلا بدق الأعناق .

فأحس بحركة فى قبة المخدع ولمح طاقاً من شمسياتها قد فتح ، فوثب من السرير مذعوراً يتلفت ، وكان قد أخفى تحت المخاد سكيناً من الفضة تناولها من صحائف مائدته فاستلها ليدفع عن نفسه الغوائل ونادى بصوت خافت من هنالك؟ فأجابه صوت أشد خفوتاً يقول .

لا تخف يا سيدى فأنا خادمك الزيبق واليك سيفى ومجنى تدفع بهما كل عدوان يأتيك من ناحية الباب .

وألقى بهما بين الملاحف حتى لا يسمع لهما وقع ثم هبط إليه على سلم من الحرير

وتعانقا طويلا ، ثم بادر الزبيق إلى السراج فاطفأه وهمس يقول : إن فى البستان خمسين رجلا من رجال الزعر جمعهم شومان لما علم بأنك رهينة عند خوند وخاف أن نقتحم من أجلك أسوار القصر فجعل الرصد عليها من رجاله ، فأعانني على الدخول رجلان استتابهما رئيسنا فاتخذت ثياب أحدهما حتى بلغت البستان فأشار الرجل إلى قبة مخدعك فاستعنت بسلمى على بلوغها و إنى أمرت أن أعود بك الساعة إلى دار مولانا الوزير، فدرجا على السلم متعاقبين وفرا.

وكان شاهين غزالى فى مثل هذا الضيق والحرج بقصر ملك التجار، فقد أقاموه رئيساً للسقاة يشرف على خزائن المؤن ودار الضيافة ولكن عميت عليه أطراف القصر ، ولو قاربه الحظ لوقع بالقاعة التى تجمع سائر الأمراء فينفذون إليها من أنفاق سرية بين القصور الأربعة ، وهى قصر خوند جلبان وقصر أخيها أحمد بن العينى وقصر ملك التجار ثم قصر كبيرهم الأمير جان بك .

لقد كان يطوف بباب تلك القاعة فلا يفطن إليها .

وكان أكبر المسلطين عليه وصيفة من أهل المقصورات لها حسن وزى جميل، فكان يتهيب رؤيتها كلما مرت به فى أطراف القصر وكانت قد أعجبها مظهره فجعلت تلاحقه فى كل مكان ، حتى بعدا عن أعين الرقباء يوما فتهالكت بين يديه وأفضت إليه بحبها فتردد فى تصديقها لأنها كانت أشد الرقباء إمعاناً فى التحسس عليه فأعياها صدوده وأعراضه وانهالت عليه لثما وعناقا ودموعها تجرى وتشهد لها بالحب وقالت : ألا يرضيك يا قاسى القلب أن أطلعك على بعض أسرار القصر لقاء نظرة عطف على أن تقطع لى عهداً بالايضار مولاى ملك التجار وحذرته مغبة الإفضاء بشىء لمن هم حوله من الخدم لأنهم عيون عليه ، فعانقها طويلا وتعاهدا على اللقاء كلما نامت أعين الرقباء .

وجلس سكان وكالة قوصون ذات ليلة يرقبون قوافل التجار النازحين من

بلاد الشام فتدفقت الأحمال على الوكالة وكدست فى المخازن ، وكان بين القادمين تاجر من حلب يحمل بضائع الشام من الدبس والفستق والجوز واللوز فأناخ بباب الوكالة ونقل غلمانه غرائر النقل وأعانهم الحمالون عليها ، وعرض عليه عمر القبان أن يتولى وزن ما يباع إلى تجار القاهرة فشكره التاجر ومنحه بعض المال ، ثم خرج يتفرج على الأسواق القريبة فطاف بحانوت الشمع الذى كان يتجر به شومان وكان مقفلا و ببابه خمسة من أذناب شومان يرقبون ، فسأل بعض المتصلين بالوكالة عن الحانوت ليتخذها لنفسه فعلم أنها خالية .

وكان شومان من عهد أن سرق صندوق المال من فندق بلال ودفنه فى قبو بدكان الشمع فر بأتباعه الخمسين وترك خمسا منهم يرقبون الصندوق حتى يعود إليه ليلا ليحمله من القبو إلى مقره الجديد .

واتصل التاجر بصاحب الحانوت واستأجره لنفسه وتولى غلمانه نظافته ودهانه ونسقوا فيه بضاعته ، فازدحم ببابه تجار القاهرة ومصر يبتاعون منه حاجتهم فتلطف بهم حتى أرضاهم . ووقف عمر القبان يزن الأحمال والناس من ورائه يستحثونه .

وشغل التاجر فى عمله أياما حتى نفدت بضاعته فحزم أمتعته للسفر وودع أهل الوكالة .

وسار يخترق الدروب والشوارع على بغلته ومن ورائه غلمانه يحملون أعدال المؤن وصناديق البضائع ، حتى دخل بيت الوالى وترك بالباب صندوقين مسمرين وقال للأعوان : تلك صدقاتنا حملناها إلى مولانا الوالى لينفقها على أبناء السبيل ، وانصرف لشأنه .

وحمل الخبر إلى الوالى فأمر الأعوان ففتحوا الصندوقين فكان بأحدهما خزانة مال وقد لصق بغطائها ورقة مسطورة جاء بها :

سرقت هذه الخزانة من أموال التجار المودعة بفندق بلال .

وكان بالصندوق الآخر خمسة رؤوس فصلت عن أبدانها و بينها كتاب جاء فيه :

إن هؤلاء بعض الذين سرقوا الخزانة .

وما كان التاجر الذى أقام تلك الضجة بالأسواق إلا على الزئبق فقد أراد أن يسترد خزانة المال التى سرقها شومان، فترقب قدوم القوافل من الشام واندس بينها واشترى من بعض القادمين تجارته قبل أن يبلغ مدينة القاهرة ، ولما رأى غلمان شومان الخمسة قريباً من حانوت الشمع وثق ببقاء الخزانة فى القبو فجعل يخادعهم حتى أمسك بتلابيبهم وقتلهم واستخرج المال من القبو وطمر فيه أشلاء الرجال الخمسة وحمل رؤوسهم إلى بيت والى الشرطة .

الفصل السادس عشر

عيـــد الشهيد

كان اليوم الثامن من شهر بشنس أحد شهور القبط بمصر عيداً يسمى عيد الشهيد وكان القبط يزعمون أن النيل لايزيد فى كل سنة حتى يلقوا فيه تابوتاً من الخشب فيه أصبع من أصابع أسلافهم الموتى احتفظوا به فى كنيسة عظيمة على شاطئ النيل بضاحية شبرا فكان ذلك اليوم عيدا يفد فيه القبط من سائر البلاد والقرى فيركبون الخيل ويلعبون عليها ويخرج عامة أهل القاهرة ومصر على اختلاف أديانهم وطبقاتهم فينصبون الخيام على شاطىء النيل ولا يبقى مغن ولا مغنية ولا صاحب لهو ولا ماجن ولا خليع ولا فاتك إلا خرج لذلك العيد فيجتمع بشبرا عالم عظيم وتصرف أموال لا تحصى وتثور فتن وقد يقتل بعض الناس .

وكان يباع فى ذلك العيد من الخمر بما يزيد على مائة الف درهم أو خمسة آلاف دينار ذهبيا وكان عماد أهل تلك القرية فى دفع الخراج على مايبيعونه من الخمر فيه.

فلما كانت أيام هذه القصة اجتمع يوم العيد بكنيسة الشهيد خلائق لاتحصى من النصارى رجالا ونساء ومن المسلمين الذين حضروا للتمتع بمشاهد العيد وملاذه ونضرة الحقول من حولهم وذبح الناس الذبائح وجلسوا يأكلون ويشربون ويستمعون إلى الأغانى .

وكانت الديورة بالعراق والشام ومصر كثيرة يطرقها الناس مسلمهم ونصرانيهم على السواء وكانت ديارات مصر تمتد على جانبى الوادى شرقاً وغرباً وكان

أقربها إلى القاهرة دير ناهيا الذى بالجيزة وكان لكل دير قلاية تبنى على أحسن شكل وأجمل بناء يستقبل بها الزوار وتقدم إليهم الخمر .

وكان يزرع فى بساتين الديورة الكرم والزيتون والرمان والنرجس والآس وكان الرهبان لهم بالوادى مزارع غلاتها وافرة وقلاية الدير تنطبق على وصف الكازينوا المعروف فى أيامنا .

ووقف بباب كنيسة الشهيد راهب يستقبل الناس ويدعوهم إلى قلايته لينعموا بخمرها فمر به ثلاثة من شباب القاهرة فى الثياب المذهبة والقلانس المطرزة فوق جياد عليها القلائد والتشاهير كان أحدهم على جواد أدهم والأخران على أشهبين وكانوا ثلاثتهم ذوى أسنان متقاربة لا يتجاوز أكبرهم العشرين عليهم روعة الحسن الباهر ونضرة الشباب الباكر وهم حيدر ورفيقه سيف الدين وصديقه جان بلاط .

فرحب بهم الراهب ودعاهم للنزول بالقلاية فصعدوا إلى سطحها وكانت مفروشة بشقائق المقصب عليها طنافس المخمل وسأل الراهب جان بلاط عن رفيقيه فقال هما من أبناء الجند فقال الراهب بل هما من الولدان أفلتا من الجنة وتبسط فى الحديث معهم فداعبوه وقال له حيدر وهو يبتسم من تحب أن يكون معك منا أنا أم رفيقى هذا وأشار على سيف الدين فقال له الراهب كلا كما يا حبيبى فمال الجميع من الضحك وحمل الغلمان إليهم أنظف طعام فى أنظف آنية فأكلوا وانشرحوا وكان جان بلاط يميل إلى الشراب فقال للراهب هل أنت خمار الدير فقال نعم يا سيدى فقال لقد وصفوا لنا جودة شرابك ونظافته فأين ذلك فغاب عنه الراهب قليلا ثم عاد ومن خلفه غلمان يحملون دنانا مذهبة والمكاييل والكيزان والمباذل فى الصوانى ثم غسل يديه ونقر الدنان ونظر أصفاها فبذله وملأ قدحا وقدمه إلى جان بلاط .

ودعا جان بلاط صديقه حيدراً للشراب وزين له الخمر فهز حيدر رأسه هزة النافر الذى لايثنيه شيء فى الدنيا عن عزيمة اعتزمها وقال فى لغة الحزم: معاذ الله يا أخى فقد رأيت المعاصى نذالة فتركتها مروءة فاستحالت ديانة وهذا حال أخى سيف الدين، على أنى أشاركك سرورك وأتولى مؤانستك على شرابك فلا تحتشم منا، وتناول جان بلاط قدح الخمر فشربه ومسح يده وفمه فى منديل نظيف قدمه له الراهب وقال له: اسقنى آخر، فغسل يده وترك ذلك الدن وذلك القدح والمنديل ونقر دنا آخر فلما رضى صفاءه بذل منه رطلا فى قدح وأخذ منديلا جديداً فقدمه مع القدح إلى جان بلاط فتناوله وشربه كالأول، ثم قال: اسقنى رطلا آخر، فسقاه من غير ذلك القدح وغير ذلك المنديل فشرب ومسح فمه ويده وقال: بارك الله فيك ما أطيب شرابك وأنظفك وأحسن أدبك ما كان رأيى أن أشرب أكثر من ثلاثة أقداح فلما رأيت نظافتك دعتنى نفسى إلى شرب رابع فهاته، فناوله الرابع على تلك السبيل فشربه، ونالت الخمر من جان بلاط وكان فتى كريم الشمائل فترنح قليلا وأنشد:

وقهوة صافية كالمسك لما نفحا
شربت من دنانها من كل دن قدحا
فقمت لا تحملنى أعواد سرجى مرحا
من شدة السكر الذى على فؤدى طفحا

وتناول من منطقته كيساً به دنانير فقال له حيدر: مهلا يا أخى دعنى وغلمان الراهب أتولّ عنك عطاءهم فقد حملوا لنا أطيب طعام وخدمونا بأحسن أدب، ثم نادى الراهب وقال: أين غلمانك؟ فصفق الراهب فدخلوا وكانوا خمسة بينهم فتاة حسناء نهد ثدياها عليها المسوح كأن مسوحها الحلى، فقام لهم حيدر ونفح كل واحد أشرفيين ثم ابتسم للفتاة وضاعف لها العطاء.

فلما تحفزوا للرواح ألقى جان بلاط إلى الراهب كيساً به عشرون ديناراً فحملق فيهم وأراد أن يتعرفهم فما مكنوه بكلمة ودخلوا بخيلهم فى غمار الناس وحضر العيد راهبات الديورة على عجل تجرها الأكاديش والبغال الفارهة فخطرن فى المسوح وعبق منهن الطيب فاختلط بعطور الزهور التى ملأت نضرتها المرج وكان بين الركب غانية على بغلة عالية تضفى أزارها الحرير المثقل بأسلاك الذهب وتقى رأسها من الشمس بوقاية من مخمل أصفر ويلوح من خلال نقابها الشفوف وجه مشرق الحسن ويحجبها غلام فى ثياب المماليك المطرزة فخلبت الباب النظارة بروعة موكبها والرصائع المثقلة فى مخاطم دابتها .

وكانت تسعى بين الجموع الحاشدة على هدى من الغريزة وإلهام من العاطفة كأنها تفتش عن ضالتها بينهم فأسرت إلى حاجبها كلمات فأرخى للدابة زمامها فاشتد خطوها — حتى كشف لها فتى مديد القامة فوق فرس أدهم يمشى بين فرسين أشهبين ثم حجبته المظال والأعلام الخافقة بين المضارب والقباب وتكشف لها مرة أخرى فحركت بغلتها تلاحقه فحال بينهما موج من الأجسام البشرية ولكنها حرصت ألا يفوتها فتبينها الناس وانحازوا عنها وأفسحوا لها الطريق حتى أدركته وكان الذى تطارده حيدر لم يخطئه إلهامها المرهف فلما رآها عرف من وراء بخنقها وجه جلنار يفيض حسناً وسناً كما عرف وجه غلامها على الزئبق الذى بالغ فى تنكره فأذهلته المباغتة والحيرة فى اختيار الوسيلة التى بها يلقاها وما نسى فعلة الأمس واستهانته بالولاء لها وهى التى آثرته بالتميمة الغالية وجملته بسيف أبيها الملك المنصور .

ولكنها أنقذته من حيرة الموقف وطارحته تحية خالصة تجرى كالرحيق من ثغرها المبتسم فاعتذر إلى زميليه وواعدهما أن يلتقوا بقبة هبة الله بن القمص ثم حف بركابها صاغراً حتى بلغ المضارب .

وكان أهل المضارب من أعيان القبط وجماعة المباشرين والكتاب الذين اتخذوا منازلهم بالحمى المعروف لنا بخط التوفيقية ومعروف وهى ديارات جميلة أتقنوا بناءها وزوقوا سقوفها وجعلوا أرضها وجدرانها بالرخام والدهان وغرسوا بها الأشجار وأجروا إليها الماء من الآبار وكانوا طبقة مترفة أهل نعمة لا يمر بهم عابر إلا تبين آثارهم وروائح طعامهم الشهى وعبير البخور من العود والند ونفحة الخمر وصوت الأغانى

وكان عميدهم هبة الله بن القمص أكبر المباشرين من أولياء الوزير ابن مزهر يتجر بماله ويباشر دوائر أعماله ويحتفظ بودائعه فأقام كعادته بشط النيل قبة من الديباج الأحمر مد بها البسط والأرائك ومن حولها دهليز وقف به غلمانه وجملها بالثريات والقناديل والتعاليق الممتدة من ساریاتها .

وكان من وراء القبة دمنة يسكنها الفلاحون فأمر أن يعد بها الطعام ثم يحمل فى الدسوت للأضياف ولأهل السوق المترددين

فترجل حيدر بباب القبة وأعان الأميرة على النزول فاستقبلهما هبة الله بالتحية فلما عرف الأميرة خدم حتى بلغت أصابع يديه الأرض وأعد لها فى صدر القبة أريكة مذهبة وشغل الناس عنهما بزينة العيد وهرجه وضجيجه فمالت جلنار إلى رفيقها تحدثه فقالت :

لقد حدثنى الزئبق بما وقع لك مع خوند جلبان وكيف أضلك خداع النظر لقرب ما بينى وبينها من شبه ولعل الذى أمعن فى خداعك قدرتها البالغة على تصوير أزيائى وتقليد رنكى لتوهم الناس أنها جلنار ابنة الملك المنصور وما أظنك قد ألممت بها وأسلمتها قلبك كما أسلمتك وجهها

فأراد أن يعتذر بكلماته المعسولة ولكنه أمسك لما أقبل الغلمان عليهما بأباريق الجلاب وأنواع الشراب فشغلا بها عن العتاب وحرج الموقف

ثم حملت لهما طرف العيد من جامات الحلوى القاهرية وأخرى على هيئة الخيار والموز وما كان على صفة الخيول والسباع والقطاط ، وهى التى يدعوها الناس بالعلاليق تعلق بالخيوط في الحوانيت فتشترى للأطفال فى ذلك العيد . وكانت جموع الناس تروح وتغدو أمام الخيام فى صفوف كثيفة لا ترى بينها موضعاً لقدم فكان بعضهم يتفرج على الجالسين بصدر القبة فتزحمهم من خلفهم أمواج متعاقبة فتحل طبقة مكان أخرى .

وعادت جلنار إلى محاسبة حيدر وطالبته ببيان ما وقع له مع جلبان فوجم وأفحم ، ولكن الأحداث المقبلة هونت من حرج موقفه وبددت كل شك من ناحيته فقد تراجعت صفوف الناس فجأة وترامت أكداسها إلى الوراء خوفاً وفزعاً كأن سياط الشرطة تعمل فى أقفيتهم حتى أصبح أمام القبة فراغ متسع وكشف للناس رجل قصير القامة عظيم الهامة كأنه يحمل عنق بعير يمشى الهوينا كمن يعتد بقوته وشدة بأسه واسمه على باى .

وكان أكبر المصارعين بين أصناف المماليك ورأس كل فتنة ، فكان إذا غضب ثار معه ألف مملوك بالقلعة لا يسألونه لم غضب و إذا نزل إلى الأسواق أقفلت فى وجهه خوف النهب والسلب وقد يئس من إصلاحه الأمير الكبير برسباى رأس النوبة والمشرف بنفوذه على ثمانية آلاف مملوك ينزلون طباق القلعة وثكناتها . وآخر ما رأى أن يعجل بخروجه مع طلائع الجيش المجهز للحرب مع شاه سوار على أن يبقى فى مسالح الحدود إلى أن يستكمل الجيش أهبته وخرج ذلك الشيطان وحده ليرى مشاهد العيد فسبقه الرعب والفزع وفر الناس من وجهه .

فلما بلغ قبة ابن القمص أعجبته زينتها ولمح خوند جلنار فى صدرها فبهره جمالها وكان زير نساء لا تنجو من شباكه أنثى فمشى إليها على مهل ويسراه من خلف ظهره زهوا وصلفا ويمناه تعبث بشاربه فتوارى صاحب القبة وغلمانه اتقاء شره ، ولم

يبق إلا حيدر ليملأ فراغ الموقف فتأهب للحادث المقبل عليه مستنداً إلى ساعديه وما بينهما من قلب شجاع فجعل يزن قوته ببأس عدو مدجج بالسلاح ويستطيب الموت ليكفر عن عبثه ويسترد منزلته من قلب حبيبته جلنار، وكان على باى قد استخف بحيدر وتجاهل وقوفه إلى جانب غنيمته ودنا منه حتى التحم به ودفعه بيمينه دفعاً عنيفاً بالغاً ولكن الفتى لم يتحرك كأنه جدار لا يريد أن ينقض، وعاجله حيدر بلكمة خطيرة فى فكه الأسفل وبأخرى أسفل عنقه فلما شغل الجبار بنفسه انهال الفتى يكيل له اللكم متداركاً ويصدم رأسه فى سارية القبة فترنح وانهار صريعاً كالجذع إذا عصفت به الرياح، وغمرته الدماء المتفجرة من بدنه ولم يدعه حيدر حتى سلبه أسلحته التى ملأ بها منطقته لتكون له عونا إذا اشتد الموقف حرجاً.

واجتمع الناس حول حيدر مأخوذين بشدة بأسه وشجاعته وكان أشدهم عجباً خوند جلنار فقد كان الصراع من أجلها وبين يديها لمست فيه صلابة عوده وقوة بدنه وتعالت منزلته إلى أكرم منازل الرفعة من نفسها وأحلته مكانته الأولى من فؤادها.

وكان حيدر قد أبطأ فى العودة إلى رفيقيه جان بلاط وسيف الدين فقدما القبة وهناك هالهما الخبر بمصرع على باى واشتدت دهشتهما حين شهدا جبار المماليك مزملا بالدماء والطبيب يغسل جراحه وعلى خطوات منه حيدر ومعه خوند جلنار ترم ثيابه المهلهلة وعمامته المشعثة.

وأدرك سيف الدين سر الحادث حين رأى الأميرة وتسامى بمنزلة حيدر فوق منازل البشر حين رأى هامة الجبار تحت قدميه لأشرف غاية وسبب.

ورأى جان بلاط ناحية أخرى لذلك الموقف فقد كان صاحب الرأى بين خاصة الحرس السلطانى فقال لصاحبيه: إنى أتوقع من وراء ذلك شراً مستطيراً

وانهال حيدر يكيل له اللكم ويصدم رأسه

فليس على باى بالذى ينام عن ثأره و إذا طلع الليلة إلى القلعة خرج بالمماليك يصبون جام الغضب على الناس ولا يستطيع دفع عدوانهم أحد إلا إذا قامت الحرب ومن الرأى أن يبقى بين أيدينا حتى نعود بخوند إلى قصرها بسلام وأسارع بتبليغ السلطان والأمراء ليتخذوا للأمر عدته .

فامتطى حيدر جواده وأردف الأميرة وانطلق بها فى ظلمة الليل فمدت راحتيها حول صدره وعنقه تتحسس جراحه فغلبها هواها فطوقته وصعدت فى وجهه أنفاسها فاستدار إليها حتى التقى الثغران فى فيض من القبل ، فلما اشتفيا استندت إلى صدره وقالت : لقد قامرت ياحيدر بفتوتك القاهرة وصلابتك الراسخة فصنت العرض وحميت الخدر فاستحلت بذلك مودتى ووفائى وحبى فأنا منذ اليوم صفيتك الخالصة بعهد الله وموثقه لا أرضى غيرك من الأمراء أو الملوك فهل أنت عند عهدى وموثقى؟ قال : نعم ياخوند لقد وهبتك روحى هبة لارجوع فيها فلا أدع بابك إلى غيرك ولو قطعونى إرباً فإذا حال جاه أبيك وسلطان الدنيا بينى و بينك قنعت بذكراك وطلقت نعيم العيش حتى ألقى الله بحبك بغير مزيد .

فعادت إلى أحضانه وقالت : إذن أنت منذ الساعة زوجى على كتاب الله وسنة نبيه لا يحول دون ذلك حائل من جاه أو سلطان فهاك النعيم من جيدى والرحيق من ثغرى ، وكان قد لحق بهما الزئبق يسوق بغلتها فلما رأته قالت لحيدر : إن هذا الفتى صاحب الفضل فى لقيانا فمن عهد أن حجبتك جلبان جعلت أسائل عنك أعوانك فلم يسعفنى إلا الزئبق فهو الذى فرّ بك من قبضتها ثم جمعنى بك فى عيد الشهيد .

وبلغوا أبواب القصر فخرج الغلمان يستقبلون مولاتهم فى المشاعل والشموع ولا علم لهم بما حدث فودعها حيدر وانطلق إلى داره .

وحرك جان بلاط فرسه إلى قبة الأمير يشبك التى بظاهر الحسينية حيث كان

السلطان مع الأمراء يصلى العشاء خلف إمامه محمد بن دمرداش فلما ختمت الصلاة تقدم إليه بالخبر .

فخلا السلطان بالأمراء وتذاكروا فى تسكين الفتنة وأجمعوا على الثناء على حيدر ، وبلغ السلطان التفاف الناس بحيدر واجتماعهم بداره فأنفذ كاتب السر ينشر السكينة بينهم فسارع الوزير إلى بيته يستقبل الرؤساء والعلماء والقضاة وهون عليهم الأمر لأن الأمراء قد ملكوا ناصية الحال وقام أولهم رأس النوبة وهو الأمير برسباى المشرف على المماليك جميعاً، فاحتجز على باى فى قصره وأحاطه بجماعة من عقلاء المماليك أهل حزم ودعة وخلق كريم يروضونه ويهونون عليه وقع الحادث .

وبات الناس ليلهم فى هم مقيم مقعد فالأمراء يخشون على القاهرة ثورة تعصف بها المماليك ، وجمهور الأمة وعلماؤها وتجارها يتخوفون العاقبه فى أموالهم وأنفسهم وعيالهم .

الفصل السابع عشر

كياسة

لقد أنصف المؤرخون قايتباى إذ وضعوه فى صدر ملوك الترك بمصر والشام فقد كان رجلا بعيد النظر واسع الحيلة طويل الأناة يعتد بأهل الرأى من كبار الأمراء يستشيرهم فى تصريف شؤون الدولة فاذا أبرم أمراً كان عملا رشيداً ورأياً سديداً .

وكان عونه الأكبر الأمير أزبك والأمير جانى بك حبيب سفير مصر العظيم وكان الأخير رجلا كيسا أفصح أبناء الترك بياناً باللغة العربية وبكثير من اللغات الأجنبية موفقاً فى كل عمل ندب له فهو المبعوث الأول إلى ملوك أوروبا وسائر ملوك الشرق ، وكانت مرونته ولطف حديثه وسمو آدابه فى تبليغ الرسائل وتلطفه فى الإجابة قد جعلته أكبر رجال السياسة فى الشرق .

فلما تعقدت حادثة تجار الإسكندرية الذين أسرهم الإفرنج بذل السلطان جهود الجبابرة فى تسكين الخواطر ووعد الناس بفكاك الأسرى ، وكان قد نقل إليه عمل ملك التجار وأسره ابنة ملك قبرس واعتقالها بداره ثم محاولته نقلها إلى مكان آخر ونجاتها من أسره بيد البطل حيدر بن كاتب السر الذى حملها إلى دير ناهيا بالجيزة .

فأنفذ إلى الدير بعض حاشيته وبينهم وصائف القصر وعرضوا على الأميرة أن تقيم ببعض القصور السلطانية بين خوندات البيت المالك فقابلت هذا الفضل بمزيد الشكر وأعلنت رغبتها فى البقاء بالدير ، فأقامت الوصائف فى خدمتها

وفرشت مخادعها بنفائس القصر وأعدت لها الموائد من السماط السلطانى .

وبعد ذلك ندب الأمير حبيب للسفر إلى قبرس ليطمئن ملكها على ابنته ويطالب بعودة الأسرى المصريين ، وحمل معه رسالة من الأميرة لأبيها ، فسر الملك وأعد لسلطان مصر هدية جليلة وجهز معها الجزية المقررة على قبرس للدولة المصرية ، فقد كانت الجزيرة تؤدى الجزية من عهد أن فتحها السلطان الأشرف برسباى عام ٨٢٩ هـ وأسر ملكها وحمله إلى القاهرة وعلق خوذته على باب المدرسة الأشرفية فهى باقية كذكرى للفتح والنصر .

وفى خلال ضيافة الأمير حبيب كان ملك قبرس قد راسل ملوك إيطاليا وأمراءها وتعاونوا جميعاً على حل عقال الأسرى وعاد بهم الأمير حبيب على ظهر غراب مصرى تخفق فوقه راية مصر الصفراء ، ودخل الأمير القاهرة وهى كالمرجل تغلى بالفتنة وتتحفز للثورة من أجل المملوك الكبير على باى ، وطال اجتماع الأمراء للشورى والناس من ورائهم فى وجوم وقلق والأسواق معطلة والرحاب والدروب مقفرة وقد غلق الناس أبوابهم وجلسوا من خلفها يرقبون المصير وهم بين متشائم يرى الثورة بالباب يؤججها المماليك من أجل زعيمهم على باى ومتيمن بالأمراء الذين وقفوا بجنودهم يدفعون العدوان عن المصريين فى مواطن كثيرة لا ينساها الناس .

وقد ضاعف الموقف سوءاً تلك الضائقة النازلة بالبلاد لانخفاض ماء النيل وانتشار الذعر والفزع خوف الشرق واستحكام الغلاء حتى لقد بيع القمح كل أردب بسبعة دنانير ، فلاح شبح المجاعة وتحفز الغوغاء وأشرار اللصوص للنهب والسلب فى سبيل القوت ، فعقد السلطان مجلساً عاماً فى الإيوان الكبير بالقصر الأبلق وخلا بكبار الأمراء يشبك وأزبك والأمير حبيب قيس الرأى والوزير الكبير وكاتب السر ابن مزهر .

ووقف بباب الإيوان أبطال المماليك من الحرس الخاص وسيوفهم مشهرة .

وجلس بالباب أميران من أعيان الدولة وهما برسباى رأس النوبة المشرف على المماليك جميعاً وصديقه أزدمر حاجب الحجاب .

وكان الأمير برسباى شجاعاً عادلاً يحبه المصريون لشدته على المماليك و إنصافه كل من يشكو أحداً منهم ، فمن أيام كان أحد المماليك قد اشترى ثوباً بعلبكياً وأراد أن يأخذه غصباً وضرب التاجر فشكاه التاجر إلى الأمير برسباى الذى أحضر المملوك وأدبه .

وقال برسباى لصاحبه أزدمر : إنى لأرجو أن يوفق المجلس إلى حل يرضى به الفريقان جميعاً ويعود به جمهور الأمة وصفوف المماليك إخواناً ، فأجابه أزدمر : هذا أكبر الظن بالسلطان الذى كتب له التوفيق فى جميع مواقفه وشؤونه .

فقال برسباى : ما دام الأمير حبيب والوزير ابن مزهر بين أمراء المشورة فالتوفيق رائدهم .

واستدعى الأمير برسباى مقدم المماليك واسمه خالص التكرورى ونائبه عنبر وأوصاهما بإغلاق الطباق بعد تجريد المماليك من السلاح وأن يجلس نقيب كل طبقة على بابها ، ثم تقدم الأمير تمر وهو أمير جاندار المكلف حراسة الزردخانة فطوقها بحرس كثيف من جنود الحلقة .

أما الرحبة التى حول الإيوان فكانت تعج بالأمراء من كافة الرتب وهم يخطرون بين مماليكهم ، وأخذ أمراء الشورى يقلبون وجوه الأمور بين يدى السلطان وكلهم قد استنكر فعلة على باى وأشار بابعاده والحد من طغيانه وتأديب أترابه وقمع ذلك الطغيان الذى شمل صفوفهم ، وكان السلطان يقلب ناظريه فى وجوه الأمراء دون أن يبدى سخطاً أو رضا ، وكان كاتب السر كعادته صامتاً يحتفظ لنفسه برأيه حتى يسأل عنه ، فقال له السلطان : هذا اليوم من أيامك يا وزير فلا

تكتم نصيحة ولا تُخْفِ رأياً ترى فيه صالح الدولة عسى أن يرزق الله التوفيق ، فاعتدل الوزير فى مجلسه وخدم ثم قال :

أيد الله مولانا ونصره وجعل كلمته العليا، إن على باى لم يأت منكراً ولكنها بادرة من خشونته التى طبع عليها فهو رجل شجاع خلق للكفاح فإذا نحن أحسنا توجيهه أخرجناه من خشونته وهذبنا خلقه ثم أدخلناه صفوفنا جندياً شديداً على أعداء الدولة هيناً باراً بقومه .

فإن رأى مولانا ورأيه موفق إن شاء الله خلع على على باى رتبة أمير عشرة ثم يكون أميراً لركب المحمل فى هذا الموسم فإذا بلغ حرم الله وحرم رسوله الكريم راض نفسه على خشية الله وتقرب إليه بالرفق بالضعفاء والمساكين من جماعة المسلمين حتى إذا رده الله كان ليث وغى فى سبيل الله وسياجاً للسلم والأمن .

فالتمس الأمير حبيب إذن السلطان ثم عقب على كلام الوزير وقال : كان والله يجول بصدرى ذلك الخاطر منذ حين وأرى السيد الوزير أصلحه الله قد عالج ناحية من الأمر وسكت عن أخرى وأكبر الظن أنه تركها لنعالجها بأنفسنا وتلك هى إسناد مرتبة رفيعة لولده حيدر فإن له من شجاعته ومناقبه الحميدة ما يضفى عليه ثوب الإمارة .

فلاح السرور على وجه الأمير يشبك وقال : هذا بعض ما أتوسمه لحيدر فهو أشجع من بلوت من فتياننا ولن أتردد فى الاحتفاظ به للحرب المقبلة على أن يكون أميراً على عشرة ، فوقف الوزير ابن مزهر وقال : أعز الله مولانا المقر العالى وكتب لراياته النصر على أعدائه . وأقر المجلس ما أشار به الوزير والأمير حبيب ، ثم تناولوا بقية الأعمال وفتح الباب فخرج أمراء المشورة متهللين وتبادلوا التحية مع إخوانهم الذين بالرحبة ، وتخلف كاتب السر عند السلطان يوقع المناشير عن مولاه ويرملها بعد أن نسخها بيده فسقط مداد الدواة على ثوبه فلوثه ، فنبهه

السلطان إلى ذلك فارتجل على البديهة هذين البيتين :

ثياب مملوكك ياسيدى قد بيضت حالى بتسويدها
ما وقع الحبر عليها بلى وقع لى منك بتجديدها

فابتسم السلطان من حسن بديهته وأمر أن يحمل إليه ثوبان من خاص ثيابه وخمسمائة دينار ، وأمر الأمير يشبك بدق الكوسات من جميع الأبراج ، وهى صنوج من نحاس تشبه الترس الصغير يدق باحداها على الأخرى وكانت أربعين حملا من الكوسات ومعها عدد عديد من الطبول والزمور وعشرون نفيراً يتولى قرعها جنود الطبلخانة .

وكانت لا تدق إلا لإعلان البشائر للناس .

ووقف السلطان وحده فى صدر الإيوان أمام الشباك الكبير المشرف على أسواق القاهرة ودروبها وميادينها ورأى جماهير الناس يخرجون من سائر الدروب والمسالك ويحتشدون فى الميدان الأسود تحت القلعة ، وقد ملؤا ساحته العظيمة وجوانبه المترامية ، فابتسم لهم وحمد الله الذى ألهمه فعل الخير وقال يناجيهم من سماء قلعته الكبرى : لاروع عليك أيها الشعب الوديع ، إن فايتباى حريص على رخائك وتوفير النعمة لك ما دمت تدين له بالولاء والطاعة .

وتناول الأمير يشبك الدوادار أول منشور فقبله ووضعه على رأسه ثم تلاه بين الأمراء وهو يقضى برتبة أمير عشرة لعلى باى وأن يكون أميراً لركب المحمل فى طلعة هذا العام ، وأن يحمل إليه ألف دينار يتجهز بها فى سفره ، وبرتبة أمير عشرة على حيدر بن مزهر وأن يحمل إليه ألف دينار جزاء شجاعته الخارقة .

وكان والى القاهرة بين الأمراء فناوله الدوادار منشوراً مطويا فقبله الوالى وخرج به من باب القلعة إلى الميدان الأسود حيث رجاله وأعوانه من الشرطة ينتظرونه

بين الجماهير فأبلغهم نصوص الأمر الكريم فاندفع نقباؤه حتى توسطوا حلقات الناس وأعلنوا أن مولانا السلطان أيد الله ملكه قد أمر بفتح كافة الأهراء والشون السلطانية التى بساحل بولاق ليباع منها أردب القمح للموسرين بدينار واحد وللفقراء بلا ثمن ، ولا يعطى للرجل أكثر من ويبتين من الغلال حتى لا يختزنها الناس فتعود الضائقة .

فانطلقت فى الأفق رعود الحناجر بالدعاء الخالص ودوى بها الميدان حتى طغى ضجيجها على دقات الطبول والكوسات ورددتها مائة ألف كبد جائعة تقول :

عاش السلطان الأشرف عاش قايتباى العظيم عاش ملك الإسلام

فلما بلغ الوالى ساحة بين القصرين أعلن للملأ أن مولانا السلطان رأى بثاقب رأيه أن النيل قد كف عن الزيادة واشتد خوف الناس من كارثة الشرق فعلى طوائف الأمة أن تزور فى صباح الغد قاعة المقياس بجزيرة الروضة للدعاء إلى الله فيكون أطفال المكاتب من المسلمين على رؤوسهم المصاحف وأطفال النصارى على رؤوسهم الإنجيل وأطفال اليهود على رؤوسهم التوراة فيدعون الله جميعاً بما توحيه أديانهم لعل الله تعالى يلطف بكنانته فيزيد فى نيلها زيادة تنبت الزرع وتدر الضرع.

وخرج الوزير كاتب السر فى موكب كبير يحف به كتاب الدست الشريف إلى الجامع الأزهر ومعه كبير المهندسين شمس الدين بن الزمن فأبلغ العلماء أمراً كريماً يقضى بهدم كافة المساكن والخلاوى التى بسطح الأزهر والتى شوهت مظهره وأن تجدد عمارته إلى أحسن حالاته ، وقد حملت من بيت المال عشرة آلاف دينار للنفقة على ذلك ، وحمل إلى فقراء الطلبة والمنقطعين ألف دينار ، وألفاً أخرى إلى شيخ الإسلام أمين الدين يستعين بها على نفقات الحج، فتعالت دعوات الخير من صدور الطلبة والحفاظ وسائر المنتسبين إلى الأزهر من بلاد الشرق .

ومر الوزير بعد ذلك بساحة بين القصرين ثم وقف بباب الشاعر بدر الدين

الزيتونى وكان عنده جماعة من رفاقه بينهم أصيل الحضرى ومجد الدين الشطرنجى فقال له الحضرى يداعبه: ألم أقل لك إن البلاء موكل بالمنطق ؟ قم الساعة يا رجل فقد حانت منيتك! وعقب على ذلك مجد الدين فقال: ألا توصى لولدك نعمان! فقال الزيتونى وقد ذهبت نفسه من الخوف: إن فى عنقى دراهم للحائك والإسكاف فأيكما يوفى ديونى ؟

وأبطأ فى الخروج فدخل إليه أعوان الوزير يستحثونه فجعل يجر قدميه رعباً وفزعاً فلما رأى الوزير ظن أنه أمر بسجنه فصاح ورفع ذراعيه يستجير فجفلت منه البغلة حتى كاد الوزير يسقط من فوقها ولكنه لم يغضب بل هش له وطيب خاطره ، فتقدم الزيتونى بين يديه معتذراً وقال :

إن زلت البغلة من تحته فإن فى زلتها عـذرا
حملها من علمه شاهقاً ومن ندى راحته بحرا

فابتسم الوزير وقال لقد أصبحت بنعمة الله شاعر القصر ولك رزق مبلغه ألفان من الدراهم كل عام ، وهاك ألف درهم عن ستة أشهر سلفاً وألفا أخرى جزاء أدبك الذى طيبت به سمعنا ، وأشار إلى كاتب من كتاب الدرج كان فى ركابه ليدفع إليه المال وانصرف مشيعاً بالإجلال والإكرام .

ودخل الزيتونى إلى أخوانه ومن ورائه كاتب الوزير يحمل المال فلما توسط الجماعة مال إليه الكاتب وقال :

إنك منذ الساعة من أهل بطانة السلطان ولعلك مارست أدب الملوك فى المأكل والملبس؟ ولا أزيدك بياناً بما يليق ومالا يليق، فإذا جلست إلى موائد القصر فعليك بتصغير اللقم والابتعاد عن الشره والنهم ولا تتحس المرق ولا تتبع مواضع الدسم ولا تملأ فاك بالطعام ولا تجعله يقطر على يدك ولا تعجل فى مضغك ، وإذا دعيت إلى السماط فلا تأكل فى الليل أكثر من أكلة ولا تكثر من الضحك

والكلام عند حضور المائدة ولا تتخلل عليها وإذا حضر النقل فلا تأكل إلا اليسير منه .

وألقى بين يديه بالمال وودعه بنظرة تحذير .

فمال الزيتونى من الضحك وقال لإخوانه :

أسمعتم مقالة ذلك الشيخ الأحمق فلن يرانى أهل البلاط على سماطهم إلا جيد المضغ سريعه سباقاً إلى التهام الشواء وسكباج الأمراء ! أظن الغبى أننى أمعن فى أكل البقل وأدع له ولأشباهه صدور الأحمال وعتاق الديكة ! ووضع المال بين أيديهم وقال : هذا رزق ساقه الله إلينا .

الفصل الثامن عشر

وفاء النيـــل

كان قايتباى مظهراً من مظاهر النبل فى عصر كله ظلمات وجهالات، عادلا فى الحكم على الظواهر الخاضعة لسلطانه، حريصاً على إطلاق الحرية للعقائد والأديان بين أهل الذمة من رعاياه، لا تأخذه أمامها نعرة ولا عصبية حتى أجمع على حبه اليهود والنصارى وكان من شواهد ذلك نصيحته لأبناء المسلمين وأبناء النصارى واليهود بالتوجه جميعاً بالدعاء إلى الله فى مقياس النيل بجزيرة الروضة حين توقف النيل عن الزيادة، وعقب ذلك حادث كان له روعته وتقديره، فقد قام بمدينة القدس الشريف جماعة من المسلمين فخربوا كنيسا لليهود وأقرهم على عملهم قاضى القدس، فهبت الفتنة من مرقدها وراح اليهود يوقدون نارها فى سائر الأمصار وسقط الطير إلى السلطان بالخبر فأمر بأن يحمل إليه فى الحديد قاضى القدس وسائر من اشترك فى هدم الكنيس، وعقد من أجل ذلك مجلساً من العلماء يستفتيهم فى جواز الهدم و إقراره أو إعادة الكنيس إلى ما كانت عليه على نفقة بيت المال فاشتدت نزوات الرؤوس وتحفز للعمل يهود مصر، وكانت الدولة فى أيام حرجها أشد ما تكون حاجة للمال تنفقه على عتاد للحرب التى كانت على الأبواب.

فتقدم شمويل الصيرفى عميد اليهود إلى الوزير كاتب السر وقال: إن يهود مصر يحملون الساعة إلى خزائن الدولة ألف ألف دينار قرضاً معجلاً تنفق فى تعبئة الجيش وجهازه، فتبين الوزير بثاقب رأيه أنها رشوة مفضوحة يحملها اليهود

ليستميلوا بها السلطان إلى جانب يهود القدس فيرد كنيستهم كما كانت . ولئن نالوا من وراء ذلك ما يشتهون لانقلب عليه العالم الإسلامى من سائر أطرافه .

فرفض الوزير ما عرض شمويل وصرفه خائباً دون أن يشاور فيه أحداً من رجال الدولة وأسرع إلى مولاه يقص الخبر .

وكان العلماء قد اختلفوا بين محبذين وناقمين، فرفعت حجج الفريقين إلى السلطان فأيد رأى من قال بإعادة الكنيس إلى ما كانت وصرف قاضى القدس عن عمله .

واستأذن عليه كاتب السر فأبلغه السلطان رأيه فى المسألة وأمر بأن يذاع على الملأ، فنظر الوزير إلى مولاه نظر إجلال وإكبار وقال: أى عمل جليل ذاك الذى خلدته يا مولاى فى صحائفك ! فأنت دائم السبق إلى المنزلة العليا من مناقب الملوك لم يفتك توفيق الله و بركته .

و بسط له حكاية شمويل الصيرفى وما عرضه من المال وأنه أنف أن يستمع إليه ، فصرفه فشكره السلطان وأقره على عمله .

وعرض السلطان بالاستعانة بمال يؤخذ قرضاً من مَوْدَع الأيتام .

وكان بمصر نظام وثيق لحفظ أموال اليتامى والغائبين فكان من مات وله ورثة صغار وترك ما يورث نقل ميراثهم إلى خزائن تصان فى فندق كبير اسمه فندق مسرور ويختم عليها وتبقى تحت إشراف قاضى القضاة الشافعى ، فإن كان للميت وصى أقام القاضى معه عدولا من جهته يحاسبونه ، وكان ذلك الفندق يسمى مَوْدَع الأيتام ، وموضعه الآن حيث وكالة رخا بالغورية أمام شارع الصنادقية .

وقد اعتاد ملوك مصر أن يستعينوا بأموال من مودع الأيتام فى الكوائن والحروب، ولكن بعد الإذن الصريح من قاضى القضاة الشافعى، على أن يردوها فى أقرب وقت، وما عرف فى تاريخ أحد من ملوك مصر أنه امتنع أو أبطأ فى رد شىء من تلك الأموال . فلما عرض السلطان بذلك المال قال له الوزير : لقد مر بى ذلك

الخاطر فأعددت له العدة من الساعة التى فوتُّ فيها على اليهود أغراضهم فدبرت الأمر مع قاضى القضاة الشافعى ولا مانع من إحضار ألف ألف دينار من مودع الأيتام تنفق على الجيش . فابتسم له السلطان وقال : أحسنت التدبير ياوزير .

فقبل الوزير الأرض ثم أخرج من صدر قبائه غلالة من الحرير بها حلية كبيرة صيغت من خالص الذهب فى إطار من اللآلىء الكبار و بينها الأحجار الكريمة وكانت قيمتها لا تقل عن عشرة آلاف دينار .

وقال : إن أبناء مزهر الذين شرفونى بزعامتهم يتقدمون إلى مولاهم وسيدهم سلطان الدنيا بتلك الهدية الصغيرة اعترافاً بالفضل الذى طوقتم به عنق ولدى حيدر حتى أصبح أول مصرى يحمل رتبة الإمارة وشعار الجندية وله أقطاعها وزيها .

وقال :

أهدى لمجلسك الشريف و إنما أهدى له ما حزت من نعمائه

كالبحر يمطره السحاب وماله مَنٌّ عليه لأنه من مائه

فشكره السلطان على إخلاصه ووفائه وتقبل هديته بالرضا وقال : إن ابنك خليق بالإمارة لشجاعته وشدة بأسه وحسن ثناء الأمراء عليه .

و بعد ذلك استأذن الأمير يشبك الدوادار ومعه أمير جاندار ومعهما رجل براج يحمل طائراً فى جناحه بطاقة ، فانتزعها السلطان كالعادة وناولها لكاتب السر فتلاها عليها همساً فكانت من والى مدينة قوص يقول فيها : إن بطرك القبط الذى أوفدته المملكة إلى بلاد الأحباش قد سرح الطير إلى قوص بأن الأحباش قد أفرجوا عن ماء النيل المحتجز فى بلادهم وسيبلغ الديار قبل أن يعود . وكان السلطان على أثر هبوط ماء النيل وحين اشتد الخوف من الشرق قد ندب بطرك القبط للسفر إلى بلاد الأحباش ليفاوضهم فى الإفراج عن ماء النيل المحجوز لديهم ، فلما بلغ البطرك عاصمة الأحباش استقبل بالترحاب وسارعوا بفتح السدود

التى على النيل الأزرق مما يلى بلادهم فسرح البطرك الطائر بالبطاقة إلى قوص وكان مزوداً بأقفاص الطير من مدينة قوص ، فبادر والى قوص يحمل البشرى إلى القاهرة .

فسر السلطان وأمر بأن يخرج الناس للاحتفاء بالنيل حين يبلغ الفيض باب المقياس ، وندب الأمير أزبك الأتابك ليقود موكب الوفاء بأحسن عدة وأكمل زينة .

وأول ما تولى المسلمون أمر مقياس النيل كان أيام الخليفة المتوكل على الله العباسى فهو الذى أمر أن يبنى المقياس الهاشمى ، وكان والى مصر وقتئذ يزيد بن عبدا لله بن دينار فهو الذى اختار شخصاً يسمى أبا الردَّاد وولاه أمر المقياس والتبليغ عن زيادة النيل وكان يسمى قاضى البحر وتصرف له سبعة دنانير كل شهر .

وكان للمقياس شباك معروف يراه كل الناس ، فإذا أسبل عليه الستر الأسود وهو شعار العباسيين عرف الناس أن النيل قد أوفى و بلغ الستة عشر ذراعاً . واجتمعت تلك الوظيفة فى نسل ابن الرداد وأصبح كل من تولاها يسمى ابن الرداد . وذاع بين أهل القاهرة ومصر أن الأحباش قد أفرجوا عن ماء الفيض فتبلغ الديار فى أيام معدودات . فسر الناس وزايلهم شبح المجاعة وأقبل الرخاء وانحلت أسعار القوت .

وكان من عادة ابن الرداد أن يتردد على مقياس النيل كل يوم ابتداء من اليوم الخامس والعشرين من شهر بؤنة فيطالع كل زيادة يجىء بها الله من أصل قاع المقياس و يؤرخ ابتداء من ذلك اليوم على حساب الشهر العربى ثم ينصرف إلى ديوان بيت المال و يبلغه بمبلغ الزيادة فيحمل الخبر كل يوم إلى السلطان وكبار الأمراء .

فألقى ابن الرداد بنفسه فى الفسقية

وتأخرت الزيادة إلى ذراع الوفاء وهو السادس عشر إلى الأسبوع الثانى من شهر أبيب ، فأعد فى فناء المقياس سماط فاخر وأخرجت العشاريات من مرابطها وزين العشارى السلطانى الخاص ، وكان له بيت مكون من ثمان قطع من عاج وأبنوس عرض كل قطعة ثلاثة أذرع وطولها قامة رجل تام ، فإذا وضعت تلك القطع فوق العشارى أصبحت بيتاً جميلا محكم الصناعة وألبس صفائح الفضة وأسبلت من حوله ستور المخمل ذات الذوائب الذهبية و بانت له عرانيس مخروطة مذهبة من الجانبين من أخف أنواع الخشب .

وخرج الأمير أزبك فى موكبه حتى بلغ دار النحاس مما يلى جسر الملك الصالح فاستقل العشارى السلطانى وسارت من حوله المراكب إلى أن بلغ باب المقياس العالى على الدرج التى يعلوها النيل ، فدخل الأمير إلى الفسقية وقدموا إليه آنية فيها الزعفران والمسك فمزجهما بقضيب صغير ثم أعطى الإناء بما فيه إلى وكيل بيت المال وهذا أعطاه لابن الرداد فألقى ابن الرداد بنفسه فى الفسقية بطيلسانه وعمامته وكان عمود المقياس قريباً من درج الفسقية فتعلق به ابن الرداد برجليه ويده اليسرى ومد يده اليمنى فخلّق العمود بالزعفران والمسك ، فانطلقت على الأثر الطبول تدق ونفخ فى الأبواق وسمعت الزغاريد من الشط وأحاطت العشاريات اللطاف بعشارى الأمير أزبك عند خروجه من باب المقياس واستقبله فى عرض النيل ألوف من القوارب الجميلة الحافلة بالناس وكانت صفوفاً متعاقبة و بينها قوارب الشرطة تمنع الزحام خوف الغرق .

فلما أقبل الليل انتشرت عشاريات الأمراء والذهبيات المزينة تحمل أجواق الأغانى فكن يضربن بالدفوف و ينادين :

يا حبيب اهنأ وطيب النيل أوفى فى أبيب

وكان أعوان الوالى قد خرجوا بالمساحى والفؤس يقطعون الطين المتراكم على

أرض الطريق التى يمر بها موكب الأمير أزبك فلم يسعفهم من كان معهم من الطوائف فكانوا يسخرون فى العمل كل مر بهم من الناس لا يستثنون أحداً إلا أشركوه فى قطع الطين وتمهيد الطريق .

وكان إخوان الصفا من أصحاب خديجة الرحابية قد خرجوا إلى عشارى لهم بالشط و بينهم خديجة على بغلة عالية فمروا بالطريق الذى يقطعه الناس فأدهشهم أن بدر الدين الزيتونى كان يعمل فى قطع الطريق ومن ورائه أعوان الوالى يستحثونه وقد أنهكه العمل و بلغ منه الجهد فوقفوا يتغامزون عليه و يضحكون ثم تقدمت خديجة إلى كبير الأعوان تستعطفه ولا زالت به حتى أفرج عنه وخلى سبيله فغسلوا يديه وحملوه على حمار معهم حتى أبعدوا عن الطريق فضجوا بالضحك وتناولوه بنكاتهم ومجونهم .

فتنفس الزيتونى الصعداء واسترد نشاطه ومرحه وقال : كان هذا الذى ينقصنا ! ثم أنشد :

فى دولة الترك رأينا العجب وقد حملنا فوق ما لا نطيق
وقد كفى فى عامنا ما جرى من قلة الأمن وقطع الطريق

و بلغوا شاطىء النيل بعد الغروب وكانت أنس جارية خديجة قد سبقتهم فأوقدت قناديل العشارى وشموعه وفرشت لهم الوسائد والمدورات .

فتحرك بهم العشارى على صفحة الماء والناس فى السفن والطيارات حولهم يلوحون لهم بالتحية حتى بلغوا عشارى الأمير أزبك وكان يرهج بأنوار شموعه وقناديله ومظال المخمل الأحمر والأمراء جلوس من تحتها .

وأعد الزيتونى نشيداً يتغنون به صاغ ألحانه ابن غانم فلما شارفوا عشارى الأمير اندفعوا يغنون بأحسن إيقاع وأشجى غناء وقالوا :

إمامنا الأعظم مليك البلاد بالعدل فى هذا الوجود اشتهر

فتش على النواب فمن حاف وجار أنكر عليه فعله وبالعزل جاه
ومن رآه عادل وفعله حسن خلع عليه وأعطاه منازل وجاه
وفاز بتاريخ ما فرح به ملك قبله ونال قصده وبيض تناه
أهل الفضايل والعلوم ورخوا وكل واحد فى الكتابه ذهب
يكتب تواريخ الملوك بالمداد إلا لقايتباى كتب بالذهب

فسر الأمير أزبك من جمال النشيد وتحرك يمشى إلى حافة العشارى والأمراء من حوله وأمر خازنداره فألقى إليهم بدرتين من المال فى محرمة من الحرير الأصفر وحمل إليهم أقفاص الفاكهة وجامات الحلوى .

فخدم أصحاب العشارى ثم تحرك بهم فلما أوغلوا فى النهر عادوا إلى سابق سيرهم واقتسموا هدية الأمير من الذهب والفضة فكان لكل واحد سهم وللزيتونى سهمان ومر عن يمينهم عشارى ليس له ند فى حسن زينته ورقة مظاله ونسق أنواره وكثرة أعلامه وريح المسك المنبعث من أرجائه وكان يلوح من أستار قبته وجه غانية حسناء وبالباب مملوك وسيم الطلعة فى أجمل زى وأحسن هيئة مقنع بلثام من شفوف نسج الذهب ، فمالت خديجة إلى الأمام وحدقت فى وجه المملوك وقالت لأصحابها : أرأيتم ذلك المملوك الذى وقف بباب القبة؟ إنه بلا ريب شاهين غزالى .

وكنا قد تركنا شاهينَ فى قصر ملك التجار تلاحقه إحدى الوصائف وتفضى إليه بأسرار مولاها ، فنمت عليها رفيقة لها كانت تزحمها على مغازلة شاهين وتغار منها فحملها ملك التجار إلى ضيعة له وأمر أعوانه بتعذيبها ونقل شاهينَ إلى قصر خوند جلبان ليكون تحت رقابة قهرمانها بهادور ولكن خوند أحسنت معاملته وغمرته بعطفها ورعايتها وطمعت من وراء ذلك أن يخلص فى خدمتها فلا يخون لها عهدا ولا يطلع أحداً على أسرارها وعورات قصرها واستحلفته بذمة الرجل الشريف على الوفاء لها بذلك فأقسم ورضخ .

فلما كان يوم وفاء النيل أمرته أن يتجهز للشخوص معها على ظهر العشارى لتدفع عن نفسها مقالة الناس الذين وسموها بمشايعة الأمراء فى فتنتهم .

ولمح شاهين خديجة فعرفها ، وكان الجميع ينظرون إليه ويلوحون أذرعتهم بالتحية فكاد يفضحه الشوق إليهم ، واستدار إلى باب القبة ونظر إلى الأميرة يتوسل فأذنت له بالحديث معهم دون مخالطتهم ، فمشى خطوات حتى بلغ حافة العشارى فأقبل عليه الجماعة وكانت خديجة أسبقهم حتى شارفته ، فحدثته همساً وكان صوتها يتهدج حزنا وشجى وقالت :

ولما تلاقينا جرت من عيوننا دموع كففنا غربها بالأصابع
ونلنا سقاطاً من حديث كأنه جنى النحل ممزوجاً بماء الوقائع

فأجابها شاهين همساً :

جعلت فداءك من كل سوء إلى حسن رأيك أشكو أناسا
يحـولون بينى وبين السـلام فلست أسـلم إلا اختـلاسا

وخرجت من قبة الأميرة وصيفتها ودنت من عشارى الجماعة وألقت إليهم محرمة فيها مئة دينار .

وتحرك العشارى بالأميرة فحياها إخوان الصفا أجمل تحية ، ثم تنقل بين المراكب والزواريق حتى بلغ إلى الظلام الهادئ فأمعن العشارى فى اختراق النهر ، فدنا من قبة الأميرة فى الظلام رجل يدفع قارباً صغيراً فأشرفت عليه الأميرة من شرفتها فناولها ورقة مطوية وعاد يجدف وحده فلحق به قارب كبير يحركه عشرة مجاديف حتى جاوزه ، ثم وثب إليه بضعة رجال وقلبوا قاربه فى الماء وانقضوا عليه وحملوه إلى رئيس القارب ، وكان أحمد الدنف .

فتبين الرجل على ضوء سراج فعرفه ، وكان من رجال الزعر الذين اضلهم شومان فحدق فيه الدنف تحديقاً رهيباً صعق له الرجل فسقط يرجف من الخوف .

فقال له الدنف : وأنت الآخر تغدر بنا يانصير ! أنسيت عهد الإمام وقد كنت أول من جاهد ! فنكس الرجل رأسه وقال ؟ دون أن يرفع عينه فى رئيسه :

لا أطمع فى عفو أو مغفرة أيها الزعيم فما أنا بأهل لذلك ولكننى سأكفر عن آثامى الآن ! إن على نصف ميل منكم مركبين ترابطان فى وسط النهر تحملان السلاح والرجال و بعد ساعة واحدة تعبران النهر إلى أبواب قصر الأمير جان بك وقصر ملك التجار . هذا ما كنت أحمل نبأه إلى الأميرة .

وفى سرعة البرق أخرج من خفه سكيناً طعن بها صدره وسقط فى جوف القارب صريعاً فربطوه بحجر وقذفوه فى اليم .

وكان الدنف قد سقط عليه الطير من الإسكندرية بسفر المركبين فى النيل إلى القاهرة فشاور الأمير حيدراً فى مهاجمة الأمراء وأخذهم على غرة، فجهزوا الكتائب سراً وأحضروا فى النيل عشر طرائد لنقل الخيل تحمل كل طريدة أربعين جواداً . وحمل الدنف رجاله فى السفن ولحق بهم كتائب القاهرة يمشون جماعات صغيرة متنكرين فى أزياء مختلفة .

وأراد حيدر أن ينفرد بجنوده بهذه المعركة فبالغ فى التكتم والحذر .

وتحرك فى ظلام الليل صف طويل من السفن النيلية حتى شارف السفينتين ، فخرج من إحدى السفن صيحات الاستغاثة ثم سمع صوت انكسار ساريتها وسقوطها فى النيل ، وكانت خدعة لجأ إليها الدنف ، فجازت على الأعداء فتقدموا لمعونة أصحاب المركب المحطمة فى قواربهم فبادر إلى السفينتين من الخلف عشرات من القوارب الكبيرة تحمل جنود الكتائب وكانت صيحات أهل السفينة المحطمة تطغى على حركة القوارب فلم يشعر بهم أحد من رجال السفينتين .

و إن كانت إلا لحظات فإذا بجنود الدنف وفتيان الكتائب يشتبكون فى القتال مع جنود السفينتين . وتمت حيلة الدنف على أحسن وجه فقد أوقد فى

إحد مراكبه قوارب النفط والصواريخ فدوى صوتها فى الفضاء ، فظن من كانوا فى مهرجان النيل بالجانب الآخر من النهر أنها مركب أحد الأمراء تحمل صواريخ وتطلقها من الجانب الغربى .

وأعمل رجال الزعر وفتيان البندق سيوفهم ورماحهم فى أعدائهم تحت ستار من دوى الصواريخ إلى أن استأمن إليهم الباقون ، وما كانوا إلا مئة رجل حاسرين قد حيل بينهم و بين سلاحهم الذى كان مخبوءاً بقاع سفنهم . ووضع الأسرى فى الأغلال ونزعت ثيابهم فلبسها جنود الدنف والكتائب ، وطهرت أسطح السفن من آثار المعركة واستقل الكتائب مع رئيسهم حيدر ظهور السفن وهم فى ثياب أعدائهم ليضللوا أصحاب القصور .

وتقدمت السفينة التى كانت تشعل الصواريخ صوب جماهير الناس لتصرف الأنظار عن القتال الدائر فى وسط النهر ، وفى غضون ذلك دنت من أبواب القصور المشرفة على النيل طرائد الخيل وفيها أربعمائة جواد مع الغلمان .

وجهز الأمير جان بك قصره لاستقبال القادمين على السفينتين فأطفئت أنواره وأنوار القصور المجاورة ومهدت الطرق وأبعد الناس وفتحت الأبواب وأعدت المخابىء ، فتقدم فتيان الكتائب فى سكينة وهدوء حتى ملكوا سائر الأبواب وفى غمضة العين ملكوا المفاوز والمعابر ومروا فى نفق الأمير إلى الداخل وأعملوا القتل فى الذين خرجوا إليهم من حرس الأمير ، وأوصى الدنف رجاله بألا يأسروا أحداً من الخونة أعوان شومان وأن يمعنوا فيهم قتلا .

وتقدم حيدر من النفق إلى البهو المفضى إلى حجرة الأمير أحمد بن هرسك ليسبق الجنود ، إليه وكان ببابه عشرة من الجنود العثمانيين ، فصاح بهم حيدر وصرع بسيفه رجلين ، ثم دفع الباب ففتح ورأى ابن هرسك فى وسط الحجرة و بيده سيف مشهر ، وأراد حيدر أن يبغته قبل أن يأخذ أهبته ، وكان ابن هرسك

من أبطال السيف قل أن يدانيه فى بسالته و بأسه رجل من قومه ، فتقدم إلى حيدر معتزاً بنفسه واستقبله بضرب يفرى العظام و يفلق الهام فقام بين البطلين قتال عنيف ، فدهش ابن هرسك من شجاعة حيدر وخفة حركاته ونبوغه الباهر فى ألعاب السيف على صغر سنه ومظهر تنعمه ،وامتد القتال بينهما فترة من الزمن إلى أن عثر ابن هرسك فأكب لوجهه فظن حيدراً قاتله لا محالة ،ولكن الفتى عاد إلى الوراء وأمهله حتى نهض من عثرته واسترد حسامه فازداد إعجاباً به وافتتاناً بشمائله ، وكان جنوده قد أقبلوا عليه فى سيوفهم وانقضوا على حيدر فصاح بهم ابن هرسك وكفهم عنه ، ودخل الحجرة سيف الدين فى ثلاثين بطلا فطوقوا جنود العثمانيين وصاح سيف الدين يشجع حيدراً و يغريه بخصمه ، فعاد البطلان إلى جلادهما وكان حيدر أخف حركة وأكثر نشاطاً فجعل يداور خصمه إلى أن دفعه بسيفه فانطرح على الأرض .

وقام ابن هرسك وحمل سيفه إلى حيدر ومد إليه يده بالتحية فشد عليها حيدر مبتسما وقال : لقد حزت اليوم شرفاً عظيما بمنازلة سيد مختار من أبطال العثمانيين نقلت إلينا أحاديث شجاعته وستكون يا سيدى بعد اليوم و بعد الإذن من مولانا السلطان نزيلا وضيفاً لا أسير حرب ، وقد رأيت بعملى هذا أن أستبدل بدار ضيافتنا ما أنت فيه من هوان التستر والتخفى واللجوء إلى المعابر والمفاوز بين الخونة من قومنا .

ولزم ابن هرسك صمته حياء فقد بوغت بفتى كريم وضيافة سخية لم تكن فى حسابه . وقتل من مماليك الأمير عشرون رجلا كما قتل عامة رجال شومان إلا القليل الذين لاذوا بالفرار .

وتسور الجنود جدران القصور وراء خوند جلبان ولكنها كانت قد دلفت إلى نفق سرى أعدته للطوارئ المباغتة ومعها شاهين غزالى . وسر الدنف من وقوع

الأمير جان بك فى أسره وهو معقد الآمال وغاية كل قصد بل كان هو السلطان المرجو من ذلك الانقلاب وقد قتل أكثر أمرائه ومماليكه قبل أن يسلموه .

واستسلم ملك التجار ولكن ابنه فر مع أربعة من مماليكه .

ودمرت خزائن القصور فى البحث عن الوثائق ، فاستولى حيدر على الكثير منها ، ولم يسلم قصر الأمير أحمد بن العينى من نوائب التدمير فقد ظهرت فيه أنفاق ومزالق كان يستتر فيها بعض الجنود .

وطلع الفجر ونادى المؤذن من فوق المنائر فقام حيدر يمشى الهوينا فى دهليز قصر جلبان حتى وقف فى صدر الإيوان وأشرف على النيل فى اشتداد لجبه وفورته ، وكانت الطرائد ترسو بالشط والخيل تصهل فيها بأيدى غلمانه ، فحمد الله على نعمة هذا النصر الباهر وقال يحدث النيل السعيد :

شكراً لك أيها النيل الكريم فقد بلغت المدى من وفائك وأسبغت على الوادى نعمة الرخاء ، ولكن أطيب ما بلغ إليه وفاؤك أيها النيل ذلك النصر العزيز الذى طهرت به البلاد من الخونة !

الفصل التاسع عشر

حـــزم وعـــزم

لقد ذاع خبر المعركة التى أوقد نارها حيدر وكتائبه وحلفاؤه رجال الزعر ، فلما ولى الليل وتوارت أعلامه أقبل الناس من سائر الدروب والرحاب المفضية إلى منشية المهرانى فبهرهم لأول مرة مظهر جنود المصريين على رؤوسهم المغافر وعلى أبدانهم الدروع وعلى صدورهم الجواشن وبأيديهم الرماح تخفق تحت أستتها بنود صغيرة متعانقة من الحرير الأحمر والأصفر ، تجرى بهم الخيل كراديس بعضها فى أعقاب بعض ، وبينهم نقباؤهم والأدهم الأغر يختال بحيدر على رأسهم وأحصى الناس عشرة كراديس من الفرسان هم نواة الجيش الذى أنشأه قايتباى من أبناء القاهرة

وكان رجال الزعر يمشون حول الأسرى من مماليك الأمراء وبينهم الأمير العثمانى ابن هرسك على جمل عال ليراه الناس ، وعليه درعه وعمامته ومنطقته وسيفه وحوله حاشية يمشون .

وحمل الأمير جان بك وجنده وملك التجار وبهادور قهرمان خوندجلبان على المحفات .

وجاءت عدة كتائب من المماليك السلطانية فتولت حراسة القصور الأربعة وسائر السفن التى فيها عتاد الحرب .

وصعد فرسان حيدر إلى الرحبة الكبرى من القلعة ورابطوا بباب الإيوان فجلس لهم السلطان مجلساً عاما فى الحوش على الدكة ومن حوله الأمراء على طبقاتهم ، وأذن لحيدر بالدخول فتقدم وخدم مرتين فاستدناه قايتباى وأجال بصره فيه

وأعجب بشجاعته وتفوقه فى القتال وهنأه بالتوفيق الباهر الذى كتب له ولإخوانه وامتدح براعة قتاله مع هرسك العثمانى ، ثم وقف فوقف له سائر الأمراء وخرج إلى الرحبة ليرى جيشه الصغير الذى برز من صفوف أبناء القاهرة ، فوقفوا له وقفة عسكرية وقذفوا بسيوفهم فى الهواء ثم تلقفوها قبضاً على قوائمها فشكرهم وأثنى على نقبائهم ورجال الزعر وزعيمهم الدنف وعاد بعد ذلك إلى الحوش وبين يديه الخونة من الأمراء ، فبدأ بالأمير جان بك وجعل يؤنبه على خروجه على الدولة واندفاعه فى الفتنة إلى أقصى مداها مع ماترك له من حرية التنقل وما مد له من أسباب الراحة فلم يمسس إقطاعه ولا رزق أحد من أتباعه ، وجمع له قضاة القضاة الأربعة وأخرج إليهم كتب الأمير إلى سلطان العثمانيين وكتب السلطان العثمانى إليه وهى التى كان يحملها الأمير إينال فاحتال حتى سرقها أحمد الدنف وسلمها إلى كاتب السر فأفتى جميع القضاة بالإجماع بأن الأمير غادر خارج على جماعة المسلمين يستحق القتل ، فحمل الأمير إلى الجب وكان سجناً عميقاً بالقلعة يوضع المسجون فى زنبيل ويدلى فيه فاذا أريد إخراجه دلوا له الزنبيل وسحبوه . ولبث بالسجن بضعة أيام ثم نقل إلى سجن بدمياط فخرجوا به تحت أستار الظلام على فرس وهو مكبل بالحديد ومن خلفه جندى أوجاق (فارس من فرسان السلطان) على فرس يحمل خنجراً كما جرت التقاليد إلى أن بلغ الساحل من بولاق ، فقامت به مركب إلى دمياط فسجن بها أياما ، ثم خنق وعفت آثاره فحملوه إلى القاهرة ودفن فى قبته التى شادها لنفسه .

فلما انصرفوا من جنازته ونشر الظلام رواقه أقبلت على ضريحه امرأة مجللة فى إزار أسود وقابلها عند الباب رجل فى رداء أسود يغطى رأسه ، فكفكفت المرأة عبرتها وقالت تبكيه :

أقول لما ضمنوك الثرى وجالت الحسرة فى صدرى

إذهب فلا والله لاسرنى بعدك شىء آخر الدهر

فمد الرجل يده وقال للمرأة: كفى ياأماه فالطريق غير مأمونة فسارت تستند إلى ذراعه ، حتى واراهما الظلام ، وكانا أرملة الأمير وولده .

وحملت زمرد وصيفة جلبان إلى بيت العذاب وطولبت بالإقرار عن مولاتها وعن مقر شاهين ، فتجلى إخلاصها لمولاتها وشدة وفائها فى روعة من الصمت ورضوخ للعذاب أدهش القائمين على تعذيبها فضربوها بالمقارع ستين شيباً (ضربة coup [1]) ولكنها استكانت وصبرت فأحضرت لها المعاصير ووضعت قدماها الرقيقتان فى خشبتين ثم عصرتا حتى انقصفتا ، فأنت أنين الشهداء ولكنها تماسكت وأصرت على صمتها واستنامت المسكينة لشبح الموت المقبل وكانت تترقبه من أيام محنة الأمراء ، فعمد جلادها إلى أقصى أنواع العذاب فعصر صدغيها بالمعاصير فاختلجت قليلا وأسلمت الروح .

وجاء دور ملك التجار فأعدوا له خشبتين على هيئة صليب ونزعوا ثيابه ور بطوه بالخشبتين وطرحوه على ظهر جمل وطافوا به شوارع القاهرة إلى أن بلغوا باب زويلة فضربه الجلاد بسيفه ضربة قوية على وسطه تحت سرته فشطره نصفين وانهارت أمعاؤه إلى الأرض وشمت به الناس جميعاً لكبريائه ولبعده عنهم .

وحمل بهادور قهرمان خوندجلبان فقطعت أكمامه كما هى التقاليد واركبوه حماراً ووجهه عند ذيل الحمار ، وطافوا به المدينة ومعه مناد ينادى : هذا جزاء من يمالئ أعداء السلطان ، حتى بلغ باب زويلة فشنقوه .

وضربت أعناق باقى المماليك الذين أسروا ولم يستبقوا منهم أحداً .

وساء السلطان فرار الأمير بردبك وخوند جلبان ومملوكه شاهين وابن ملك التجار ، واشتدت لهفته على الأمير إينال الذى فر إلى الإستانة ، وأمر أن يندب له جماعة من الفدائيين الإسماعيلية من أهل قلعة مصياف ليغتالوه فى مقره . ثم أمر بأن

---

(١) Quatre Maire .

يحمل الأمير أحمد بن هرسك العثمانى إلى دار بالقلعة، ووكل به جماعة من خاصة حرسه يمنعون من يدخل إليه ولا يمكنون أحداً من حاشيته من الخروج أو الاجتماع بأحد .

وأغمد قايتباى سيفه ونثر ذهبه على أوليائه فرفع حيدراً إلى مرتبة أمير طبلخانه وجعله قائداً على أربعين فارساً وأخرج له من ديوان الجيش إقطاعا غلته ثلاثون ألف دينار كل عام له ولجنوده الأربعين .

وصادر السلطان أموال أعدائه جميعاً ، فألحقت قصورهم وخزائنهم وعبيدهم ببيت المال وأعطى الأمير حيدر جوسق ملك التجار وهو ذلك القصر الجميل بجزيرة الروضة المشرف على النيل بمحيطه و بستانه و إسطبله الزاخر بكرائم الخيل الزاهر بنفائس الدنيا وطرف الملوك كل ذلك النعيم أصبح حلالا طيباً للأمير حيدر .

وحملت إلى بابه دكة النقباء يجلس عليها نقيب جنده الذى يتولى زينتهم وعرضهم.

ورابطت ببابه الطبول والكوسات وعدتها ثلاثة أحمال من الطبل وأربعة أنفره تدق بالباب مرتين فى كل يوم .

وجعل بباب الجوسق رنكا مذهباً فيه سيف مسلول بين غصن زيتون وكتب من تحته « أنا سلم لمن سالمنى حرب لمن جار بنى » .

فانتقل حيدر إلى الجوسق فوق صهوة الأدهم على سرج أعدله من خزائن السلطان اسمه الزنارى ، لا يمنح إلا لمن تفوق بشجاعته وشدة بأسه ، وقليل من الأمراء من منح الزنارى ، وهو سرج معروف فى مصطلح الفروسية [1] مفتوح فوق صدر الجواد مسدول على الكفل لا يرى منه إلا الذيل ، كله من أطلس أحمر، ونال سائر الأمراء مرتبة أمير عشرة وهم نقباء حيدر الثلاثة ومماليك السلطان وأصبح الزئبق والى عسس مدينة مصر ورئيسه الدنف والياً لعسس القاهرة. وجاء يوم مهرجان الأمراء يوم يحلفون اليمين عند قبة السلطان قلاون حسب التقاليد .

---

(١) QUATREMERE

فلما كان صباح يوم الموكب خرج الأمير حيدر أول الأمراء وعلى رأسه تاج مذهب مثلث الأركان بغير عمامة اسمه الشربوش يلبس عادة فى تلك الحفلة ، وركب من حوله بقية الأمراء من الترك والمصريين وعليهم خلع السلطان، فاندس بينهم غالب رجال الزعر مع رئيسهم أحمد الدنف وجعلوا يطوفون حول الأمراء وأيديهم على مقابض الخناجر كأنهم يتوقعون سوءاً من عدو غير ظاهر .

واحتفى الناس بالأمراء فأوقدوا الشموع والقناديل على الحوانيت وكافة المتاجر، وبرزت أجواق المغنين على جانبى الطريق، وتدلت من شرفات الدور شقق الحرير العتابى يستند إليها غانيات القاهرة فى العصائب العالية وحلل القصب الرفيع ، وكلما هل الموكب على أحد الأسواق جلته أجواق الأغانى كما تجلى العروس ، فتجيبها النساء من الشرفات بالزغاريد، حتى بلغوا دار ابن بقاء الطبيب بسويقة المسعودى وكان رب الدار مغتبطاً برتبة ختنة سيف الدين فزين داره ورفع على أسوارها البنود والأعلام المذهبة ونسق حولها الأنوار فى الثريات والتنانير وأقام فى رحبة الدار سرادقا من الديباج الأحمر كان فيه غلمانه يحملون أباريق الشراب فرفع سيف الدين بصره إلى الإيوان فرأى سلمى بين وصائفها يزين جيدها عقد اللؤلؤ الذى أهداه إليها وعليها حلة من حرير قرمزى يحاكى لونها ثوبه الجميل فلوح برأس حسامه بالتحية فأجابته بابتسامة من ثغرها الرقيق .

وكانت القهرمانة جاثمة خلفها مقطبة الجبين تنهر الجوارى وتلفتهن إلى واجب الحياء والاحتشام .

ووقف الأمير حيدر بباب الطبيب وقفة لطيفة ليضاعف من سرور صديقه سيف الدين وأصهاره ، فتقدم من الأمراء صغار المماليك بأقداح من الفضة فيها شراب مثلج فشربوا ومسحوا أفواههم فى محارم الحرير المنسوجة بالذهب ، وتحرك الموكب بعد ذلك حتى بلغ مشارب بين القصرين فرأى سرادقاً جميلا جلس فيه إخوان الصفا حول خديجة الرحابية وجوقها ، وازدحم جمهور الناس يتسمعون الأغانى

الحسان فنهض ، بدر الدين الزيتونى ومن ورائه ولد له يدعى نعمان ، فحيا الأمير حيدراً أبلغ تحية ودعا له بالنصر والتأييد، وقال: إن أباك ياسيدى قد طوقنى بنعمته ورفع قدرى حتى الحقنى ببلاط السلطان فجزاه الله عنى كل خير و إن اليوم هو يومك الذى كنا نرقبه وقد طال بنا العمر السعيد حتى أدركناه وقد جئتك ياسيدى بولدى نعمان ليكون فى ركابك جندياً يقاتل فقد أعيانى أمر بطالته و إمعانه فى بقية الرزق على قلته ، فهو أكول نهم لا يقنع بطعام حتى يسلب ما بيد إخوته من الفضلات !

فضحك منه حيدر ، ونظر إلى نعمان فرأى فتى مديد القامة كأطول الرجال عامر البدن واسع العينين عريض الجبهة يكاد يبلغ العشرين عاماً ، فابتسم له وخاطب جندياً فى ركابه وقال : إن هذا الفتى بطول قامته وقوة بدنه يحاكى الفتى طلحة فاجمعوا بينهما فى خيمة واحدة ثم قال للزيتونى :

كأن أبنك خلق للجندية و إنى لأرجو له العون من الله. واستدنى نعمان ووضع فى كفه قبضة من الدنانير وقال: اذهب إلى السوق فتجهز بها واختر ثياباً وكلوتة ونعلا والزم بعد اليوم باب الجوسق فإنك أصبحت من خاصة جنودى .

وأشار حيدر بيده بالتحية على الحاضرين فتحرك معه الركب وصاح المجتمعون يهتفون باسمه ويملؤون الأفق نداء ودعاء خالصاً من أعماق الصدور، وشيعته خديجة بأجمل أغاريدها وأشجى ألحانها حتى بلغ الموكب قبة الملك المنصور، فترجل الأمراء وكان بالقبة مهرجان وزينة وفى صدرها حاجب الحجاب الأمير أزدمر نائباً عن السلطان فى تكريم الأمراء ، ووقف بالقبة كتاب الدست الشريف وبينهم كاتب من ديوان الإنشاء ، وكان أمامه مصحف شريف على كرسى عال فنودى أول الأمراء الأمير حيدر فقبل الأرض للأمير أزدمر ثم مضى إلى المصحف الشريف وأقسم اليمين الشرعية ويده فوق المصحف وقال : « إنى أخلصت

نيتى وأصفيت طويتى وساويت بين باطنى وظاهرى في طاعة مولانا السلطان الملك الأشراف قايتباى المحمودى خلد الله ملكه وطاعة أولاده وأحفاده وارثى ملكه لا أضمر له سوءاً ولا غدراً فى نفسى ولا ملك ولا سلطنة ، وإننى عدو لمن عاداه صديق لمن صادقه حرب لمن حاربه سلم لمن سالمه وإننى لا يخرجنى عن طاعته طاعة أحد غيره ولا أتلفت فى ذلك إلى جهة غير جهته ولا أفعل أمراً مخالفاً لما استقر من هذا الأمر ، وإنى والله والله أمتثل مراسمه امتثال النائب المستنيب وأكون لداعى أمره أول سامع مجيب ،وإننى ألتزم شروط هذه اليمين من أولها إلى آخرها » وأثبت كاتب الإنشاء كل ماقام به الأمير فى محضر وحمله إلى ديوان الإنشاء ليخلد فيه ، ثم نودى من بعده بقية الأمراء ، فكان الكاتب يلقنهم صيغة اليمين فيؤدونها الواحد بعد الآخر ، وكتب بذلك محاضر خلدت فى الديوان .

فلما فرغ الأمراء من الحلف تقدم الأمير أزدمر إلى المائدة فجلس فى صدر السماط والأمراء من حوله على مراتبهم (١)

وعاد حيدر بعد انتهاء الحفل إلى الجوسق وفى ركابه نعمان وقد تجمل بزى الجنود وجمعوه بزميله طلحة وكلاهما عملاق أطول الرجال قامة ومن أشدهم بأساً وأقواهم شهوة للطعام كان ما يأكله الواحد منهما ضعفى ما يأكله جندى الحلقة فأمر حيدر بأن يحمل لهما طعامهما من مطبخه حتى لا يضار بهما أحد من جنده .

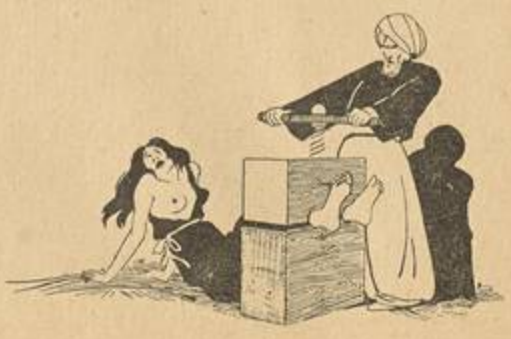

(١) صبح الأعشى

الفصل العشرون

الرهائن

كان بأطراف قصور الأمراء بمنشية المهرانى حانوت لرجل حائك يتردد عليها أهل الحى ، فإذا كان يوم عمار الأسواق القريبة كثر المترددون عليها وتكدست أعدال الغزل ببابها فيحملها التجار إلى الأسواق .

وكان من وراء رفوف الحانوت فجوة صغيرة مظلمة أسدل عليها ستار أسود فلم يهتم بشأنها أحد من رواد الحانوت .

فلما انصرف الناس ولم يبق إلا صاحب الحانوت سُمع نقر لطيف من جوف الفجوة فقال الرجل : أخرج آمنا ، فخرج رجل حبشى عليه عمامة سوداء وله لحية سوداء طويلة وعليه إزار أسود و بيده مسبحة ، فتبادل النظرات مع الحائك ثم انصرف يحمل تحت إبطه ثوباً من الكتان .

وكان صاحب الحانوت رجلا من أولياء الأمراء اتخذوه درءاً لهم يدفعون به شبهات الشرطة وكانوا يجتازون نفقاً سرياً يمتد من دهاليز بعض قصورهم فيخرجون من حانوت الرجل فى أزياء عملائه .

واستقام الرجل الحبشى على الطريق يمشى وحده وقد سكن الجو من حوله وانقطع المشى وغلق الناس أبوابهم ، فبلغ باباً مغلقاً فنقر عليه ثلاثاً ففتح له فصعد إلى طبقة صغيرة فرأى شيخاً طاعناً فى السن فوق سجادة وحوله شمعتان وقدامه أوراق يكتبها ،وكان الشيخ من المنجمين الذين حبسوا أنفسهم على خدمة الأمراء فلما رأى الضيف قال فى صوت يكاد يكون همساً ، مرحباً بسيدى الأمير برد بك :

فعجب منه الأمير وقال : كيف عرفتنى وقد غيرت لونى بالأصباغ واتخذت زياً غريباً ؟ فقال الشيخ : كانت الساعة عندى خوند جلبان فأخبرتنى أنك قادم فى أثرها .

فقال له الأمير : وأين ذهبت ؟ قال : لا أدرى .

وكان الشيخ قد أتم كتابة أرقامه فالتفت إلى الأمير وقال :

إن عليك قطعاً فى هذا اليوم فلا تركب وأقم عندى إلى أن يكف عنك الرصد .

وكان الأمير قد أصبح بعد نكبة إخوانه أكبر الأمراء فضن بحياته ورضى بضيافة الشيخ وقال يناجى نفسه :

كن جريًا إذا رأيت جباناً وجباناً إذا رأيت جريًا
لا تقاتل بواحد أهل بيت فضعيفان يغلبان قويا

وسمع بباب الشيخ نقر متفق عليه وصعد إليه رجل فى ثياب تجار الفرس فعرفه الأمير وقال : ما وراءك يا شومان ؟

فقال : إنى أتعقبك يا مولاى خوفاً من شياطين الزعر أو الشرط وسأمشى فى ركابك حتى تبلغ الدار التى أعددناها لك .

فقال الأمير : لقد أضنانى كثرة التنقل فما لبثت فى دار واحدة أكثر من ليلة وسأقضى الليلة فى دار الشيخ هنا .

ومال شومان إلى أذن الأمير وقال :

إن غداً مهرجان الأمراء فيمشون فى موكبهم إلى قبة السلطان قلاون وقد ملأت الأسماع بالأراجيف حتى بات الناس يتوقعون منى ومن أعوانى قتل الأمير حيدر ورفاقه الأمراء بسهام مسمومة فى زحمة الموكب ، فأصبح رجال الزعر ومعهم شرطة القاهرة ولا هم لهم إلا تطويق الموكب ومراقبة منافذ الدروب ، فاذا خلت دروب المدينة ورحابها منهم تمكنت وحدى من اختطاف بنات الوزراء من قصور آبائهن ليكن رهائن بأيديكم تساومون عليهن خصومكم .

وكانت الأميرة ماريا القبرسية قد حملت من الدير إلى القصور السلطانية تصان بها حتى ينكشف حال التوتر والغموض الذين بين مصر والعثمانيين و يطمئن الناس إلى ركوب بحر الروم .

فاختاروا لها جوسقاً جميلا يشرف على بركة الفيل و يحوطه سياج عال بقصر السلطان فصارت لها حرمة خوندات القصر تمر بجوسقها نوب الحرس وتدق ببابها طبولهم وكوساتهم وأبواقهم .

وما نسيت فتاها الجميل المحيا الذى حملها إلى الدير بعد أن صان مهجتها من العدوان عليها ، وعلمت أنه تردد على راهبة الدير يوصيها بها خيراً ويحمل الهدايا والزهور فتعقبت خطواته وهو منصرف وتزودت منه بالنظرة العجلى من خلال الشرف العالية .

لقد كانت تحاول أن تنساه وتخفى عن نفسها ذكراه، ولكن الحب كان عنيفاً فافتضح وقارها وتكشف عنها سمت الملوك الذى درعت به خلقها ، فبكت وطال احتباسها خلف سياج القصر وودت لو أصبحت من معدن الجماهير ، مبتورة النبعة من أهل العروش والتيجان ، فتمشى بخطى واسعة إلى الأسواق تفتش عن حبيبها ، وشغلت بهواجسها واشتد ولعها بحيدر ولا سبيل إليه ، فلما كان يوم مهرجان الأمراء علمت به فأقامت بشرفتها تستمع إلى دق الطبول ونفخ الأبواق من بعيد ، واسترعى نظرها أدهم يقوده غلام حبشى على رأس الطريق بعيداً عن رحبة القصر فصورت لها الأمانى العذاب أن سيد الأدهم منها قريب ، فلوحت بيدها لعل الغلام يراها وأحست رجلا يمشى إلى ناحيتها يتلفت خوفاً من حراسها حماة القصر ، فلما أصبح تحتها رمى إلى الشرفة سهماً فيه رسالة فانتزعتها فى لهف وشوق ، وكان بها بضع كلمات كتبت على عجل وهى « أمرت أن أحملك إلى بعض دور المدينة لتشهدى موكب سيدى حيدر فإن شئت دفعت إليك سلماً من الحرير » .

فأنعمت الأميرة وهى تغالب الشوق وتدافع شجناً مكبوتاً ، فقذف الرجل إليها سهماً آخر فيه سلم من الحرير فدرجت عليه حتى استقرت على الأرض فأشار إليها الرجل أن تتبعه إلى ما وراء الشجرة ، فلما بعدت عن رحاب القصر انقض عليها رجلان وألقيا عليها كساء أسود فاختجلت تحته قليلاً ثم سكنت فدفعاها فى صندوق وحملاها على ظهر بغل واندفعا بعيداً عن الدروب العامرة والمسالك الآهلة حتى بلغا شط النيل ، وكان فى استقبالها بضعة رجال من الإفرنج فنقلوها إلى قارب وعبروا النهر إلى غراب صغير على أهبة السفر وطاربها الغراب حتى بلغ ثغر دمياط ، ثم خرج إلى عرض البحر وسلمها إلى شختور حربى جاء يحملها إلى أهلها وكان به جنود أبيها وخاصته ، فأخرجوها من الصندوق وعالجوها حتى أفاقت من إغمائها فتلفتت حولها فعرفتهم ولاح لها الموقف المحزن ، وفطنت إلى المصير الذى أعد لها فتوارت عن أعينهم تبكى حبيباً حرمته إلى الأبد .

وكان الدنف أول من اكتشف خبر اختطاف الأميرة فطير البطائق إلى الإسكندرية ليسارع أعوانه إلى رجال الأسطول المرابطين بالمرفأ فينتشروا حول ثغور مصر الشرقية فلا يفلتوا مركباً ولا غراباً إلا نقبوا فيه.

وكان الرجل صادق الفراسة فما كان يزعجه إلا الطارق من ثغر دمياط ، وودّ أن يستعيد الأميرة إلى قصرها قبل أن يذاع الخبر فيحمل إلى السلطان . وبينما كان شختور الافرنج يخترق بحر الروم إلى قبرس إذ اعترضه شينى حربى تخفق من فوقه راية مصر الصفراء ويحركه مئة وأربعون مجدافاً ويلوح من فوق ظهره ثلاثمائة مقاتل ومن ورائه بطستان تزخران بالمدافع والرجال ، فأطلقت إحداهما قنبرة من مدفعها فوقف الشختور واستسلم فأحاطت به السفن وأنفدوا إليه القوارب تحمل الرسل فاستقبلهم رجال قبرس وحدثوهم بجلية الخبر فنقم المصريون عليهم

سوء تدبيرهم و إخلالهم بحرمة السلطان الذى لا يمانع من عودة الأميرة إلى أهلها ولكن فى حدود الكرامة الموفورة .

وأعيدت الأميرة إلى جوسقها وسيق إلى السجن جنود قبرس حتى يأذن السلطان بتسريحهم ، وأخفى عن الناس نبأ عودتها السريعة ولم يبق من حديث المجالس إلا اختطافها .

وكانت سلمى تشرف من الإيوان على موكب الأمراء وهى بين البهجة والمرح بما ناله خطيبها سيف الدين من الرتب العالية ، وكانت لبلى ابنة برقوق عندها تبادلها الحديث وتشاركها الفرح وتستجلى محاسن المهرجان معها ، فلما انصرف الموكب بعيداً عن الدار أمرت القهرمانة الجوارى بلزوم حجراتهن لتنفرد سيدتهن بنفسها مع ضيفتها ، فأقفرت الأبهاء والدهاليز و بقيت أغاريد البلابل والقمارى تجوب بمفردها أفق الدار ، عندئذ دخلت القهرمانة إلى الفتاتين و بيدها مجمرة يتصاعد منها بخور الند فجعلت تحركها حولهما يميناً و يساراً وهما لاهيتان لا تدركان ما ترمى إليه حتى غلبهما التثاؤب فسقطتا على الأرض فى إغماء ، وكانت المرأة قد سدت معاطسها بقطع من القطن غمست فى سائل يمنع من أثر المخدر الذى كان بالمجمرة .

ولقد كانت القهرمانة قديما من جوارى خوند جلبان فباعتها فى سوق الرقيق على أن تحتفظ بعهدها وتحمل إليها كل نبأ هام ، وصارت الرسل تتردد بينهما سرا حتى حلت كارثة الأمراء وحرصت خوند جلبان على اعتقال بنات الوزراء ليكن رهائن عندها .

وأشرفت القهرمانة على البستان وكان به رجلان يحملان مزابل الحمام على الحمير فأشارت بمنديل أبيض فتنبها لها ، فظهر ثلاثة رجال فى ثياب عمال والقوا إلى الشرفة سلاليم من الحرير وصعدوا الواحد بعد الآخر فأشارت إليهم فلفوا سلمى فى رداء أسود ونقلوها إلى أرض البستان ، ولحقت بهم القهرمانة بعد أن غيرت زيها وحملت

سلمى خارج البستان فلم يفطن بها أحد ، و بلغوا بها دربا مقفرا فيه صندوق على ظهر بغل لوضعوها فى الصندوق وتجنبوا فى سيرهم الشوارع والدروب العامرة .

وكان الوزير كاتب السر قد سافر الى الشام بأمر من السلطان ومعه الأمير برسباى رأس النوبة لجمع العشير ، وهم قبائل العرب النازلون عند جبل نابلس والذين كانوا يجندون فى الحروب .

وصار حيدر أميرا له مقر عمله فترك دار أبيه وسكن الجوسق الجديد ليشارف عمله و يتعرف غلمانه وجنوده ومستودع أسلحته وعتاده و إسطبل خيوله .

فأقفرت الدار من بعده وما كان بها إلا أخوه بدر الدين متولى حسبة القاهرة وهو رجل منقطع لعمله وشؤون وظيفته حتى المغيب .

فلما كان يوم الأمراء خرج أتباع الوزير ابن مزهر وغلمانه لشهود موكب مولاهم حيدر حتى أقفرت الدار وخلت من الأعوان ، فسمع بالباب نقر لطيف فلما فتح دخل نساء غوانى فى البخانق المكللة بالجوهر و بينهن جوهرة جارية الوزير تاج الدين ناظر الخاص .

فتقدمت جوهرة إلى ست الخلفاء امرأة الوزير وأخبرتها أن السيدة سلمى عروس الأمير سيف الدين مولاها تدعو السيدة زبيدة إلى دار ابن بقاء الطبيب لشهود موكب الأمراء وعندها عقائل الوزراء و بنات رجال الدولة .

فأعجب الخبر زبيده واستأذنت أمها فى الخروج ، وكانت أمها فى شغل وهم بما سمعت ، فقد نقل اليها أن أعداء ولدها حيدر توعدوه بالقتل فى صدر موكبه بسهام مسمومة فنصحت زبيدة بالبقاء معها وخوفتها عاقبة الخروج إلى الأسواق والمدينة تموج بالجنود الذين حشدوا للحرب ، فألحت عليها زبيدة وكانت ككل فتاة فى سنها تحفزها الرغبة فى شهود المواكب العامة وأولاها بالمشاهدة ذلك الموكب الذى فى صدره أخوها حيدر وخطيبها جان بلاط الذى رآها من قبل فى البستان ثم عاد

إلى زيارة أخيها حيدر وحدثه عن أجمل أمانيه أن يتخذها عروسا له ، ثم دار حول خطبتها الحديث بين أبيها وأخويها كانت تسترقه أذنها من وراء ستار ، فخرجت تفيض غبطة وسرورا بعد أن سمعت كلمة الرضى والقبول من فم أبيها على أن يكون الزفاف بعد الحرب المقبلة .

تلك الهواجس كانت توسوس لزبيدة وتحفزها للخروج مع جوهرة ، فرضيت أمها على كره منها وانطلقت الفتاة فى زينتها ونفائس جوهرها على بغلة عالية وشيعتها أمها من شرفة قصرها بدمع مدرار كأنها ألهمت فقدها .

وتم اختطاف الفتاتين فى ساعة واحدة والناس لاهون بشهود موكب الأمراء ، لأنه كان من المشاهد المأثورة بالقاهرة ، وقد قام بذلك شومان وأعوانه بعد أن نثر دعايته المحكمة بأنه سيقتل حيدراً و رفاقه بسهام مسمومة فجازت حيلته على الدنف ورجاله وسائر رجال الشرطة ونصحوا الأمراء باتخاذ الدروع السابغة من تحت الثياب وتفرقوا حول الموكب وجعلوا من أنفسهم رقباء على الناس فى رؤوس الدروب المفضية إلى طريق الموكب حتى أقفرت بقية الدروب التى يسكنها ضحاياهم .

و بلغ شومان ما كان يرجوه من اعتقال الرهائن كما أوصت خوند جلبان لتكونا بيدها تساوم بهما على حياتها ومن بقى من أمراء آبائها .

وكانت تتوارى فى نفق بقصرها لم تبلغه أيدى المنقبين إلى أن تراخى نشاط الشرطة فى البحث عنها فخرجت من قصرها وبدأت بزيارة المنجم ليحدثها بما بقى من مستقبلها فبشرها بنجاتها من بطش السلطان وتظاهر أمامها بعجزه عن استجلاء الأحداث البعيدة فتركته وهى بأسوء حال من اليأس وخور العزيمة ، وكانت قد أنفذت تستدعى رجلا من سادات أهل القرى من ناحية قليوب اسمه عمر أبو الشوارب[1] وهو من دعاة أخيها الأمير أحمد بن العينى يستأجر اقطاعه

(١) هو جد أسرة الشوارية .

الواسعة فوافاها فى محنتها ووقف إلى جانبها يواسيها ويصون حرمتها ويمدها بالمال ونصح لها بالكف عن مسايرة أمراء جدها الخارجين على السلطان والجنوح إلى عيش القرى إلى حين ، فإن فيه أمنها وسلامتها وإن لها منه عهد الله ورسوله ألا يظهر أحداً من أعوان الحكومة على أمرها فرضيت واستكانت .

فحملها إلى دمنة صغيرة فى مزرعته وجمع لها الطير والأنعام وثياب أهل القرى فتوارت فى الدمنة مع أتباعها الذين آثروا العيش معها على نعيم المدينة .

وكان بجانب الدمنة بيت صغير يستره النخيل وأشجار الموز المتلاصقة فلا ترى العين منه أدنى أثر فحملت إليه سلمى وزبيدة .

وقدم إليها يوماً من سوق المدينة شيخ فى قباء ولحية سوداء يسوق حماراً عليه أحمال فى صناديق ، فلما وقف بباب الدمنة خرجت إليه فى زى نساء القرى : ثوب أزرق فضفاض ونقاب قرمزى كثيف عليه قلائد من المرجان ، فانتزع الشيخ عمامته ولحيته وخرج منهما فتى حلو الشمائل وقبل الأرض وقال :

لا خوف اليوم يا مولاتى فإن حديث المدينة يدور حول الرهائن الثلاث والفرار بهن إلى ثغور بحر الروم ، ولذلك سارع رجال الشرطة وجماعة الزعر إلى دمياط وإسكندرية يتجسسون الأخبار ويباحثون تجار الإفرنج وخلوا لنا القاهرة نرتع فيها ونلعب .

وكانت الأميرة قد ألقت بنقابها فلاح للفتى سيماء الحسن من وجهها وأخذته روعة فتنتها ومهابة قدرها ولم تغيرها الأحداث والمطاردة وقتل الأمراء وهجرة القصر ، ولا نالت من نضرتها خشونة عيش القرى وجفوة الدمن ونقاب الريف الأحمر فقد تحجبت الشمس قبلها بنقاب من شفقها الأحمر وقالت الأميرة : ماذا حملت لنا ؟

قال : جئتك يا مولاتى بشواء من لحم خراف رضاع من مطعم بين القصرين

وثلاثة أطيار دجاج سمان و بوارد من لحم سكباج وخبز رقيق من تنور السوق وقطائف محشوة وفاكهة من عند حمام السلطان .

فصاحت به: ألم أنهك عن طروق ذلك الفاكهى الذى يلتقى عنده الجواسيس يتسقطون الأخبار ويتعرفون الوجوه ؟

وأمرت فحمل الطعام إلى بيت الرهائن .

وعكفت فى ناحية من دمنتها تندب الحظ العاثر فقد فر من قبضتها حيدر ، وكان الحبيب المرجى ولا رجاء فى مودته بعد أن اقتحم عليها القصر بجنوده وفضح المؤامرة قبل نضوجها ونكل بأعوانها وأمراء جدها وحملهم فى الأغلال إلى السلطان ، وشمتت بأميرة قبرس التى حملت إلى أهلها بعيداً عن مصر . وكان هذا هو شأن عقائل المدينة وغانياتها من بنات الشرف والأحساب الكريمة ، فقد أنكرن على حيدر إعجابه بتلك الأميرة الأجنبية و إعراضه عنهن جملة و بينهن الغيد الحسان .

الفصل الحادى والعشرون

إلى المنفى

جلست خوند جلبان يوما بين سلمى وزبيدة ترفه عنهما بحديثها فقالت لها زبيدة :

إلى كم يطول بنا أمد هذه الضيافة ياخوند فإن لى أماً تبكينى وأهلا ساء عيشهم من بعدى ؟

فقالت خوند : لاتخافى ياأختاه ولا تحزنى فما أردت بك سوءاً ولا فكرت فى فى تكدير خاطرك ولو أحسنت الأيام مطالبتى ماعكرت لك صفواً ولا أحزنت من أجلك قلباً ولن يطول غيابك ؟

فقالت زبيدة : وماذا يجديك ياخوند تشريدى وحملى من أحضان أم أسلمتنى كرهاً كأنها كانت تحس فراقى .

فأظلم وجه الأميرة حزناً وغماً وقالت : يعز علىّ ياأختاه أن ينالكما المكروه من أجلى فسامحانى مما بدر منى وممن يعملون فى خدمتى فستروحان اليوم إلى أهلكما فقد أنفذت منذ الصباح الباكر رجلا يستدعى الأمير حيدراً ولا أجد من نفسي القدرة على الكلام معه بعد أن اقتحم على قصرى وانتهك حرمتى .

فقالت زبيدة : لن يخيفك حيدر بعداليوم فانك منذ الساعة فى ذمتنا وما كان أخى إلا سمح النفس كريم الخلق بعيداً عن الأذى وحب البطش، فقالت جلبان : إنى

عقدت عليك وحدك رجائى وتوسمت خير الأمانى من منار وجهك الجميل فلا تحيلينى على قوم جفاة القلوب لا يتورعون من قتلى كما قتلوا وصيفتى وسائر أنصارى .

فقالت ز بيدة : معاذ الله أن ينالك أحد بسوء ولن أعود إلى أهلى إلا أن تعودى إلى قصرك بسلام .

وسمع على الأثر وقع حوافر الخيل تدنو من الدمنة ، فتنبهت ز بيدة واخترق سمعها صوت طالما سمعته فهبت قائمة وصاحت فى يقين : هذا والله أخى حيدر ، ودفع الباب ودخل حيدر وجعل يقلب ناظريه بين الفتيات الثلاث فبادرت إليه أخته وترامت على صدره ولحقت بها سلمى فجلست بين يديه فنشر الفتى ذراعيه حولها والتفت إلى الأميرة وقال : لقد طالعت كتابك ياخوند وجئت طوع أمرك .

ونكس رأسه قليلا ثم رفعها وقال : إن أمرك أيتها الأميرة بيد السلطان وحده .

ومرت لحظة سكون على الجميع فخفقت الأميرة دمعاً فضح ضعفها ووقفت فى وسط القاعة فتجلت محاسنها فى أكمل مظهر وساورتها الكبرياء فقالت : لست بحاجة إلى نصرتك وسأتقدم بنفسى إلى ساحة السلطان ليفعل بى مايشاء فان أسوأ ماينالنى منه خير ألف مرة من هوانى بين يديك وسأحتمل عذاب السجن وسيف الجلاد فلست خيراً ممن سبقونى إلى الموت .

فنظرت ز بيدة إلى أخيها متوسلة ، وكان حيدر قد تناسى أيام فتنته بغوايتها فعجب من اعتدادها بنفسها واحتمائها بكبريائها وقال : والله يا خوند ما كذبتك حين قلت إن الأمر كله بيد السلطان .

فقالت ز بيدة : وما يمنعك يا أخى من مكاشفة الأمير يشبك فى أمرها وهو أول معجب بك حتى لقد أشار برفع مرتبتك مرتين وتحدث فى ملأ الناس بأنك حامل رايته فى الحرب المقبلة ؟

فقال حيدر : والله ماعدوت ما فى نفسى فقد زرت الأمير قبل حضورى إليكن وتوسلت إليه بكل أسباب الرجاء أن ينال من السلطان عفواً سخياً عن الأميرة وعن أخيها الأمير أحمد وقد قرأت فى وجهه أمارات الرضى فليطمئن روعك ياخوند.

فرفعت إليه رأسها لتشكره فغلبها أساها وخيبتها فى كل خطوة كانت تخطوها وأسوأها خيبة الهوى فقد نقل إليها ما دار بين حيدر وجلنار وارتباطهما بمواثيق لا انفصام لها، فبكت على الرغم من تجلدها واعتدادها بكرامتها التى امتهنت فتوجع لها قلب حيدر وقال : أتبكين يا خوند ؟

فقالت : نعم أبكى يا حيدر

أبكى وتبكى الحمام لكن شتان ما بينهما وبينى
تبكى بعين بغير دمع وابكى بدمع بغير عين

أبكى عيشا كنت أشتهيه وإلفا تنكر لى ونأى بجانبه وأعرض ، ثم أنشدت :

يا عاذلى فيه قل لى إذا بدا كيف أسلو
يمر بى كل حين وكلما مر يحلو

فقال لها : رفقاً بنفسك يا خوند ودعى المقادير تجرى فى أعنتها وتهيئى للعودة فقد أعددت لك محفة تركبينها مع أختى زبيدة فتقيمين فى دارنا حتى يأتى البشير بالعفو عنك وعن أخيك الأمير أحمد .

وركب الثلاث المحفات فى موكب أعده حيدر من جنود الكتائب وعاد إلى القاهرة وجعل يسرى عن الأميرة همومها وأشجانها وهى لاهية لا يرقأ لها دمع ، فلما أجازوا بقصرها تنبهت وأمرت بالوقوف فى رحبته حتى تتزود منه قبل فراق الأبد فقد غلبها ذكاؤها وسلامة تقديرها ورجح لديها أن السلطان لن يتركها بعد اليوم لتعود إلى قصرها فشرعت سجف المحفة واستقبلت باب القصر وقالت :

اعجب لصرف الدهور معتبراً فهذه الدار من عجائبها
عهدى بها بالملوك زاهيـة قد سطع النور من جوانبها
تبدلت وحشـة بساكنها ما أوحش الدار بعد صاحبها

وكان الأمير يشبك قد صعد إلى القلعة وقابل السلطان وحدثه بأن خوند جلبان قد استسلمت لحيدر وخضعت واستكانت بعد ما حل بالأمراء وهى تطمع فى العفو عنها، فقال له قايتباى: لقد قبضوا على أخيها ابن العينى وحملوه إلى القصر فى الحديد فجعلت أمره إلى الأمير أزبك ليستتيبه ويستحلفه ليعود إلى ولائنا وطاعتنا وسنرى ما فعل، وصفق بيديه فأسرع إليه الأمير آق بردى وخدم، فقال: ادع لنا الأمير أزبك وليدخل معه ابن العينى.

وكان الأمير شهاب الدين أحمد بن العينى أميراً كريم النفس سخياً عاش بمصر على طريقة أولاد السلاطين فأطلقوا عليه اسم عزيز مصر وارتقى فى عصر جده لأمه السلطان خشقدم حتى صار صاحب الحل والعقد فكان أمير مجلس، وهو وزير الصحة فى مصطلح العصر الحديث يشرف على الأطباء والكحالين، وهو صاحب القصر العظيم المطل على النيل بمنشية المهرانى والذى صار بعد ذلك مدرسة الطب المصرية فى عهد محمد على باشا وإلى اليوم يسمى باسمه مستشفى قصر العينى.

وكان الأمير أزبك قد استأذن على السلطان ودخل قبل دخول ابن العينى وأشار بطرفه كمن يسأل العفو، فقال له السلطان: أنعفو عنه وقد كانت المؤامرات تحاك لنا فى داره وتحت سمعه وبصره!؟ فقال أزبك: لقد تغيب عن قصره قبل وفاء النيل بإذنك يا خوند وما أظن أنه دخل فى المؤامرة، على أن اصطناع الرجال والتجاوز عن زلاتهم من طبائعكم يا مولانا وغرائز الخير التى جبلتم عليها.

وتقدم ابن العينى صامتاً بين يدى السلطان منكس الرأس فقال له السلطان : كيف تجدك يا أحمد ؟ فقال : يا مولانا أنا عائذ بكرمك وعميم شرفك ولأن تعفو عنى فى حال قدرتك أجمل بك من الانتقام منى .

فقال السلطان : والله ما علمتك إلا كثير تزويق الكلام ، فقال له : الوفاء يا مولانا السلطان كرم والمودة رحم وما على العفو ندم .

فابتسم له وقال : لقد عفونا ، فقبل الأمراء الأرض ، وأشار بيده أن يقيم فى دار الأمير يشبك حتى يرى أخته جلبان فخرجوا به .

وأدخلت جلبان وكان السلطان يتوقع أن يراها لما سمع من شدة ذكائها ورجاحة عقلها على حداثة سنها ، فلما مثلت لديه راعه حسنها وجمالها وتوقد ذكائها من بريق عينيها ، فمد لها يده مبتسما فخدمت ثم قبلت يده فقال لها : لقد أمكننى الله منك ، فقالت : يا مولانا ينبغى أن يكون الملك كالغيث يحيى إذا همى وكالسيل يروى إذا طما والبدر يهدى إذا سما ، فقال : حدثينى يا جلبان أىّ الدولتين أحب إليك أدولتى هذه أم دولة جدك وأمرائه ؟ قالت : ذلك إليك يا مولانا إن زاد برك على برهم كانت دولتك أحب إلى ، ثم رفعت صوتها بالحديث وقد شجعها تبسم السلطان ورفقه فى الحديث وقالت :

والله يا مولانا لأن أسيئ وتحسن خير لك من أن أحسن وتسيئ ، إن أنا إلا طفلة غريرة وغصن رطب من دوحة أستاذك الملك الظاهر خشقدم الذى جعلك من أوليائه واستعانك على أعدائه وأقام على حسن ظنه بك وجميل رأيه فيك حتى لحق بربه .

وبكت بكاء مراً ، ثم قالت : إن العهد بأيامه قريب لم ينقض عليه خمس سنوات

وما نسيت جلوسه على تلك الأريكة التى أنت عليها الآن وهو يضاحكنى ويلاعبنى، فقال لها : إنى قد تعمدت الجلوس على تلك الأريكة لأثير فيك ذكرى جدك العظيم وأنت طفلة غريرة لا تحسنين شيئاً مما وقع ، وقد سرنى إقلاعك عن غيك وجنوحك إلى الهدوء والطاعة فتجاوزت عما سلف وعفوت .

ومد إليها يده فانحنت لتقبلها فأمسك بها وقال فى صوته الهادئ :

ما فعل الله بشاهين غزالى ؟ فقالت : لقد ذهب يكفر بدمه عن عمله الذى أغضبك فاسأل عنه جنودك وأمراءك فى ساحة القتال فقد عاهدنى أن يقاتل أعداءك حتى يموت وسيفه فى يده أو يعود مع الجيش المظفر منصوراً مذكوراً بالثناء وحسن البلاء .

ولما جمع المماليك الظاهرية أتباع الملك المنصور من القاهرة والإسكندرية على أثر فتنة الأمراء أمر السلطان فشنق بعضهم ونفى البعض إلى مدينة أسوان وكان الأمير أزبك قد استدعى الملك المنصور إلى القاهرة ليرى السلطان رأيه فيه ، وكان ملكا كريم الخلق سخى النفس قليل الأذى ليس له ضلع فى الفتنة التى انغمس فيها مماليكه وأمراؤه ، فحضر من الإسكندرية وتقدم بين الناس إلى القلعة يحمل كفنه تحت إبطه فرقوا له واشتدت الوجيعة والأسف عليه ، واجتمع الناس تحت أبراج القلعة فى صفوف كثيفة وناشدوا السلطان أن يعفو عنه ويصفح ، وضجوا بالبكاء حتى بلغ نداؤهم أسماع السلطان فخرج إلى شرفته ومعه الملك المنصور بعد أن خلع عليه تشريف الرضا من حلل الملوك ، فانطلقت ألسنتهم بالدعاء له بالنصر ، ونزل الملك المنصور فى تجمل الملوك وزينتهم على فرس من جنائب السلطان وسرج من خالص الذهب وحوله حرس الخاص إلى قصر صهره الأمير أزبك ، فأحاط به الناس يهنئونه ويحفون بركابه فشكر

لهم وفاءهم وأثنى عليهم . وأمر السلطان بأن تحمل أميرة قبرس سراً فى عشارى كبير إلى ثغر الإسكندرية فينطلق بها شينى حربى تحرسه بطستان مسلحتان إلى قومها بجزيرة قبرس ، وأن يكون بمعيتها سفير مصر الأمير جان بك حبيب .

وأن يكون مقر الأمير أحمد بن العينى ثغر دمياط فيخرج مع أخته خوند جلبان يحرسهما الأمير جان بلاط مع طائفة من الحرس الخاص ، وأن تمنع كل صلة لهما بأحد من أهل القاهرة كائنا من كان .

وأن يعود الملك المنصور عثمان إلى مقره بثغر الإسكندرية مع ابنته جلنار فى عشارى كبير من مراكب السلطان يحف به حرس من مماليك السلطان ، ويتولى خدمته الأمير قانصوه الغورى .

وكانت سياسة حازمة من قايتباى أراد بها أن يقضى على كل صلة لحيدر بسائر الخوندات ، فقد علمته التجارت أن بنات الملوك يغرين صغار الأمراء بالوعود والأمانى فيستجيبون لهن ويخرجون عن الطاعة .

وبعد عشرة أيام خرج من ساحل بولاق عشارى جميل يحمل الملك المنصور عثمان وابنته جلنار وحاشيته إلى الإسكندرية ، وفى ذلك اليوم كان حيدر فى درعه ولأمة حربه على رأس كتائب القاهرة يعرض جنوده بين يدى السلطان فى ميدان صلاح الدين تحت جدران القلعة وما كان يعلم إلا الله بهواجس نفسه وتحرقه لقعوده عن وداع جلنار ، ولكنه حرص أن يبلغها سوء موقفه وطيب التحيات مع صديقه الوفى على الزئبق فاندمج الزئبق فى طائفة الحمالين الذين تولوا نقل أثقال الملك المنصور إلى العشارى ودأب كعادته فى البحث حتى عرف مخدع خوند جلنار ولمحها تشرف من طاقة المخدع على الشط وسمعها تشدو شدو الحمائم التى غاب عنها إلفها وتقول :

وارحمتا للغريب بالبلد النازح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعا

فبلغها الرسالة ودعا لها بالسلامة ثم اختفى .

وكان سفراً هيناً لا مشقة فيه ولا نصب حتى بلغوا مدينة العطف فاندفع العشارى فى خليج الإسكندرية (ترعة المحمودية) وكان خليجاً عظيما يحمل إلى الثغر ماء النيل .

وكان قد طم وربا الطمى عليه فكان أهل الثغر يخزنون الماء بالصهاريج حتى جاء عصر الملك الناصر محمد بن قلاون فاستخدم فى حفره أربعين ألف رجل وجعل عمقه ستة أقصاب وعرضه ثمانية وذلك فى عام ١٣١٠ م واستصلح أكثر من مائة ألف فدان وأدار عليه ستمائة ساقية ، فنما العمران حوله وانطلقت فيه السفن الكبار واستغنى به أهل الثغر عن خزن الماء فى الصهاريج .

وكان عشارى الملك المنصور يطوى به المزارع والدساكر والقرى المستحدثة وعدتها أربعون قرية فيلقاه الأهلون عند رؤس الجسور بالبقل والطير والخراف ويعودون بواسع البر من الملك فقد تناول بيده عشرين بيضة من أحد الفلاحين ونقده فيها عشرين ديناراً وقال له : لو زدت لزدناك .

وبلغوا الثغر عند الشروق فطويت شراع العشارى وجلس الملاحون بمجاديفهم يندفعون الهوينا بين الحدائق والبساتين من الجانبين وكانت شيئاً كثيراً فيها الكروم والنخيل وسائر أنواع الفاكهة والخضر ، حتى طلعت عليهم قصور الثغر من وراء الأسوار . وكانت المدينة مستطيلة الشكل طولها من الشرق إلى الغرب ثلاثة كيلو مترات وعرضها من البحر إلى الداخل كيلو متر واحد ، وأسوارها تتكون من حائط خارجى ارتفاعه عشرون قدماً ولكن السور الداخلى كان أكثر ارتفاعاً

وسمكا ويبعد عن السور الأول بين العشرين والخمسة والعشرين قدماً وكان بالسورين عدة أبراج بها المقاتلة وحولها خندق يملأ من ماء النيل عند الحاجة .

وللمدينة أربعة أبواب فأولها باب البحر وهذا يمتد الى اللسان وباب رشيد وهو الباب الشرقى وباب السور وهو الغربى والباب الأخضر وهو المؤدى الى المقابر ، وكانت المدينة قد خططت تخطيطا منتظما ففيها ثمان شوارع مستقيمة تقطعها ثمان أخرى على زوايا قائمة كرقعة الشطرنج ، وكانت جميع الطرق مستقيمة ممتدة على عكس الطرق الملتوية والدروب المنعطفة المألوفة فى القاهرة وسائر المدن الشرقية .

وخرج نائب الثغر الأمير قجماس لاستقبال الملك المنصور وابنته ، وأعدت لهم الجنائب بالمرسى عند رأس الخليج ورحب النائب بالملك وسار فى ركابه إلى مسجد أبى العباس أحمد بن عمر الأنصارى المرسى فصلى به ركعات قبل أن يدخل القصر ، وحملت خوند جلنار فى محفة عالية من المخمل الأحمر على عجل يجرها الغلمان فاخترقوا الشوارع المرصوفة بالمرمر حيث يقوم بها العمد الهائلة الحجم من الرخام فتراها كتلا كبيرة وضعت على ارتفاع شاهق فتبدو منها دقة الصناعة وجمال الألوان وتنويعها مما أخرجته أيدى الصناع .

وما كانت جلنار قد زارت الثغر من قبل فراعتها تلك الحدائق والكروم التى بداخل المدينة وبهرها منظر الدور التى كان غالبها يقوم على القناطر والعقود مستندة الى الأعمدة القائمة بعضها من فوق بعض إلى الطبقة الثالثة ، وكان قصر الملك المنصور بجانب دار الحكومة على شاطىء البحر بنى من ثلاث طبقات على عمد من المرمر الجميل المتعدد الألوان فكان منها ما يشبه الزمرد فى خضرته ومنها ما يحكى العقيق وكان البستان جميلا منسقا به الكروم وسائر أنواع الفاكهة والرياحين ، وأنزلوا خوند جلنار جوسقا جميلا يشرف على البحر ويحوطه بستان

لطيف ويجمعه بقصر أبيها الملك سور عال فرضيت بالعيش واحتملت بعد حيدر بصبر جميل واحتساب ، وكانت دار الحكومة على شاطىء البحر بنيت على عمد من المرمر المصقول .

وكانت المدينة سوقا كبرى لمنتجات الهند ونفائسها كالتوابل والفلفل والقرنفل واللؤلؤ وسائر الأحجار الكريمة، يفد إليها التجار من كافة الأقطار الأوربية يمثلون مدينة جنوة والبندقية وبيزا وبروفنس وسراجوسة وقطالونيا ولكل جماعة منهم فندق خاص يسكنونه ويخزنون به بضائعهم وهى نفائس الصناعة من البلور والخزف والثريات والأقداح والصحاف الثمينة وثياب الحرير والستور من المخمل الغالى والسمور .

وكان أهل مدينة البندقية أكثرهم نشاطا وأحسنهم تجارة وعلى رأس جاليتهم قنصل ، وقد اتخذوا مقرهم فى طريق تجارى عظيم طوله فرسخ كله من الرخام أرضه وجدرانه وبجانبه سوق للتجار الشرقيين وكانوا خليطا من مغاربة الأندلس والبربر ومجاورة الهند وبينهم كبار المصريين كابن عليبة والكيزانى الذين كانوا يتجرون بأنواع من الكتان الثمين الذى كان يباع بما يوازى ثقله فضة ، وكان فى وسط ذلك السوق دار الطراز التى ينقشون فيها اسم السلطان على الحرير بلون يخالف لونه وبجانبها مصانع الحرير ونسجه وحياكته وقد جهزت بآلاف الأنوال . (دائرة المعارف الاسلامية) .

واطمأنت جلنار إلى جوسقها وسرت بحسن بنائه وجمال عمده وأبهائه وكثرة شرفاته المطلة على البحر ، وقد صدقها السلطان وعده فحمل إليها الأثاث الفاخر وضاعف لها الحاشية ووسع عليها الأرزاق .

وانتقل قائصوه الغورى إلى دار الحكومة وخلا بنائب الثغر وسلمه مكتوبا

مختوما من السلطان يذكر فيه أن جندا عظيما قام بحراً ليكون نجدة للمجاهدين المدافعين عن الثغر فى برج الإسكندرية العظيم ،ولم تمض إلا أيام قلائل حتى أصبح الخليج غاصاً بالمراكب القادمة من القاهرة تحمل السلاح والمدافع والمؤن لأهل البرج .

وكان السلطان قد رأى أن الثغر معرض للغزو من مراكب الإفرنج فشيد على أساس فنار الإسكندرية القديم برجا شاهق البناء متين التدعيم عقد دهليزه على قناطر تمتد فى البحر الملح من الساحل حتى تنتهى الى البرج ودعمه ببناء وثيق من الشرق والغرب وجعل به أساطين متسعة وثيقة وضع أساسها فى البحر ،وجعل فيه منظرة عالية يرى الناظر منها مراكب الإفرنج من مسيرة يوم قبل أن تدنو من الميناء ، وأنشأ بجانب ذلك مسجداً للجند وطاحونا وفرنا ومخازن شحنها بالسلاح.

وزوده بالمدافع الكبيرة كان يرابط عندها الجنود ليلا ونهاراً بنوب متعددة، وذلك خوفا من هجوم الإفرنج على غرة .

وخرج النائب والأمراء لاستقبال المراكب التى قدمت بالأثقال والمدافع والجنود لحماية البرج العظيم وللدفاع عن الثغر فحملت المدافع والمؤن الى البرج وسارت كتائب الجند صفوفا منسقة فى الميادين فاسترعت أنظار الافرنج الذين كانوا يشرفون عليها من فنادقهم .

وكان بالمرفأ الغربى ثلاثون شينيا حربيا وفى كل واحد ثلاثمئة مقاتل و برج للقتال وقلعة للحصار واصطف من وراء الشوانى خمسون قطعة من مراكب الحرب بين بطسة وشختور وتلك كانت مجهزة بقوارير النفط يقاتلون بها الأعداء و يندفعون بين صفوفه وكان جنود الأسطول يسمون الزراقين .

وتقدم أمير الأسطول عمر الزراق بين صفوف كثيفة من جنوده المجاهدين فزينت الشوانى لاستقباله أحسن زينة وبات الناس يتوقعون الحرب وذلك عندما

حمل الى الأسطول عدد كبير من المدافع الثقيلة والزاد . وحاول الإفرنج أن يتبينوا نية الدولة بذلك المظهر الحربى وأى البلاد سيكون هدف الأسطول فلم يفلحوا فى سعيهم لأن نائب الثغر وسائر الأمراء والجنود كانوا ألبا واحداً فى التكتم وكانت وصية السلطان أن يجهز الأسطول للخروج فى أكمل تعبئة بحيث اذا تحرك الجيش للحرب تحرك معه الأسطول لحماية الثغور بمصر وسوريا خوف العدوان عليها من العثمانيين الذين أصبح ضلعهم ظاهراً مع شاه سوار .

الفصل الثانى والعشرون

شاه سوار

كانت المملكة المصرية خلال القرن السابع والثامن والتاسع من القرون الهجرية أعظم دول الشرق العربى، يحكمها سلاطين المماليك ويمتد نطاقها شمالا إلى ما وراء بلاد حلب وإلى ألفرات وأطراف العراقين، وكان يتاخمها من الشمال دولة العثمانيين الذين فتحوا القسطنطينية وتوغلوا فى جنوب أوروبا.

وقامت دولة التركمان بالعراق إلى الشرق من أملاك مصر.

وظهرت مطامع العثمانيين بملك مصر العظيم وأرادوا أن يمدوا شباكهم إلى البلاد الحلبية المجاورة لهم من الجنوب فاصطدموا برجل العصر الذى لا يرام وهو قايتباى، فعمدوا إلى المداورة ودفعوا ملك العراق شاه سوار إلى الحرب مع جيوش مصر على أن يؤيدوه سراً بالعتاد والجنود، فإن لم ينل من وراء الحرب نصراً حاسماً فلعله يضعف الجيش ويثقل كاهل البلاد بالمغارم فيهون بعد ذلك على العثمانيين افتتاحها.

واندفع شاه سوار فى حرب عوان ضد مصر وكان ملكا جليلا فى عشر الأربعين بطلا شجاعاً، أكبر أولاد الملك دلغادر وأعظمهم همة، جميل الوجه أشهل العينين أسود اللحية معتدل القامة ضخم الجسم، فأحرز نصراً غالى الثمن على جيش مصر مرتين، وكان قايتباى يلقى فى أتون الحرب بخصومه من أمراء الملوك السابقين الذين لا هم لهم إلا خلع الملوك وتحريك الفتن، وما خفى عليه أنهم لا يصلحون لكبح مثل هذا الخارجى الكبير الذى أطغاه النصر وكثرة الغنائم، حتى توغل

فى أطراف المملكة ففتح أدنة وطرسوس وسيس وهدد مدينة حلب ، وفى خلال ذلك كان قايتباى يعد له الجيوش والعتاد ويختار شجعان المماليك حتى بلغوا ثمانية آلاف مملوك مدربين على أحسن فنون الحرب وأساليبه ، وأدار مسابك النحاس تحت القلعة مستعيناً بالخبراء من أهل البندقية حتى جمع للجيش بضع مئات من المدافع كانت تجرها الأبقار على عجل، وسلح منها أسطول بحر الروم ليذود عن الثغور عدوان العثمانين والإفرنج على السواء .

وجهز من صميم المصريين كتائب من الفتيان يحملون البنادق ، فسره نظامهم وشجاعتهم وجند منهم ثلاثة آلاف فتى من شباب القاهرة

واختار الأمير يشبك ليكون أمير الجيش ، فقام بتنظيم جنود الحلقة وهم صلب الجيش ونواته الكبرى ، وألهب صدور سائر الأمراء فجهز كل منهم جنوده أحسن جهاز ، وتواترت الرسل والبريد إلى ولاة الأقاليم الشمالية ونوابها كنائب حلب والشام والقدس وحمص وحماة فتجهزوا وأخذوا للحرب أهبتها .

واشتركت قبائل العرب الضاربة فى أطراف البلاد فى تلك الحرب كعادتها وكانوا من عهد الفتح الإسلامى منتشرين فى الأقاليم فخالط بعضهم أهل القرى فتحضروا وبقى البعض على بداوتهم يعيشون فى المضارب مستمسكين بغرائزهم الموروثة من حب التنقل على ظهور الخيل والإبل ، وكانوا يحدثون الأحداث أحياناً فينهبون القرى ويعتدون على السروح فيدفع الأمراء أذاهم .

وكان أمير القبائل الضاربة فى إقليم جرجا لذلك العهد يدعى ابن عمر كما كانت قبيلة غزالة تنزل ضواحى إقليم الجيزة وأميرها حماد بن خبير وأمير قبائل المنوفية حجازى بن بغداد وأمير عربان البحيرة مهنا بن عطية ، وكانت قبائل من بنى وائل وبنى حرام ينزلون إقليم الشرقية وأميرهم صقر بن بقر وكان أمير عربان الغربية حسن بن مرعى وهو أكثر أمراء العرب صلة برجال الدولة .

فخرج من صفوف تلك القبائل عشرة آلاف فارس .

وعاد الوزير كاتب السر من بعثته مع الأمير برسباى رأس النوبة بعد أن حشد جموع العشير للحرب ، والعشير هم عرب الشام بنو هلال و بنو أسد النازلون جبال نابلس ، فكان المجندون منهم خمسة آلاف فارس .

واتسع نطاق كتائب البندق من فتيان القاهرة حتى لقد بلغوا ثلاثة آلاف ، منهم ألف فارس مختارين ألبسوا الحديد وقسموا إلى عشرة كراديس والجميع ، يدينون بالطاعة والولاء لحيدر الذى هجر سكنى الجوسق وضرب بينهم قبة يسكنها ، فكانوا شغله الشاغل ليل نهار وكان يقوم بحراسته البطلان نعمان وطلحة .

وخيمت الجيوش الجرارة فى الصحارى التى بشمال القاهرة وشرقها فجلس السلطان للنفقة عليهم وفتح أبواب الزردخانة وحمل إلى الجنود ما أعده من العتاد الثمين ولحق بالجيش بضعة آلاف من المتطوعة المجاهدين .

و بلغت عدة ذلك الجيش مائة ألف مقاتل يقودهم الأمير الكبير يشبك بن مهدى وخرج السلطان بنفسه سراً إلى مضرب الأمير وكتب له خمسمائة منشور عليها العلامة السلطانية ليتولى بنفسه الكتابة فيها بما يشاء من ترقية الأمراء الذين يحسنون البلاء فى القتال ، ثم أوصاه بالرفق بالجنود فى السير الذى يقدر عليه أضعفهم وأن يتفقد خيلهم التى يجاهدون عليها ودوابهم التى تحمل أثقالهم وأن يتصفح الجيش قبل لقاء العدو فيخرج منه كبار السن وصغارهم والمرضى والذين يشك فى حسن إخلاصهم، وأن يضع الحراس حول سواد الجيش ليأمنوا على أنفسهم ورجالهم قبل الموقعة وأن يتعرف أخبار العدو و يبث السرايا والجواسيس للكشف عنها .

وزار الوزير كاتب السر ولده حيدراً فى مضربه وخلا به وقال : إنى أودعك الله فى غربتك مرتقباً منه التوفيق والسلامة لك فى أوبتك، فتجرد يا ولدى من كل ما يلهيك عن القتال وطهر فؤادك من أدران الهوى فإنه يحط من قدرك بين الناس ، وليكن أكبر همك اليقظة والحذر ولزوم طاعة قائدك الأكبر ، ولا

أوصيك بالثبات وحسن البلاء فتلك بحمد الله شيمتك ولكننى أدعو لك بتوفيق الله والمزيد من نصره وتأييده .

وقبله فى جبينه وغادره إلى داره .

وخرج الأمراء بجنودهم وأتباعهم فكان المشاهد الملموس فيهم أن اللون الأصفر هو الغالب على هيأتهم ، فكانت ثيابهم وطراز أزيائهم ونسيج خيولهم وركائبهم وراياتهم وأكياس مصاحفهم وعصائبهم كلها من الحرير الأصفر .(١)

وخرجت طبول الأمراء وكوساتهم الحربية ودويها كالرعود يملأ الأفق ضجيجاً ، وكانت رماحهم تخفق بأيدى الفرسان ودروعهم سابغة على أبدانهم وخيولهم ، وغالبها مكفت بذهب .

ولأول مرة ظهرت الجنود من أهل القاهرة وفيهم ألف فارس دارعون يمشون كراديس خلف قائدهم حيدر ، وبينهم النقباء من الفتيان ، وكان بقية الفتيان مشاة يحملون راية الفتوة السوداء وبأيديهم البنادق ، وكانت عدتهم ثلاثة آلاف ، وسارت تلك الجيوش الجرارة على بركة الله حتى بلغت سهل مدينة حلب فخيموا تحت القلعة وعبأ الأمير جيشه فجعل فى الميمنة الأمير برقوق نائب الشام والأمير أزدمر نائب حلب والأمير خضر بك نائب القدس وبالميسرة الأمير برسباى والأمير تمر والأمير تمراز وصمد الأمير يشبك فى القلب ومعه كتلة الجيش من المماليك السلطانية وعدتهم ثمانية آلاف وجنود الحلقة وعدتها عشرة آلاف وجنود الأمير الخاصة وبينها سائر كتائب القاهرة وبضع كتائب من رجال الزعر الشجعان وكانت فرسان العرب فى أقصى الجناح الأيسر .

وتقدم الجيش على تلك التعبئة إلى البلاد التى فتحها سوار فزلزلوها وألقوا الرعب فى قلوب التتار ، واشتبكوا بالعدو بضع ساعات ، فولى بغير نظام فاستردوا منه مدينة عينتاب وإدنة وطرسوس .(٢)

---

(١) صبح لاعشى . (٢) ابن اياس .

وزحف الجيش خلف المنهزمين وتغلغل فى بلاد التتار حتى بلغ نهر جيحون .

فصمد له شاه سوار بجموع لا تحصى . وكانت جيوش مصر ترابط تحت سفح جبل فى خمسة صفوف عظيمة وكان بين كل كتيبتين فراغ واسع ، وأعد فى الطليعة جنود الهجوم عليهم الدروع السابغة و بأيديهم البنادق والرماح .

وكانت رماة الفرسان فى المؤخرة وذلك لكى يندفعوا بخيلهم من خلال الفراغ الذى بين كتائب الهجوم فيرموا العدو بالبندق وقوارير النفط المشتعلة و يحملوا على أثرها والنار على أشدها فيرموه بوابل من السهام الثقيلة

وكانت الأمراء تخاطب جنودها بتلويح الرايات البيض والسود ولا ترفع أصواتها إلا بالتهليل والتكبير .

ومشى الأمير يشبك بين الأمراء ومعه القراء يتلون القرآن و يحثون على الجهاد فتواصى الجميع على الثبات .

ووقف الغلمان بأحمالهم وراء العسكر صفاً واحداً وقال لهم الأمير : من خرج من الأجناد من المصاف فاقتلوه ولكم سلاحه وفرسه .

فلما تم الترتيب زحفت كراديس التتار كقطع الليل بعد الظهر وحمل شاه سوار على الميمنة وقاتلها فثبتت له وقاتلت قتالا شديداً فقتل من الجنود وصغار الأمراء نحو من ألف فارس ، فأدركتهم كتائب القلب وأولهم فرسان القاهرة يقودهم حيدر وصاح حيدر : هلك والله أهل الإسلام ، وحمل بفرسانه حملة صادقة فمزقوا التتار إلى إلى شراذم متفرقة وجاءت على الأثر المماليك السلطانية فصدموهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وأشرف شاه سوار على الهزيمة فأنجده فيلقان عظيمان مع بعض أمرائه فسلط الأمير يشبك عليهم سائر جنود الحلقة وخمسة من كبار الأمراء بجنودهم فدفعوا التتار إلى الخلف ونفسوا عن إخوانهم ، واستمرت الحرب بين الفريقين وكل منهما ثابت لقرنه .

وصعد شاه سوار إلى الجبل وقد ظن أنه قد انتصر لما رأى جنود الميمنة منهزمين (١)

(١) كتاب السلوك

ونظر إلى السهل من تحته فرآه يرهج بالجنـد لأن الميسرة كانت بأسرها ثابتة وأعلامها تخفق وأذهله رسوخ قدم قلب الجيش وفيه الأمير الكبير و بقية الأمراء وكوساتهم تدق دقا عنيفاً فارجفت الأرض وأزعجت القلوب ، ولفت الأنظار فارس فى الحديد إلى قمة رأسه كان إذا حمل على صفوف التتار تفرقوا بين يديه ونفس عن إخوانه و استعاد الكثيرين من المنهزمين إلى المصاف ثم عاد إلى شدة الهجوم فاشتد إعجاب الأمراء بشجاعته ، وأمعن فى صفوف التتار ففروا من بين يديه وتكدست أشلاء القتلى أمامه فكبابه الجواد فأسرعت إليه كتيبة من التتار لتقتله ببعض من قتل منهم ، وكان الأمير حيدر أقرب الأمراء إليه فظل يرد عنه هجوم التتار حتى حمله بعض غلمان الكتائب ،وكان الذى حمله نعمان فرأى الدماء تسيل من كتفه وسار به بين الصفوف يحميه بسيفه ومن ورائه طلحة يدافع ويقاتل حتى أضجعوه فى أقرب خيمة، ورفعوا المغفر عن رأسه ونزعوا درعه ولثامه فكان شاهين غزالى ، وحمل الخبر إلى الأمير يشبك وهو قائم تحت البنود فى المصاف ففرح به وأمر بأن يعنى به ،وأرسل إليه بعض الأمراء يبشره بصدور العفو عنه وأنه قد أصبح أميراً على عشرة منذ الساعة جزاء شجاعته وحسن بلائه .

ونزل من الجبل أحد أمراء التتار ومعه عشرون ألفاً وكان قد أرهبه تجمع جيش مصر و إحداقه بالجبل ففر بعسكره هارباً .

وبات الأمير يشبك وسائر العساكر على ظهور الخيل والطبول تضرب ولحق به المنهزمون من الميمنة شيئاً فشيئاً وهم يعودون على صوت الطبول والكوسات الحربية .

وأحاط العسكر بالجبل الذى بات عليه التتار وصار كبار الأمراء طول الليل يدورون على الأجناد يشجعونهم و يوصونهم باليقظة وأخذ الأهبة ، فما طلع الفجر حتى كان قد اجتمع شمل الجيش ووقف كل واحد فى مصافه مع أصحابه كما وقفت الأثقال من الخلف على بعد منهم .

وثبتوا على ذلك حتى ارتفعت الشمس فكانت رؤيتهم تذهب بالألباب .

ورتب شاه سوار جيوشه ونزل بهم من الجبل مشاة وفرساناً فبرز له المماليك السلطانية وأبلوا بلاء حسناً فتارة يرمونهم بالسهام وطوراً يهاجمونهم ، واشتغل بقية الأمراء بقتال من فى ناحيتهم من التتار فصاروا يتناوبون القتال أميراً بعد أمير .

وألحت كتائب القاهرة فى القتال فرساناً ومشاة وقتل تحت فارسهم حيدر خمسة جياد وكذلك أمراؤه ونقباؤه منهم من قتل تحته ثلاثة جيـاد ومنهم الجوادان ، وكان البطلان نعمان وطلحة يدوران حول حيدر ، وكلما لاح لأحدهما فارس من التتار انهال عليه باللات واقتسم سلبه مع زميله

واشتد قتال المماليك السلطانية وحصدوا جموع التتار ففروا جميعاً وصعدوا إلى الجبل بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة واشتد بهم العطش .

ودنا الأمير يشبك من حيدر وهو فى المعمعة وقبله وأطرى شجاعته و إقدامه ، و بلغ الأمير ان التتار قد أجمعوا على النزول فى السحر ومصادمة الجيش وأنهم فى شدة من العطش فكان الرأى ان يفرج لهم عند نزولهم ثم يركب الجيش أقفيتهم .

وأصبح النهار فركب التتار ونزلوا من الجبل فلم يتعرض لهم أحد وساروا إلى النهر فاقتحموه ، وعند ذلك ركبهم بلاء الله من الجنود فحصدوا رؤوس التتار وأيدهم الله بنصره ومروا فى أثرهم إلى وقت العصر فعاد الأمراء إلى المصاف وسرحوا الطير بالنصر ، واختاروا أحد الأمراء ليحمل البشرى إلى السلطان بمصر ، واستمرت الجنود فى أثر التتار الذين كلت خيولهم وضعفت نفوسهم فألقوا أسلحتهم واستسلموا للقتل فكانت الجنود تقتلهم وتأسر من استسلم منهم .

وفر شاه سوار فى كتيبة من جنوده إلى داخل البلاد واعتصم بقلعة زمنوطو .

وخرج بضعة آلاف من الفرسان لمطاردة فلول التتار وفى طليعتهم ألف فارس من كتائب القاهرة يعملون تحت إمرة حيدر فسلكوا طريقاً ضيقاً بين الجبال يشرف على واد عميق أوسع ما فيه أن يمشى الفارس وحده وأضيقه أن ينزل عن فرسه خوف السقوط وقد تردى فى مهاويه كثير من التتار ثم خلصوا إلى أرض سهلة كان بها فرقة من التتار فعاجلوها وهزموها .

وزحف الأمير يشبك ببقية الجيش إلى قلعة زمنوطو وهى مدينة لها رستاق تقع بين سجستان والغور ، وقد لجأ اليها شاه سوار وتحصن بقلعتها الحصينة وزعم أن أحداً لا يجسر أن يدنو منها . وذلك لأن خندقها كان عميقاً ومن حولها كثير من المعاثر التى يتردى فيها الجنود .

فسلط الأمير عليها رماة الجيش ومعهم ثلاثون دبابة بكباشها وضاعف لها السلاليم وأطلق المدافع على أسوارها فهتك من السور عدة أبراج واستباح الجيش المدينة فانهزم من كان فيها من الجنود وسقط غالبهم فى خندق القلعة من خوف السيف ، ولجأ الناجون إلى القلعة وتقدمت فرقة المتطوعين المجاهدين فردموا الخندق وأحرقوا الأشجار التى تحت القلعة حتى انعقد الجو من دخانها .

وكان الأمير قائماً على تل يشرف على الحصن يعمل الرأى فى أخذه عنوة والأمراء يحملون على الأبواب واحداً بعد واحد .

وتصدع سور القلعة من قذائف المدافع فتقدمت سائر الكتائب على الخيل لاقتحامه ولكنهم أحجموا أمام قذائف التتار وإحكام رمايتهم .

فنادى الأمير يشبك أبطال الحروب وحضهم على اقتحام السور إلى داخل القلعة ، فتحاماه الناس لكثرة من قتل على ثغرة النقب ، هنالك برز من صفوف الجيش فارس فى درع سابغة ولوح برمحه يسلم على الأمير ، ثم اندفع لا يلوى على شىء حتى اقتحم السور وقذائف التتار وسهامهم تأخذه من كل جانب ، وعاث

فيه ، فثارت حمية الجنود ولحقوا به وأطبقوا على البرج من كل ناحية واشتد أوار الملحمة فى داخل القلعة ، ونفذ المصريون إلى البرج الكبير ورفعوا عليه الأعلام .

وعاد بقية الجيش إلى الخيام ورابطوا عند البرج الذى فيه شاه سوار فسر الأمير بذلك الفتح العظيم وكان أكبر همه أن يرى ذلك البطل الذى اقتحم السور أول الناس فنادى نقباء الجنود بين الصفوف ليخرج ، فلم يخرج إليهم أحد ، فأعيد النداء ولوح النقباء بالرتب العالية والجزاء الحسن من غير أن يستجيب لهم أحد حتى ولى النهار ، فتقدم إلى قبة الأمير فارس فى لأمة الحرب وعليه المغفر وقال لحرس الأمير : إنه يعرف مكان الفارس الذى يطلبه مولاهم فحملوه إلى القبة فلما سأله الأمير قال : إنه أوصانى أن أنال له من مولانا خلالا ثلاثة فاذا أجيب إليها ظهر وتقدم إلى بابكم ، فقال له : ماذا يطلب ذلك البطل؟ قال: إنه يرجو ألا يذاع اسمه بين الجنود ولا يوصى به إلى مولانا السلطان ولا يحمل إليه تشريف ولا رتبة و يطلب عهداً على ذلك !

فعجب الأمير من تلك المكارم وقال: لقد بلغ الرجل منازل المجاهدين السابقين فهو الجندى المجهول بين سائر جنود مصر أبلغه أننا أجبنا طلبه على الرغم منا ، فقال الفارس : فأنا ذلك الجندى يا مولاى .

فمشى إليه الأمير متمهلاً كأنه مقدم على ضريح ولى من أولياء الله وقال : مرحباً بخير مجاهد فى سبيل ربه إئذن لى أن أكشف عن وجهك وألثم جبينك الطاهر فكشف الفارس عن وجهه فلما رآه الأمير صاح وقال : إنك والله حيدر ، وقبل جبينه وكان الفتى يوارى نزف جراحه فلوثت الدماء ثوب الأمير ، فقال: تلك يابنى دماء الشهيد المجاهد الذى حبس نفسه فى سبيل الله وأمر غلمانه فحملوه إلى داخل القبة وسارع إليه الأطباء وذاع الخبر بين طوائف الجند ، فأقبلت كتائب القاهرة بأسرها ورابطت بباب القبة وفى صدرها نعمان وطلحة وسائر الأمراء .

وكان حيدر قد وطد العزم على اقتحام السور وحده دون أن يطلع أحداً على عزمه فدخل إلى قبته وتنكر فى ثياب الجنود وأفرغ على جسده درعا سابغة ثم خرج من ظهر القبة فلم يره أحد من أمراء الكتائب إخوانه ، واختار من مرابط الخيل فرساً وانطلق إلى البرج .

وتقدم من صفوف المتطوعة رجل فى ثياب المجاهدين على عاتقه حرمدان وألح فى الدخول إلى حيدر فسأله نعمان عن شأنه فقال : إنه طبيب قدم لعلاج الأمير حيدر فقال: ما اسمك ومن أى البلاد أنت ؟ فقال : أنا أخوه ولى الدين بن حسن، فسمعها حيدر من داخل القبة فناداه وقال: تعال يا أخى فدخل ولى الدين وقد زاده الله بسطة فى الجسم والعقل وتعانق الأخوان وقال حيدر : لا تثريب اليوم ، فسأل عنه الأمير فقال حيدر :هذا أخى من الرضاع .

وكان ولى الدين قد لحق بمعهد الطب المنصورى بوصية من شيخ الإسلام وشفاعة سيدى المتبولى فنال حظاً عظيما من العلم الذى شغف به ، فلما جاءت الحرب خرج مجاهداً مع المتطوعة يعالج الجرحى حسبة لله .

وقام يسبر جراح حيدر وتولى علاجه حتى اندملت جراحه وأبل بعد أيام من المرض .

وعاده الأمير يشبك يوما مع الأمير برقوق أكبر الأمراء من بعده وقال له : ألا تحلنى من عهدى الذى قطعته لك ياحيدر؟ قال: لا يامولاى فإن أبى يوم ودعنى قد استودعنى ربى واحتسبنى مع الشهداء وأشهد على نفسه ، فنذرت نفسى حسبة خالصة لايدخل فى حسابها عرض من مال الدنيا أو جاهها ، فتضاعف إعجاب الأميرين به ونظر أحدهما إلى صاحبه مبتسما ثم خرجا يتغامزان .

ولما رأى سوار عين الغلبة أرسل إلى الأمير يشبك يطلب حضور الأمير تمراز ابن أخت السلطان ، فذهب إليه مع قاضى العسكر شمس الدين بن أجا الحلبى فقال

لها سوار : لقد قتلت من جنودكم وأمرائكم عدداً كبيراً وأخشى إذا نزلت إليهم أن يقتلونى فقال له تمراز : أعاهدك ألا يمسك سوء ، فخرج سوار من القلعة فى نفر قليل من عسكره وحوله إخوته وصار إلى قبة الأمير يشبك ، فقام له ورحب به وخلع عليه وألبسه تشريف السلطان وقال له : اذهب إلى الأمير حيدر فذهب ومعه تمراز إلى قبة الأمير حيدر وكانت جراحه قد التأمت فاستقبله وهو جالس بين نقبائه ، فلما دخلوا عليه قال لسوار ، من أنت : قال أنا سوار ؟ فقال : هل أنت سوار ؟ فقال : نعم أنا سوار ، فجعل يكرر السؤال والأخير يجيبه : نعم أنا سوار فقال له : أنت الذى قتلت الأمراء والجنود ؟ فسكت سوار فقال : حيدر أحضروا له خلعة فأحضروا خلعة ومن داخلها قيد من الحديد فلما ألبسوها له وضعوا الحديد فى عنقه فقام أتباعه وسلوا سيوفهم للدفاع عنه وكان حيدر قد وضع كميناً من جنوده حول الخيمة ، فهجموا على أتباع سوار ووضعوا فيهم السيف وكبلوا سواراً بالحديد وأدخلوه بعض الخيام ، فغضب الأمير تمراز وقال لحيدر : كيف تصنع به ذلك وقد عاهدته ألا يمس بسوء ؟ فصاح به الأمير حيدر وطرده من خيمته .(١)

وكان الأمير يشبك قد وعد الأمير تمراز أنه إذا نزل إليه سوار لا يمسه منه سوء ، ولكنه أوعز إلى حيدر فى السر أن يقبض عليه .

وكان بين إخوة سوار شاب جميل الوجه صغير السن فاستجار بحيدر فوعده بأن يشفع له عند الأمير .

وهكذا نال الأمير يشبك نصراً مبيناً بتفوقه فى الأسلحة وسرعة هجومه على التتار وسرعة الرماية و إحكامها .

وقفل الجيش عائداً إلى بلاده وظل يطوى البيد والفيافى حتى بلغ دمشق ، فنزلوا ضواحى الصالحية والمزة وداريا وخرج الناس لاستقبالهم وزينوا أسواق الخواصين والنحاسين والعادلية الصغرى ، ودخل الأمراء من باب النصر فاشتد

---

(١) بدائع الزهور

الزحام من ميدان الحصا إلى القلعة وفرشت الأرض بشقق الحرير الملون ونزل الأمير يشبك بالقصر الأبلق واستراح به أياما ثم رحلوا إلى مصر .

وأذاع المبشرون على العاصمة بأن الجيش المنصور بلغ الصالحية فكأنه تغيب عن البلاد سنة ونصف سنة، فأمر السلطان بإطلاق الزينة فى سائر أرجاء القاهرة وضربوا رنوك الذهب بباب زويلة والنصر ، وعظمت الزينة إلى الغاية وكانت نسقاً واحداً تمتد بالشارع الأعظم من باب النصر إلى القلعة ونصبت خلالها سبعون قلعة (أقواس نصر) فارتفع بسببها سعر الخشب والقصب وآلات النجارة ، وزين التجار حوانيتهم بشقق الحرير والقناديل الملونة وزين الوالى باب النصر بستائر المخمل الأحمر وجعل فى طريق الموكب أحواضاً ملئت سكراً وليموناً .

ووقف الخدام بأبواب الدور بأباريق الشراب يسقون العسكر وبلغ كراء البيت الذى يمر به الموكب مائة درهم وأقبل أهل الريف من كل فج واشتد زحام الجماهير لرؤية الرجل الذى قتل جنود مصر وأمراءها ونهب أموالها ويتم أطفالها وهو شاه سوار .

ودخل الموكب من باب النصر فكان أول ما ظهر كواكب من الهجن والخيول المسرجة بسروج الذهب ويليها خيول معدة عليها آلات الحرب ومن فوقها كسى من المخمل الملون .

وكانت سروج الذهب بعضها من البلور والعقيق الملبسة بالذهب وبعضها مرصع بالأحجار الكريمة ، وجاءت بعد ذلك خزائن المال وعدتها ستة عليها الأغشية من الحرير الأصفر والأحمر وكانت الطبول والكوسات تدق من حولها

وأقبل شاه سوار بعد ذلك على فرس وعليه خلعة سوداء وعلى رأسه عمامة كبيرة وقد وضع فى عنقه غل من حديد وكان يحرسه أحد الأمراء يمشى بجانبه على فرس ، وقد وضع فى عنق ذلك الأمير غل وامتدت سلسلة طويلة من غل سوار

إلى غل الأمير الذى يحرسه ، وكان إخوة سوار وأمراؤه وعدتهم عشرون رجلا يمشون فى الأغلال أمامه ، وقد أشركوا كل واحد منهم مع رجل من أتباع الوالى فى غله كما فعلوا بسوار ، ثم هل موكب الأمير يشبك وبين يديه فارس مصر حيدر وسائر الأمراء ، وكلهم فى لباس الحرب وعلى أعقابهم رؤوس الحجاب يحملون العصى الطوال .

وكان والى القاهرة يمشى بين الصفوف يكف الناس عن الاتصال بالموكب ، وصعد الموكب إلى القلعة وقدموا سوارا بين يدى السلطان وكان جالساً بالحوش الكبير على الدكة ، فعاتبه عتاباً هيناً وهو صامت لا يتكلم ، ثم أمر فسلموه هو وأتباعه إلى الوالى فحملوهم على أقتاب الجمال وشنقوا نصفهم بباب زويلة وشنقوا الباقين بباب النصر ، ولم يستثنوا منهم إلا أصغرهم سلمان فقد قبلت فيه شفاعة الأمير حيدر .

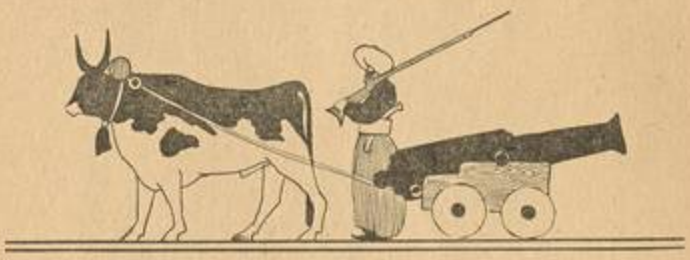

الفصل الثالث والعشرون

زفاف الأمراء

ما غاب عن فطنة الأمير يشبك أن حيدراً يوم خرج للجهاد خالصاً لوجه الله كان فى صدره حرب أخرى من جهاد النفس ، فقد أحب فعف فصبر، ولئن نزل عن مغانم الدنيا التى أحلها الله من مال وجاه وتشريف الرتب العالية فان من حق الوفاء والشرف أن يجزى بما هو أهله فترد لهفته و يجمع شمله بمن أحب ، فقد كان الأمير ملماً بحوادثه مع خوند جلنار ومصارعته على باى فى سبيل صيانتها ، وكان أقرب الأمراء إليه الأمير برقوق نائب دمشق فكاشفه بأمر حيدر واستعانه على مراجعة مولاه الملك المنصور عثمان لأنه سيده الذى رقاه ، ولم يكتف الأمير بذلك المسعى الحميد بل طالع السلطان مع بشرى النصر بتفصيل منفرد عن حيدر ومواقفه المشهودة فى القتال والتمس له العون .

فلما كان غداة مهرجان النصر استدعى السلطان حيدراً وأثنى على شجاعته وحسن بلائه وتجرده من المطامع و بشره بأن الملك المنصور عثمان لما حضر للتهنئة بالنصر خطب إليه ابنته خوند جلنار لتكون له عروساً ، فجثا حيدر على ركبتيه وتناول أطراف رداء السلطان فقبلها ووضعها فوق رأسه وقال : أنا يا مولاى عالم باعتراضك على أمثال هذا الزواج لما فيه من خشية ارتباط صغار الأمراء أمثالى بالملوك السابقين وانحيازهم إليهم ولكننى أشهد الله بين يديكم على ولائى لكم وفنائى فى خدمتكم و إيثارى سلطانكم وحده على كل سلطان فى الدنيا ، لكم

يا مولاى على ذلك عهد الله وعهد رسول الله وعهد آبائى أنصار الله ولئن كتب الله لى زواج الأميرة فسأحملها إلى قصر أبى بين أهلى وعشيرتى بعيداً عن قصور الملوك فقد شاد لى أبى جناحاً خاصاً لى ولأهلى .

فابتسم السلطان بسمة الرضى والانشراح وقال : هذا ما توقعناه منك يا حيدر فأنت سر أبيك ولئن زهدت فى الأجر وكففت يدك عن عطاء الدولة فأنا أمهر عرسك عشرة آلاف دينار من مالى جزاء إخلاصك ووفائك .

ومد إليه يده فقبلها ثلاثا وخرج .

وكان قد سقط الطير على أبراج القلعة من ثغر الإسكندرية عند شروق الشمس فقدمت البطاقة إلى السلطان وبها أن غرابا جليل القدر لمحه رقباء البرج فى عرض البحر فأنفذوا إليه بطستين مسلحتين بالمدافع فأحاطا به عن يمينه وعن شماله وأطلقتا قنبرتين بقربه حتى وقف ونزل منه بعض الجنود فى قارب وخاطبوا أهل البطستين بأن الغراب يحمل الأمير أرطغرول أكبر وزراء السلطان العثمانى وقد حضر فى سفارة إلى سلطان مصر .

فعادت البطستان إلى البرج وأعلنتا قدوم الوزير وبقى الغراب فى عرض البحر حتى سقط الطير من القاهرة وفيه أمر بقيام الوزير رأساً إلى القاهرة فلا يخالطه أحد من أهل الثغر ولا يسمح لأحد من حاشيته بمحادثة أحد .

وحمل الوزير وحاشيته فى عشارى كبير كان يرسو بخليج الإسكندرية فبلغوا الساحل فى بولاق بعد يومين ، فاستقبله الأمير يعقوب شاة المهمندار بعد أن استأذن الأمير يشبك الدوادار وأنزله دار الضيافة ببولاق وهى قاعة البرابخية التى جمعت طرائف الفن العربى بحسن روائها وجمال زخرفها ، فكان يحيط بالدار خاصة السلطان يمنعون من يدخل إلى الوزير ولا يمكنون أحداً من حاشيته من الخروج إلى الأسواق .

وكان تجار العثمانيين يحومون حول الدار يحاولون أن يتصلوا بالحاشية من الشرفات أو من السور فأمسكوا وسجنوا لمخالفتهم أمر الوالى .

وقضى الوزير بدار الضيافة ثلاثة أيام كان السلطان خلالها قد عقد مجلساً من كبار الأمراء لبحث أسباب انحراف العثمانيين عن صداقة مصر ، فظهر أن بعض ملوك الهند المسلمين كان قد أرسل إلى سلطان العثمانيين هدية جليلة مع بعض تجار الهند بينها خنجر قبضته مرصعة بالأحجار الكريمة ، فلما بلغت الهدية إلى ثغر جدة فى طريقها إلى الأستانة استولى عليها والى جدة وأرسلها إلى مولاه السلطان قايتباى ، وعلم سلطان العثمانيين بذلك فحقد على مصر وناصر ملك العراق على جيشها ، فقال قايتباى لأمرائه : أنا لا أقر هذا الفعل وما كان من اللائق بمقام الملوك أن تصادر هداياهم وليس لدى علم بهذه الحادثة ولو أننا رددناها إليه قبل أن ننتصر على شاه سوار لازداد طمعه فينا ولعد ذلك ضعفاً منا واستكانة ، أما اليوم ورايانا تخفق بالنصر فسنرد الهدية مضاعفة إليه .

وقال الأمير يشبك : وأرجو أن يرسل أمير المؤمنين الخليفة العباسى من مصر تقليداً إلى سلطانهم بتوليته ملكا على بلاده وسائر ما يفتحه من البلاد وهو التقليد الذى اعتاد أن يرسله خلفاء بنى العباس إلى ملوك المسلمين المقرين بخلافته .

وانفض المجلس بعد ما أمر السلطان بعقده غداً بالإيوان الكبير ليرى ويسمع ما جاء به وزير آل عثمان .

وفى صباح اليوم التالى فرشت أبهاء القصر الأبلق بالطنافس والرياش الجميلة ورتب الحجاب والمماليك والحرس الخاص على طبقاتهم على الأبواب والدهاليز والصحون والمجالس ، ووقف الجند صفين بالثياب الحسنة وتحتهم الدواب بالمراكب من الذهب والفضة وبين أيديهم الجنائب على هذه الصورة وقد حملوا الرماح تخفق براياتها ، فكانوا من باب القصر إلى الباب المدرج من خارج القلعة ووقف من بعدهم

المماليك السلطانية والخاصكية إلى باب الإيوان العظيم بالبزة الرائعة والسيوف والمناطق المحلاة وأعلن بين الناس قدوم وزير الأستانة فى سفارة للسلطان ، فكانت الطريق من بولاق الى القلعة وسائر المسالك والدروب والشوارع وسطوح المنازل تفيض بالنظارة ، وقد اكترى كل دكان وغرفة مشرفة بدراهم كثيرة .

وسار الرسول وحاشيته فى موكب حافل إلى القلعة .

وجلس له السلطان جلوسا عاما بالإيوان الكبير ونصبت له طراحة (منصة) عليها الحشايا من المقصبات وعلى رأسه سحابة من الحرير الأصفر بعواميد من ذهب ، فلما جلس اصطف من خلفه حملة الأطبار ومن حولهم الحرس الخاص شاهرين سيوفهم .

وجلس حول السلطان كبار الأمراء حملة السيوف وأعيان المملكة حملة الأقلام والقضاة والعلماء ودخل الوزير يحمل كتاب مولاه فى بقجة من أطلس أخضر عليها الطراز العثمانى من خالص الذهب تخدم مرتين .

وتناول الأمير يشبك منه الكتاب ومسحه بوجه الوزير وهو تقليد متبع ثم دفعه إلى السلطان ففضه بيده ودفعه للوزير كاتب السر فقرأه وفيه بعد الديباجة خالص التهنئة بالنصر الباهر الذى نالته جيوش مصر على التتار ويرجو أن تتوطد أواصر المودة وعهد الصداقة بين البلادين وأن يخلى سبيل الأمير أحمد بن هرسك العثمانى

فمال السلطان مبتسما إلى الأمير يشبك وقال له سرا : لماذا لم يطلبوا العفو عن الخائن إينال الذى لجأ اليهم ؟ فقال يشبك : لأن ذلك الخائن قد قتل على فراشه بالاستانة قتله أحمد الدنف وقتل معه شومان وعشرين رجلا من الزعر الخونة وحمل رؤوسهم فى صناديق ومعها خاتم الأمير إينال وسيفه وكل ذلك بين يدى مولانا . ورحب السلطان بالوزير العثمانى وقبل الهدية التى حملها وخلع عليه خلعة عظيمة أفيضت عليه بالمجلس ووعده بإجابة مولاه إلى كل ما طلب .

فخدم الوزير للمرة الثانية وعاد الى دار الضيافة على فرس من مراكب السلطان وأمامه بعض المماليك السلطانية وأعوان الوالى، فالتقى بالدار بالأمير أحمد بن هرسك وأعيدت هدية ملك الهند إلى العثمانيين ومعها الهدايا الثمينة وبينها تقليد من أمير المؤمنين الخليفة العباسى .

وبعد سفر الوزير استدعى السلطان إليه الأمراء الذين أبلوا فى قتال شاه سوار فأنعم برتبة أمير ألف على الأمير حيدر ، وأخرج له إقطاعاً كبيراً كبقية الأمراء العظام ، وعينه والياً لأقليم الغربية ويكون مقره مدينة المحلة وسيعقد له على خوند جلنار ابنة الملك المنصور عثمان ، ورفع رتبة جان بلاط فجعله أميراً لطبلخانة وزاد فى إقطاعه وحمل إليه خمسة آلاف دينار وأمر بأن يعقد له على ابنة وزيره كاتب السر، ثم رفع رتبة سيف الدين فجعله أميراً لطبلخانة وزاد فى إقطاعه وحمل إليه خمسة آلاف دينار وأمر بأن يعقد له على ابنة الطبيب محمد بن بقاء ، وأنعم على بقية الأمراء الذين حضروا حرب سوار بالرتب السامية والأموال الجزيلة .

واستدعى شاهين غزالى وقال : ما خابت فيك الفراسة ولا زلت عند حسن الظن وموضع الثقة ولن ننسى وفاءك وشجاعتك ، ورفعه إلى مرتبة أمير طبلخانة وكتب له إقطاعاً كبيراً وأموالاً جزيلة وأمر بأن يعقد له على كبرى وصائف القصر .

وعقد بالإيوان مجلس حافل لزواج الأمراء ، فجلس السلطان وعن يمينه الملك المنصور عثمان وشيخ الإسلام وكبار الأمراء وسائر العلماء والقضاة ورجال الدولة والأمراء الأربعة، فعقد لحيدر على خوند أولهم ثم عقد لبقية الأمراء على زوجاتهم، وكان بين الحاضرين من القضاة أديب اسمه بدر الدين بن كتكوت فمال على أذن زميل له وقال : أى عرس هذا الذى جمع شباب العرب بالترك ومزج روعة الحسن الباهر ونضرة الجمال الزاهر بسطوة البأس القاهر وألف بين الغانيات الفاتنات ذوات الأحساب التركية وأكفائهم من شباب مصر؟ !

فقال له صاحبه : ذلك توفيق الله الذى أخرج من صفوف المصريين أنداداً للترك بزوهم فى مدافعة العدو وحسن البلاء ، فعرف السلطان لهم أقدارهم وحمل إليهم كفاءهم من بنات الملوك ، وذلك هو الدهاء والسياسة الرشيدة يريد أن يوثق بها عرى دولته حتى لا يشذ عن ولائه أحد .

وزف العرائس إلى أزواجهن أجمل زفاف وحملت إليهم هدايا السلطان والأمراء ، وعاشوا فى بحبوحة النعمة والسعادة والهناء .

﴿ تمت بحمد الله ﴾

فهرس

		ص
الفصل الأول	: بركة الرطلى	٥
« الثانى	: ربع الزيتى	١١
« الثالث	: خضر البستانى	٢٢
« الرابع	: الخليفة العباسى	٣١
« الخامس	: عهد الفتوة	٣٦
« السادس	: ميدان القبق	٤٠
« السابع	: فرسان القصر	٥٠
« الثامن	: دهاء الدنف	٦٥
« التاسع	: بركة الفيل	٧٧
« العاشر	: حمام السلطان	٨٩
« الحادى عشر	: شيخ الاسلام	١٠٣
« الثانى عشر	: خيال الظل	١١٤
« الثالث عشر	: خان الخليلى	١٢٥
« الرابع عشر	: غرام الخوندات	١٣٩
« الخامس عشر	: أسرار الزعر	١٤٦
« السادس عشر	: عيد الشهيد	١٥٦
« السابع عشر	: كياسة	١٦٧
« الثامن عشر	: وفاء النيل	١٧٥
« التاسع عشر	: حزم وعزم	١٨٩
« العشرون	: الرهائن	١٩٦
« الحادى والعشرون:	إلى المنفى	٢٠٥
« الثانى والعشرون :	شاه سوار	٢١٥
« الثالث والعشرون :	زفاف الأمراء	٢٣٠

١٥٢٨/١/٨/١٩٤٥

٨٣٢

دار المعارف للطباعة والنشر

الثمن ٢٥ ص

893.7J216
O

BOUND
FEB 6 1956

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58902430
893.7J216 O
Amir Haydar.